J A L A L B A R J A S

سيرة روائية

A LITERARY BIOGRAPHY

جلال برجس

نَسِيْجُ الدُّودُوكْ

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإهداء

إلى أمي، شمس في سماء روحي.

إلى أبي، أنيسي الأبدي، ضد كل الليالي الموحشة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الأول

حين قرأت أول كلمة في حياتي سمعت صرير باب يُفتح، ورأيت شيئًا من النور يتجرأ على العتمة.

ضجيج جَوَّاني

في السابعة من عمري حدث لي أمر أستصعب تفسيره للآن. كان ذلك في إحدى ليالي صيف قريتي (حنينا)، زمن لم تكن تعرف فيه الكهرباء؛ فما إن تهبط الشمس وراء تلالها الغربية حتى تتفشى العتمة في كل شيء، إلا جهة تلوح منها أضواء مدينة (مادبا). قرية ينام أهلها باكرًا، حيث تنوس الفوانيس، وتتلاشى الأصوات، ولا يتبقى منها سوى نباح الكلاب، وثغاء الماعز، وخوار الأبقار، وسعلة من هنا أو هناك. في تلك الليلة جافاني النوم لأول مرة في حياتي، وبت أسيرًا لضجيج جواني، أسمع معه كلامًا محاطًا بصدى موحش. حالة يختلط فيها الترقب، بالرهبة، بالارتباك، بالشعور بقرب الإغماء. وإزاء تلك الحالة نهضت من فراشي، أتنقل ما بين نافذتي غرفة تنام فيها أمي، وشقيقاتي، وأشقائي. ليلة استنكرت فيها أن الجميع نيام إلا أنا، قبالة سكون فتح الباب أمام ما اجتاحني، فرأيته تواطأ ضدي، وما تحالف معي إلا صوت صرصار الليل، ونباح كلب بدا لي مكلومًا يرسل شكواه للفراغ المترع بالظلام الدامس. حليفان أحببتهما منذ ذلك الحين وما يزالا يشعرانني بالوَنس. دامت تلك الحالة نصف ساعة، وظلت فيما بعد تلازمني لأعوام، تأتي في أوقات غير منتظمة من الليل، ثم تطورت إلى مستوى باتت فيه مصحوبة بصوت آلة موسيقية فيها الكثير من الشجن. كنت أتساءل بفزع ولذة: من أين تأتي كل تلك الموسيقى. آلة بقيت مجهولة لي، إلى أن عرفت سرها المربوط بضجيج جواني اكتشفت أنه اختفي بفعل حكاية من جدتي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حدث أمر الحكاية هذا بالصدفة في شتاء عام ١٩٧٩. لم تكن (حنينا) بهذه الشراهة الإسمنتية نحو رعونة الزحام، وبلا تكنولوجيا جعلت رقعة المخيلة أضيق مما هو متوقع، وباتت تهدد بنية العائلة. صدفة شعرت فيها بيدين تسحبانني نحو عوالم الرواية، في ليلة يعلو فيها صفير ريح تأخذ نباح الكلاب إلى كل الجهات بِتَمَاوِج يؤدي إلى كثير من الوحشة، تنذر بعاصفة ثلجية كبيرة. بينما ضوء الفانوس يلد ظلاً يتحرك على جدران الغرفة، يشبه كائنات خرافية مرعبة. انزلقنا أنا وأخوتي وأخواتي في فراش النوم، لكنه تمنّع عنّا؛ فعدلت من جلستها بعد أن كانت تغرس كوعها في الوسادة؛ إذ بدا أنها تتهيأ لقول شيء ما. راحت وأمي تنصت لها، وهي تسرد حكاية حدثت قديمًا، عن أطفال ثلاثة مات والدهم، والتحقت به أمهم بعد أشهر؛ فتضاعف يتمهم، إلا من جدتهم أم أبيهم وتدعى (شلوى). وأمام فقر مدقع دفع العجوز إلى أن تطوف بالبيوت تستجدي ما يعينهم على العيش قائلة: (ما عندكم طعام لطويراتي) أي لطيوري. علم شيخ قبيلة شمّر آنذاك (عبد الكريم الجربا)

Telegram:@mbooks90

بأمر العجوز والأطفال الثلاثة، وأمر لهم ببيت جوار بيته مؤكدًا على الاهتمام بهم: (لا تنسوا طيور شلوى). كبر الأطفال: (شويش، وعدامة، وهيشان) وصاروا شبابًا يتسمون بالقوة، البدنية، والنباهة، والفروسية. وبعد زمن ارتحل عبد الكريم الجربا طلبًا للكلأ والماء إلى منطقة قرب الحدود الأردنية السورية، حيث تقطنها قبيلة أخرى، ويسيطر عليها الجيش العثماني، لكن الحال لم يستقر كما يتوقعون؛ طالبهم العثمانيون بدفع ضريبة تسمى (ودي). ونظرًا لعدم تكافؤ عدد قبيلة الجربا بالقبيلة الأخرى، وأمام بطش العثمانيين وافقوا على ما طلب منهم. لكن بعد مدة أُمروا بدفع ضريبة (المطبوق) أي ضريبة مضاعفة؛ فوافقوا عليها أيضًا. وبعد أسابيع من ذلك اليوم جاء فرسان عثمانيون يرافقهم آخرون من القبيلة الموالية، وطلبوا منهم أن يقدموا لهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(الخاكور). وحينما سألوا عن معنى ما يريدون؛ قيل لهم: نساء يستخدمهن الجيش للمتعة. في تلك اللحظة أنشد رجل مسن وهو ينظر غاضبًا وحزينًا إلى الرجال، ثم إلى قبور ليست ببعيدة عنه قائلاً:

هنيكم يا ساكنين تحت قاع

مامركم ودي تقفاه خاكور

هنيكم مُتم بحشمة وبزاع

وما من عديم ينغز الثور؟

وما إن أنهى الرجل أبياته حتى نهض (شويش) أحد طيور شلوى، وقد فهم معنى الشطر الأخير من البيت الثاني، والذي يشير إلى اعتقاد قديم بأن الأرض تستقر على قرن ثور، إن تحرك حلت القيامة، وأن الرجل يدعو إلى ثورة غاضبة؛ فهجم شويش على الفرسان الأتراك بسيفه ببسالة منقطعة النظير، وتبعه (عدامة، وهيشان) وامتدت المعركة بمعية باقي أفراد القبيلة إلى أن انتصروا.

روت جدتي الحكاية بوعي سردي عجيب، وبداية شيقة، واصفة للمكان، وللزمان، وللشخصيات بمستوى لافت. تتدرج في سردها للحكاية مستحوذة على انتباهنا، تستدرجنا إلى معرفة ما ستؤول إليه، حتى إنها في أسلوبها تركت لي مساحة لعيش الحكاية وفق منظورٍ تصوري للحدث له أن يخلق حكاية المتلقي الخاصة. إضافة إلى قيم أخلاقية وإنسانية تتوقف عندها، وتشدد عليها بوعي غير وعظي. منذ ذلك اليوم بت أكثر التصاقًا بجدتي، وحكايات ترويها بوعي سردي فطري فريد. وبعد زمن، والقراءة والكتابة تأخذانني إلى عوالمهما تساءلت: هل قرأت جدتي (ديستويفسكي)،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

و(تشيخوف)، و(تشارلز ديكنز)، و(محفوظ)، و(باختين)، وكل من وصلوا إلى قمم السرد، وأعادوا صياغة العالم عبر رواياتهم؟ أم أن هؤلاء قرأوا الجدات جيدًا؟

لم تكن جدتي تستسهل سرد الحكاية، ولا حتى ترويها انصياعًا لرغبتي؛ لا تقولها إلا إذا أحست برغبة ملحة تدفعها إليها، كأنها تفعل ذلك لأجلها هي، وما علينا إلا أن ننصت، نكمل مهمتها السرية في السرد؛ مهمة امرأة مزاجية، قاسية، حنون، سريعة البكاء، سريعة الغضب، حكيمة، لها روح تواقة للحياة، لها روح ساخرة، لها روح سوداء. خليط يصعب أمامه استنتاج تحليل واضح لشخصيتها. لكن ما فهمته من كل ذلك التعدد في السمات؛ هو الولع بحكايات أدركث فيما بعد أنها تقولها من أجل استصلاح مناطق جوانية في تكوينها العجيب.

ما إن أنهت جدتي سرد حكاية (طيور شلوى) حتى دبّ بنا النعاس، وفي مخيلتي تحوم مشاهد، وأصوات، لرواية ربما تكتب ذات يوم؛ فنمت غير منتبه إلى أن الريح تراجعت عن صفيرها، وساد السكون، والسكينة، من دون أن ندري أن الثلج زمّل القرية، وأننا على موعد مع بياضه الملائكي صباحًا.

وعلى ذلك النحو وجدت ما يصد ضجيجي الجواني، ويحجبه مؤقتًا عني. حالة لم أعرف تفسيرًا أو سببًا لها، وهي تقتحمني بشراسة مفرطة، وتدفعني للتساؤل: هل لكل واحد منا ضجيجه؟ وهل أتت نتيجة لتراكمات من المشاهدات، والحوادث؟ مشهد أول امرأة رأيتها في حياتي تزيل شعر عانتها بخليط الليمون والسكر. مشهد أول شخص ميت. مشهد أول كارثة تحل بالعائلة. مشهد أول سلوك ديكتاتوري مارسه علي معلم الرياضيات حين لم يوافق على ذهابي إلى الحمام فتبولت على نفسي. ضجيج هربت منه إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حكايات جدتي، ثم هربت من احتمال عودته إلى قراءة أدين لها بأن جعلتني في ذلك الزمن أصعد شجرة السرو لأرى ما رأيت في أول كتاب قرأته. شجرة كنت أنظر إليها خلال نافذة بيتنا الأول، وأنا مستلق في فراش النوم، أتأملها وهي تبدو لي كقلم يقف في الهواء. ومن كتاب إلى كتاب، إلى أن بت كمن تطارده الدبابير فألقى بنفسه في النهر، وما إن ضاق نَفَسُهُ وخرج من الماء وجدها بانتظاره لتوسعه لسعًا.

إذن هربتُ من الضجيج الجواني إلى حكايات جدتي، ثم إلى القراءة، ثم إلى الكتابة، ثم إلى السفر، حيث جربته للمرة الأولى في مفتتح الشباب. وقتها شعرت بأن المسافر يحمل معه ما أراد من الحقائب، لكنه لن يحمل كامل حزنه. إنه انتصار لا إراديّ لشرفة داخلية تهيئ نفسها لأناس جدد، وأماكن طازجة، وأحداث غير متوقعة.

تقت إلى السفر مبكرًا حين رأيت عمي عزيز يعود من (رومانيا) في إجازته السنوية دارسًا للطب، ثم يغادر. وغرقت في ذلك التوق أكثر حين عثرت على حقيبة جلدية فيها كل رسائله الورقية، وقد كُتبت بأسلوب أدبي يعلوه الحنين، وامتداح البلدان البعيدة. كان عمري أحد عشر عامًا عندما رأيت المطار، والطائرة، والمسافرين لأول مرة. ولا أدري لماذا لم أرَ صورتَي المطار العاطفيتين: صورة الحزن الذي يخيم على قاعة المغادرين، وصورة البهجة التي تعلنها بسخاء قاعة القادمين. رأيت فقط ما على وجوه المغادرين والمودعين من بهجات واضحة رغم بكائهم. كنت منفصلاً عن أحاسيسهم القروية الساذجة وهي ترى في السفر احتمالات غياب أبدي، ومتصلاً بفكرة الهروب ليس فقط من القحط والغبار والألم نحو بلدان خضراء، بل من احتمال عودة ضجيجي الجواني.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قبل سنوات أصيب أحد معارفي بالاكتئاب، في البدء هرب إلى الخمر؛ فأدمنه، وما جنى منه إلا حلولاً مؤقتة. طرق أبواب حلول كثيرة وما شفي، ثم راح يتعاطى عقاقير جعلت منه إنسانًا أكثر هشاشة. بات مدمنًا عليها، إلى درجة أنه أخذ يبتلع ما يقارب خمس عشرة حبة يوميًا من أنواع أوصى بها الطبيب له. إلى أن أنهى حياته منتحرًا.

في عام ٢٠١٨ كنتُ جالسًا في مقعد خارج صالات مطار (هيثرو)، في (لندن)، أنتظر سيارة ستقلني إلى (ويلز)، أدخن بشراهةٍ سيجارة حُرمتُ منها لساعات طويلة، وأحدّق بطائرات تهبط كأب يهرول نحو أبنائه مصابًا بالحنين، وبأخرى تصعد درج السماء تبتغي مُرادًا في البعيد. ووراء كل ذلك يتهادى إليّ من دواخلي الصوت الموسيقى المعهود وهو تارة يجرح روحي بتمهل، وأخرى يمسح رأسي بيدين حانيتين. على كتفي حقيبة فيها أقلام، ودفتر للكتابة، ورواية ترافقني ضد المسافات الطويلة، ودواء للقولون العصبي، وهاتف نقال. يومها تساءلت: هل صارت حياتي سلسلة من حلقات الهروب؟ أم أني عبر القراءة، والكتابة، والسفر، أسعى إلى ضجيجي الجواني كمن يهاجم وحشًا بقي يخيفه لسنين مُطلقًا صرخاته، وهو على رأس الجبل في الليالي المعتمة؟ ماذا لو، في هذا الزمن الملتبس، لم تفتح لي الكتابة بابها، فأعطتني تصريحًا مطلقًا بأن أفرغ ما بي على الورق؟ ربما أكون إما مجنونًا، أو مجرمًا مطلوبًا للعدالة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اعترافات على كرسيّ المتوسط

الجزائر

أقسمت لأقراني أني أطير بلا جناحين. وفي اليوم التالي رفعت أمام أعينهم كتابًا، ورحت أروي لهم الحكاية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

أقف إلى نافذة بيتي المطلة على الجهة الجنوبية من (حنينا)، من وراء موسيقى تتدفق من كهوف في دواخلي حانية، وحزينة في الآن نفسه. تلقي الشمس على الأشياء مسحة خفية من أسى أحس به ينبثق من رمادية الأفق عند الغروب. خلت حبال الغسيل من الملابس التي بدت قبل ساعات كما لو أنها تؤدي مشهدًا على خشبة مسرح واسعة لريح هبّت فجأة في المكان. تهتزّ الأشجار كأنها تتوجس من حدث ما. السماء خلت من رفوف الحمام الذي لاذ بأعشاشه باكرًا في ذلك اليوم. نوافذ البيوت مغلقة على غير العادة في ربيع تأخر دفئه هذا العام. ثمة أغنية لامرأة تشكو وجع الغياب تأتي من سيارة تصطف على كتف الشارع. انطلق صوت طفل رضيع يبكي بحرقة من بيت جاري، ثم تلاشى. شهقت نفسًا عميقًا؛ فشعرت بشجر في حقول سرية تعيش بي، يتحرك ضد سكونه المعهود. أشرعت النافذة أكثر من ذي قبل؛ فتنفستُ أكثر. ثمة نساء بدويات نهضن في داخلي، يؤدين حداء يحزّ نياط القلب، مشهد شبيه بمشهد النساء المتشحات بالسواد يوم رأيتهن يرثين جدي. سحبت بدني إلى الأمام ورحت أستنشق الهواء أكثر، أكثر. سمعت صوت طفل يولد للتو، وصوت ولد يخربش أول الكلمات بلوح الطبشور على السبورة في المدرسة. عبأت رئتيّ بالهواء أكثر كناجٍ للتو من الغرق، بينما رائحة الشتاء ما تزال على حالها، تحرن وراء الأشياء، ترفض الرحيل.

عادة ما يعيدني بكاء الأطفال إلى لحظة ولادتي، وما قبلها. يأخذني بكل سخاء إلى المخيلة؛ أعيشها ببذخ كبير؛ وكأنني منذ تلك الليلة قد ربحتُ عينين تريان ولا تُريان. يخيل لي الآن وأنا أصوّب القلم نحو الصفحة، كمشرط يستهدف صدرًا ليشجه، أني أجلس بصفاتي الشبحية على أكياس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حبوب مرصوصة فوق بعضها في زاوية الغرفة. ثمة نسوة اجتمعن حول فراش في غرفة من جدارها يسقط ضوء فانوس شحيح؛ فبدت الأجساد وهي تتحرك مقرونة بظل بدا مخيفًا في الليلة الثالثة من حزيران عام ١٩٧٠؛ ظلّ غمر الأشياء بملامح رمادية، جعلت ما يجري شبيهًا بفيلم سينمائي بالأبيض والأسود. عبرت امرأة باب الغرفة المعدني وهو يئن بفعل صدأ في مفاصله، حاملة بيدها إناء ماء يتصاعد منه البخار، وبضع قطع من القماش. على وسادة مرتفعة تقرفص امرأة بملاءة سوداء، ووجه حفل بوشوم خضراء على الخدين والذقن، وبين العينين. تضع يدها على خدها، وتولول دونما توقف: (يا ويلي عليج يا فاطمة. يا ويلي عليج يا بنية أختي). تنهرها امرأة خمسينية، تتكئ على الجدار غارسة يدها اليسرى في خصرها، ويمناها ممسكة غليونًا يتصاعد منه خيط دخان تبغ (الهيشي): (بس يا مَرَه، نوح وانحا، فال بعيد إن شاء الله). ثمة فتاة بعمر العشرين تجفف حبات عرق تندت من جبين المرأة العشرينية المستلقية في الفراش، بينما (الداية) تدس رأسها تحت بطانية ألقيت على قدمي المرأة وهي تئن لفرط ألم الولادة، تطلق آهات طويلة. تأمرها الداية: (ادفعي، ادفعي يا بنيتي، كمان، كمان.)

من خارج البيت يأتي وقع خطوات أقدام مضطربة، تتقاطع بهمهمات غير مفهومة، وصوت أنثوي حاد، وطقطقات ولاعة تعمل بالكاز. أشعلت المرأة الممسكة بالغليون وجه التبغ، وشهقت بنفَس عميق، ثم بتوسلٍ زجرت المرأة المستغرقة في ولولاتها: (يا شينه خلص لا توجعيلي قليبي). بينما راح صوت (الداية) يرتفع ببكائية متضرعة: (يا رب، يا رب، يا رب. ادفعي يا بنيتي، ادفعي).

من مكان قرب الباب يأتي صوت رجل شارف على الستين: (يا رب يا رب.)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيتعالى أنين المرأة العشرينية وصراخها، إلى أن انقطع الصوت وانبثق بعده صوت حاد لوليد راحت الداية تضرب على ظهره ضربات خفيفة وهو يصرخ: واااااع. واااااااع. واااااع.

رمت المرأة المدخنة طوال ذلك الوقت بشراهةٍ غليونها جانبًا، عندما رأت المرأة قد وضعت جنينها، وأغمي عليها؛ فراحت ترش وجهها بالماء إلى أن استفاقت متعبة، مسندة ظهرها إلى الجدار. فكت أزرار قميصها، بيدين مرتخيتين، كاشفة عن ثدي ما إن قربت الداية الوليد منه؛ حتى التقمه وهو يطلق نهنهاته الأولى. حينها قفزتُ من فوق أكياس الحبوب في زاوية الغرفة، وتماهيت بالجنين، أتنهنه بكلمات لم تسمعها النسوة في تلك اللحظة: (يَمَّه، يَمَّه، يَمَّه).

قلت من قبل: كأنني منذ تلك الليلة قد ربحتُ عينين ثَريان ولا ثُريان، لذا أراني الآن في الخمسين من العمر، كهلاً بشعر أبيض، وظهر متقوس، بلا رغبات، بلا مطامع، بلا أحلام سوى أن يعود إلى عوالم الرحم، بيته الأول، الذي يرى مغادرته له خديعة كبرى، جناية يتحمل جريرتها، فهو عاجز عن الوصول إلى حقيقته، وحقيقة مكانه، وزمانه. إنه متورط في وجوده، مرتبك أمام هذا الصخب الكوني. وحين يرتبك الآدمي ستأخذه مخيلته إلى مزيد من الأوهام.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

تتبعني موسيقاي، تفسر لي الأشياء، تقرّب المشهد، وتريني حقيقة البذرة. أمرُّ بحقيبة السفر، كائن صامت على طاولة في ممر بيتي، ساهمة بشيء ما. أتأملها، وأتساءل بحيرة شاعر قبالة أغنية تؤديها شجرة وحيدة في العراء، عما تحفظه الحقائب من دروس المسافات، وعما يمكن أن نستنبطه من صمت الأحذية أمام سياط الجغرافيا. بيننا وبين أشيائنا شراكة السعي إلى حقيقتنا الملتبسة. أشياؤنا ليست مجرد جمادات صماء، إنها نحن، فيها من أرواحنا الكثير، ولو قيض للإنسان أن يقرأ شيفرة ذاكرتها لوجد أن صورة طبق الأصل منه أودعت فيها. لن أتخلى يومًا عن الأقلام التي بقيت لسنوات بين إصبعيّ تدلق حبرها على بياض الورق، ولن أستغني عن طاولتي، وكرسيي، ومصباحي، ومنفضة سجائري، ونظارتي؛ لقد كانت وما تزال ترافقني كأطفال يسيرون بمعية أبيهم في درب معتمة، كلٌّ منهم يؤنس الآخر، أملاً بطرد شبح الخوف.

ما إن أضع قدميّ على أرض المطار حتى أشعر بخفة لا أعهدها إلا حين تتجه البوصلة إلى بلاد جديدة. إنه شكل إضافي من أشكال الهروب الشرعية في دواخلنا المعتمة، نحو ضوء ينيرها.

أجلس إلى طاولتي، وأشرع نافذة البحث في (غوغل)؛ أريد غير ما أعرفه عن الجزائر. ما الذي يمكن أن يقدمه عالم إلكتروني عن بلاد عظيمة، أقصى أهلها النارَ بأيديهم وهي تسعى لالتهام حقولهم الشاسعة؟ أقرأ معلومات خاطفة، لم تضف شيئًا زائدًا عما أعرفه. أغلق الحاسوب، وأكتب في ورقة مقولة النفري: (كل إبحار إلى الضفة الأخرى يعول عليه). أتأمل هذه العبارة وأتفكر من جديد بولعي بالسفر. أي خيط يربط الكتابة بالسفر؟ وأي هوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أهرب منها في إلقاء روحي إلى ولع الجغرافيا بالركض نحو طرف أفق لن نصله.

السفر خروج على الرتابة، وسعي إلى الشمس، تمامًا مثل حجر في الربيع، ما إن نقلبه حتى يتنفس العشب الذي كان تحته، ويحتفي بالحياة، رغم أنه يعرف مصيره بالليباس.

أمتثل لقلق ما قبل السفر، ولا أعانده. يبدو الامتثال أمام مشاعر لا مناص منها حلا مناسبًا يجعل أحد طرفي المعادلة ينسحب إلى لجة الصمت. ألقي بيدني في سرير النوم، وأنام حتى التاسعة مساء. أدخن سيجارة بكسل قط في بقعة شمس دافئة. أقرص مفتاح المذياع فلا تعجبني أي أغنية مما وجدتها في المحطات. تذكرت أني لم أتحدث طوال اليوم سوى بكلمات قليلة. ما عدت أجيد الكلام خارج الورق. في بياض الصفحات أصرخ كما يشتهي ولدٌ يتأرجح في كون فمي. أضحك كما يريد القلبُ أن يستلقي على ظهره مصابًا بضحك وكزكَرات، وأبكي أيضاً كطفل بقي يتنهنه خوفًا من الليل وهو يمسّد شَعر آخر النهار، إلى أن نام. ما عدت أقوى على المشي خارج الورق. عند عتبة مدينة البياض أربط قيطان حذائي، وأرفع ياقة معطفي وأمضي. لا حراس، ولا خاتم جوازات للمرور. أمرّ كأني كائن شبحيّ. لا طائرات، ولا قطارات. لي قدمان من خزف الخيال، ولي ريش خفي، ولي أغنية أتبعها إلى بعيدٍ كلما خِلْتني لامسته، ينأى في البعيد. ما عدت أريد الحب خارج الورق. أحمِّمُني بغواية الحكاية حينما يريد الروائي أن يعترف بما حدث له ذات يوم وراء ستائر سرّية. أعَطّرُني باشتهاء الشّعر عندما يصير الشاعر نحاتًا يحوّل حجرًا إلى امرأة تسهو بالفراغ. أُلبِسُنِي رداء الأغنيات وقت أن يضجر الحصادون من رعونة الشموس، وأحمل قلمي، وأشج بطنَ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصفحة فتُطلّ حبيبتي متوجة بالرذاذ، فأحملها كريح إزاء سحابة إلى سرير اللغة، وأمعن بالغناء كنحلة عند فم زهرة وحيدة في الفراغ. ما عدت أحِبُنِي إلا متلحفاً دفء عزلتي. هناك يُشغِلُنِي شتاء آخر، يسحُ على زجاج نافذة الصفحة. ومن ورائي يستحيل قلمي إلى ناي عتيق في الشّجن، يبقى يهدهد قلبي إلى أن أنام، كأن هذا العالم بريء من المقاصل، بريء من السّكاكين، وبريء من الخسارات.

في مكتبتي أقلب بصري بين الكتب لأنتبذ رواية ترافقني في السفر. أمرر أصابعي على الكتب المتراصة وهي تنصاع لشرود صاخب؛ فأختار (الغريب) لـ (ألبير كامو). أودع الرواية حقيبة اليد. أتأمل تذكرة السفر، من عَمان إلى إسطنبول حيث خمس ساعات من الانتظار، ثم إلى الجزائر لأحل ضيف شرف على الصالون الدولي للكتاب.

حينما أقرأ رواية أصير مؤلفها، هكذا ينبغي على كل إنسان يؤمن بجدوى القراءة أن يفعل؛ إنها ليست حالة من تقمص المكتوب، بقدر ما هي تقمص لحالة الكاتب الذي أمضى سنوات وهو يجسد الفكرة، ينتقي الكلمات، يصارع الأفكار، ينظر إلى ميزانه الكتابي مرة، وأخرى يركله بعيدًا عنه منصاعًا لصوته الداخلي الحر. إن القراءة أمر ممتع، لكن هذه المتعة لا تأتي إلا من المشقة، حتى نلتقط تلك المقولة الصغيرة التي كان يمكن للكاتب أن يختصر روايته فيها، معفيًا نفسه من المشقة، حينها لن يكون هناك رواية، ولن يكون هناك سعي إلى النور. عندما نقرأ جيدًا فإننا نعيد كتابة ما قرأنا في أوراق مخيلاتنا، من غير أن نعي.

عند الحادية عشرة والنصف مساء غادرت البيت. ليل ربيعي برودته الغريبة أطالت في عمر عشب كسا هذا العام معظم المدن الأردنية. قمت بإجراءات

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السفر، وجلست في مقهى داخل المطار أشرب قهوة لا ترافقها السيجارة، وأنظر في وجوه حزينة يثقلها الفراق، وجوه تعلوها بهجة العائد، وجوه صامتة، وأخرى محايدة. أترك كوب القهوة على الطاولة وأمضي، أفتش عن مكان أدخن فيه سيجارة، مع علمي أن أماكن التدخين أغلقت بعد تفشي (فيروس كورونا). تلح عليّ تلك التي تنصاع للاحتراق بين شفتي، تلح إلى درجةٍ أخشى فيها أن يتعكر مزاجي إن لم أستجب لها. يهمس لي مسافرٌ بعد أن سمعني أسأل: (اذهب إلى التواليت). أكركر ضاحكًا بسري، ثم أفعلها بمزاج ساخن، وأعود بتوازن ترافقه ضحكة سرية. ما يزال أمامي ساعة ونصف على الإقلاع. أجلس في مقعد قبالة مدخل الممر إلى الطائرة، وأقرأ في رواية (الغريب):

(اليوم ماتت أمي، أو ربما ماتت أمس، لست أدري. لقد تلقيت برقية من المأوى تقول «الوالدة توفيت. الدفن غدًا. احترامنا.»).

أفكر بهذه الانطلاقة جيدًا، وبما تتضمنه من برود عبثي بدأ به (ألبير كامو) روايته على لسان (ميرسو). يستفزني، ويدفعني إلى تفكيك ما يقوله من غير معزل عن شخصية (كامو) وميوله الفكرية، وكل ما قيل عنه. لا بد أن وراء هذا التكثيف ما يمكن استنباطه. من بين كل روايات (كامو) فإن (الغريب) تحديدًا هي الرواية التي لا يمكنني الفصل بين شخوصها، وبين مؤلفها، ليس فقط لما صنعته من جدل سياسي، إنما أيضًا لما وجدتُه يشير فيها إلى ما يتوارى في وعي (كامو) من تناقضات فكرية، لا يمكن فهمها إلا بفهم ما حدث للجزائر.

(اليوم ماتت أمي، أو ربما ماتت أمس...) كلمات تنبش عش الذاكرة. أحس بأمي قربي. أحس بطيفها الدافئ، وأشعر أني نشيج خفي في صدر أعمى رأى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قمرًا في المنام. أنا لست (ميرسو)، أنا الذي ما زلت أقبل أيادي الأمهات بحثًا عن رائحة يد أمي. أرخي رأسي على مسند الكرسي، وأغمض عيني فأراها: امرأة مربوعة القامة، بيضاء البشرة، لها جديلة طويلة، وشامة عند الفم، وعينان جميلتان تضيقان عندما تضحك. أراها تقف بباب حوش الدار، وتنادي بصوتها الدافئ عليّ، وأنا أفترش التراب أحاول استيلاد شكل ما من طين كان بوابتي الأولى إلى اللعب. تقتادني نحو صنبور الماء وتحممني وسط احتجاجي على إبعادي عما أحب، ثم أهدأ في حضنها. أهدأ؛ فأنام.

أرفع رأسي عن مسند الكرسي. تتكاثر أعداد المسافرين، وصوت أمي ما يزال في أذنيّ كهديل حمامة عند الغروب، أمد يدي إلى علبة السجائر وأكاد أشعل واحدة، لكني تنبهت؛ فعدت إلى التواليت، وأشعلت سيجارة، وغرقت ببكاء صامت.

أعود إلى مقعدي يعتريني بما يؤدي إليه الانتظار، وألوذ بـ(الغريب)، عادتي في الاحتماء، عادتي في الهرب، أو ربما في البحث عن مفتاح في جيوب الآخرين يُمَكنني من تجاوز باب صدئٍ يفضي إلى مساحة آمنة، تعينني على أن ألتقط أنفاسي المتلاحقة منذ زمن.

يسافر (ميرسو) إلى دار العجزة حيث كانت تقيم أمه التي انقطع عنها عامًا، وبروده ما يزال يتلبسه. يأخذنا (كامو) عبر تلك الطريق من دون اهتمام بالمكان الجزائري وأناسه وزمانه. يعجبني هذا التكثيف، ويثير ريبتي في الوقت نفسه. لماذا لا نرى الجزائر في رواية مثل هذه؟ ومن هذا الشخص الذي ماتت أمه ولا تبدو عليه أية أمارة للحزن؟

يبكي الأطفال حين تغيب عنهم أمهاتهم لدقائق، ويبكي الرجال حين تموت أمهاتهم من دون أن يفصحوا عن طفولتهم الكامنة فيهم إلى الأبد. أغمض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينيّ، وأرتد إلى الوراء. أحاول بوعي المتقمص تأمل ما قبل صرختي الأولى عند الولادة. لحظة غامضة، كلما سعيت إليها أسمع من أعماقي صدى عتيقًا، لتوسلات غنائية تحاول إقناع الحوت أن يطلق القمر من فكيه، خشية من الخسوف، وأسمع حداءً وتيرته حانية، يتقاطع بأغنيات خشنة، وصفق أكف متحمسة، وصوتًا لطقطقة حطب تحت سلطة ألسنة نار شرهة، ولعلعة رصاص تقذفه بندقية بيد رجل دمه حار، وزغرودة تبدو لي كطائر على ارتفاع منخفض يعاين وهادًا صحراوية، وهو يمضي ببطء نرجسي، وقصائد شعراؤها ملتاعون، عاشقون، عطشى، وعواءً بعيدًا لذئب صحراوي، صدىً لم يتوقف منذ أواسط الطفولة عن ترتيب لقاءات منظمة مع بداوتي.

هل هو انتماء يجيء لي به شريان السلالة؟ حين لا حيلة للمدن بكل إغراءاتها، وصخبها، وليلها الجاذب، على تبديده؟ هل هو عتيق يتجاوز شهقتي الأولى إلى الوراء بآلاف السنين كما يراه (يونغ) قادمًا من كهوف العقل الباطن، ذلك الذي يسميه (اللاوعي الجمعي). امتدادات على حد قوله: (تجلب إلى وعينا العابر حياة نفسية مجهولة تعود إلى الماضي البعيد. إنه ذهن أسلافنا المجهولين وطريقة تفكيرهم وشعورهم وطريقة تجربتهم للحياة والعالم والآلهة والبشر. من المفترض أن وجود هذه الطبقات القديمة يُعدّ مصدر إيمان الإنسان بالتقمص وذكريات التجارب السابقة. كما يُعتبر جسم الإنسان بمثابة متحف، إذا جاز التعبير، وذلك عائد إلى تاريخه التطوري، وكذلك الحال بالنسبة للنفس) Jung, Collected Works vol. 9.I (1959), "Conscious, Unconscious, and Individuation" (1939), 518 (pp. 286-287).

أي متحف عتيق له كل تلك الطبقات أنا؟ تأتي إليّ منه روائح مصدرها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أغوار زمنية سحيقة، وتتهادى منه أصوات لأفواه ليست هنا. إنها نوع يصعب أن نخبر أحدًا عنه، حالات عصية على البوح، تلوح فقط في وجوهنا، وفي تصرفات تقدم نفسها كشجرة خضراء في حقل يابس في مواقف معينة، رغم ما نتسلح به من معارف، ومن قناعات ثقافية، وميول لا تتوافق مع جذورنا الأبدية. امتدادات عميقة في وهاد ذاكرة عادة ما تكون هشة في مفتتح حياتنا، وتنتهي على هذا النحو؛ محطتان بينهما يحدث كل شيء: الحب، الكراهية، البهجة، الحزن، اللذة، الجفاف، الشبع، الجوع، الأمل، الإحباط، الجشع، الكرم، النجاح والفشل، الربح والخسارة، والموت. محطتان يمضي ما بينهما ولا يتبقى إلا تلك الصور المطبوعة على جدران الذاكرة، تمامًا كمحتفلين أوسعوا الدنيا غناء ورقصًا، وفي آخر الليل ناموا كأنهم ليسوا من قام بكل ذلك الضجيج.

أنا الحفيد الأول للعائلة. تزوج جدي ثلاث نساء؛ فأنجب أحد عشر ولدًا، وأربع بنات، وعى معظمهم في زمن القحط، والمحل، والفقر، لكنهم كبروا، وجدي يدفعهم بإصرار وعناد إلى أن ترحب بهم الحياة. وما أن صار له ذلك؛ حتى راح الخوف يتملك جدتي من أن تتمكن منهم العين الحاسدة. بقيت تحضهم على ألا يمشوا جماعة واحدة؛ تقول ذلك بصوت تختلط فيه نهنهة البكاء، بكركرة مبتورة. يتملكها الخوف عليهم رغم أن نصفهم ليسوا أبناء رحمها؛ فقد أنجبتهن ثلاث نساء، مع ذلك فهي تحبهم بتساوٍ جميل لا يحدث عادة. كانت دائمًا تقاسي هاجسًا مرعبًا مفاده أن ضررًا ما سوف يصيبهم. تطرد هواجسها، وأثر كوابيسها بالبخور، والأدعية، ودخان نبتة (الحرمل). تخشى الأرواح الشريرة، وترى أنها تسكن قلوب بعض البشر، وتنفذ عبرهم ما تريد. تغضب إن رأت امرأة من نساء أولادها تدلق ماء عند الغروب، وتلقي شيئًا في الظلمة، أو تسمع أحدًا يغني في تلك اللحظات المقدسة، والشمس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تستريح من مهمتها اليومية. تزعم أنها ترى كائنات خفية، إن غضبت من أحد ما؛ فإن انتقامها سيكون شديدًا. لم أشعر بجدي يعاني ذلك الخوف؛ في وجهه ملامح رجل قوي، ذي شكيمة، وصبر، وعناد غريب. خليط من روح بدوية لا خشية فيها من الشقاء، ومن روح القرية القاسية. لكن مع الأيام أدركت أنه يحمل في دواخله خشية على عائلته من العين الحاسدة. لم يَخف عليهم من الجوع، وهو يرى جدتي تعصر ثديها في سنين المحل لترضع طفلاً يئن جوعًا. أو وهو يشاهد أبناءه يتسلحون بالخبز والشاي كإفطار قبل أن ينفقوا ساعات النهار في المدرسة بملابس رثة مرقعة، وأحذية ليست لهم؛ إذ يهبط إلى الوادي، يجمع الأحذية المهملة، وينقعها بالماء إلى أن تلين، ثم يعيد صناعتها من جديد، فيرتدونها رغم اختلاف ألوانها، وأشكالها، وحتى مقاساتها. لا يذهبون إلى الحلاق. يزيد من حدة موسى الحلاقة مستخدمًا حزامه الجلدي. يجلسون واحدًا واحدًا على حجر ويستسلمون للموسى، الذي يترك في رؤوسهم جروحًا شتى يطهرها بالملح، غير مكترث لبكائهم. كانت على حد استذكار أبي لتلك السنين حفلة تعذيب يخرجون منها برؤوس فيها خرائط لأماكن مجهولة.

أما أبي، فهو رجل قَدَرِيّ يمضي في الطريق غير آبه بالنتائج. أتذكر أني كنت ألعب في كومة رمل يستخدم للبناء، سقطتُ على يدي اليمنى، وتضرر شاهدها. لم يكترث لما أصابني من ألم؛ رأى أنه وجع مؤقت. بعد سنين انتبه إلى أن إصبعي أعوج، إن أردتُ الإشارة إلى شيء، أشار إلى آخر. ضحك وعيناه الجميلتان تتسعان، ثم قال هامسًا: لا بد أن في ذلك حكمة ما. كبرت ولم أغامر بأي إجراء طبي يصوب هذا الإعوجاج؛ خشيت خسران الكتابة إن فشل التصويب، احتمال يشبه فقدان مصباح في غابة معتمة تعج بالوحوش. ومع الأيام نسيت أمر إصبعي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذات ليلة جلست إلى طاولتي، يدي تمسك بالقلم، وتصوبه إلى الورقة. قبل أن أستسلم للكتابة تنبهت إلى إصبعي من جديد؛ فتساءلت: كيف لي أن أشير إلى نفسي بهذا الإصبع الأعوج؟ كنت على أهبة الشروع بكتابة رواية يدفعني إليها شغف كبير. أفضى السؤال إلى آخر: من الذي يكتب، ويشير؟ هل هو جسدي هذا الذي تغلب ملذاتُه ومطامحه روحي السجينة وراء قضبانه؟ أم روحي؟

في الكتابة أشير إليّ، وإلى العالم، ونحن في خضم عاصفة من التيه. حين كتبت الشعر فإني كنت أدلني عليّ كجزء لا يكاد يذكر في هذا الكون اللانهائي بمنطق مرعب. وحين كتبت الرواية فإني دللتني عليّ عبر العالم. أعرف أن الإنسان كائن خائف من الله، والموت، والمجهول، ومن الحقائق الغامضة. وأعرف أن الخوف يحتل مساحة كبيرة من تاريخه الشخصي والعام، لكن الذي يخاف فيه هو جسدُه؛ يخاف الألم، وخسارة المتعة، بينما الروح لا تتنازل عن جرأتها في البحث عن الحقيقة، حقيقتنا، وحقيقة هذه الحياة التي تزداد تعقيدًا بعد أن صار جسد الآدمي سلعة للاختبارات الجينية، والتجميلية، والجنسية. إن أول ما يخشاه الأب عند اندلاع الحرب هو فقدان البيت، ليحتمي به من القذائف، والنيران، وأمراء الحروب، خشية على نفسه، وعلى العائلة. وحين يجد أن البيت غير قادر على حمايته يهرب لاجئًا، وإن لم يؤَمِن له لجوئُه ما يريد، يكتفي ببيته الداخلي. إن أجسادنا بيوتنا التي تسكنها الأرواح؛ لهذا يتأقلم الإنسان في أوقات الحروب، إنه ليس لاجئًا بالمعنى المطلق، لكنه خائف، يخشى جسده الألم، ويخشى الموت، من هنا يخلق الانصياع الزائد عن حده للجسد كائنًا جبانًا، بخلاف الاستشهاديين المؤمنين بأرواحهم، والذين لم يكترثوا بأجسادهم، وليس لديهم أدنى قيمة للألم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

عند الثالثة والنصف من صباح السبت، وقفت الطائرة على رأس المدرج لتقلع إلى تركيا، ثم إلى الجزائر. تجلس بقربي فتاة بدا أنها تسافر للمرة الأولى؛ تستغرق بالدعاء واضعة كفيها قرب فمها. توسلات ازدادت مع تسلق الطائرة سلّمَ الهواء، وهي تهتز، وتئن، إلى أن استوت. خرجت المضيفات يتهيأن لتقديم الطعام والشراب؛ فأمسكت الفتاة هاتفها النقال، وراحت تلتقط صورًا لنفسها، ولأضواء مدن نمر فوقها. يتقاطع وجه الفتاة الساهم بعد أن فرغت من التصوير بآخر الأضواء الشاحبة وهي تناكف العتمة. أتأمل الطائرة: حيّز متنقل بذاكرة جوالة. كيف يمكن للأمكنة أن تسافر بهذا الوعي السوريالي؟ أتأمل المسافرين، وأحاول ولوج ذاكراتهم، وأبني حكايات ربما لم تحدث بعد. أرى ذكريات الزوايا المعتمة في بيوت الطفولة، أشم رائحة الأماكن الأولى الرطبة، أسمع صوت أولى قبلات حدثت بكل براعة الشبق القادم للتو.

ارتكبت القبلة الأولى في بيت مهجور معتم رحل عنه سكانه، تسقط على جزء منه خيوط شمس نيسان المعنية بالوقوف بين كائنات الدفء والبرد. كنا صغارًا جدًا، لا نعرف من لغة الجسد سوى ما سمعناه من أقراننا. أخذتنا طريق اللعب إلى ذلك البيت، في محاولة استكشاف عشوائية. ثمة ملابس داخلية ملقاة على الأرض رحنا نقلبها، ونتأملها، حتى إننا اقتفينا رائحة غريبة في خيوطها. حدثتني عما رأته في ليلة شتائية بين أمها وأبيها، وأنفاسنا تضطرب، تتعالى، ثم صارت أكثر حرارة. علمتني كيف هي القبلة. ففعلناها وهربنا. بعد أيام تبادلنا الشكوى حول شكل من الخدر أصابنا، وعن منامات غريبة لم نرها من قبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يسحبني (كامو) إلى عوالمه. أمشي وراء ضوئه السردي المكثف؛ فأرى (ميرسو) لا يأبه بموت أمه. ينهض حزني من دواخلي على شكل مارد جسور، ويصرخ محتجًا. أذهب إلى المشهد من زاوية أخرى. ربما أن هذا أقصى درجات حزن (ميرسو) على أمه. إذا ما علت الفجيعة؛ يعلو الصمت موازيًا لها، تصبح كل الأشياء متساوية، ويولد شكل جديد من الاحتجاج الوجودي على الخسران.

شكوت لصديق بعد رحيل أمي بسنوات أني لا أرها في المنامات، ولا أستطيع الكتابة عنها. قال وهو يصوب عينيه نحوي: سيكون لك ذلك إن صدّقت موتها.

نبهنا قائد الطائرة أنها ستهبط في مطار إسطنبول. عادت الفتاة إلى أدعيتها بعد أن شعرت بأن التوازن تبدل؛ فتملكها الخوف من جديد، حتى إنها أمسكت بيدي مستغيثة وأنا أقرأ. بقيتُ أتحدث إليها إلى أن ارتطمت عجلات الطائرة بأرض المدرج فصرخَت، ثم تنفستِ الصعداء. لولا ضبابية الألم، وقسوته، وغموض الموت، وافتقادنا للإجابات عن كثير من الأسئلة أمام كون ما يزال سريًا، ما كان الخوف. ولولا هذه الحالة لخسرنا صفاتنا. أين الإيمان من هذا الشعور؟ الموت تحول من (الفيزيقي) إلى (الميتافيزيقي) وهذا التحول إما أن يحدث بغتة كنصل يبتر خيطًا، أو تصاحبه العذابات. أتذكر الحلاج وقد رأى في إيمانه سعيًا أبديًا ليس بينه وبين الموت قربى: (أصلبوني سأموت شهيدًا وتعيشون مجاهدين). إذن نحن كائنات أمام فضاء من الأسئلة والأسرار، إما أن نسعى إلى حلها يرافقنا احتمال الجنون، أو نعيش كمن أمامه ورقة امتحان أسئلتها في غاية السهولة؛ فننجح.

في ممر يفضي إلى جهة الرحلات الدولية مشت الفتاة بقربي، تستجدي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شيئًا من ونس يقصي عنها شبح الغربة، والخوف من التجارب الجديدة. قالت إنها مسافرة للدراسة في بريطانيا، وهذه أول مرة تغادر فيها الأردن. أعفيتها من ارتباكها في مطار كبير كمطار إسطنبول، ودللتها على بوابة تفضي إلى طائرتها. دعتني إلى فنجان قهوة، وأمامنا خمس ساعات حتى يذهب كلٌ منا إلى وجهته. كنت سأعتذر لولا ملامحها الطفولية، واندفاعها للاحتماء بي. ربما رأتني على نحو عال من القوة حينما نجحت في انتشالها من الخوف، وهي لا تدري أني أخشى الموت بوعي من يقف على حافة الهاوية، حتى إني لا أحب التلفظ بهذه المفردة. لست قويًا، إلا في مداراة هشاشتي.

ترى ماذا لو لم أكن كاتبًا؟ سؤال خطر ببالي بعد أن سألتني الفتاة عن مهنتي. وهل أنا من قرر هذا السعي إلى صفحات أرسم فيها ملامح حياة لم تحدث بعد؟

كانت الفتاة من ذلك النوع الذي تنقصه الرغبة بالمجازفة. قالت إنها مسافرة لأجل الحصول على شهادة الدكتوراه في الاقتصاد. بقيت لربع ساعة تتحدث عن تخصص تدرسه، ولا تحبه. هكذا قالت قبل أن تصمت لدقائق وتروح عيناها إلى سيل المسافرين. قلت إني لا أحب الاقتصاد، أمقت الأرقام، تربكني، وتشوشني. لولا المعلم الدكتاتور لأحببت «الرياضيات». وكان يمكن أن أكره اللغة العربية لولا أن حدثنا أستاذها عما قرأه من كتب. للآن لا أحفظ جدول الضرب. ضربت بسببه كثيرًا، ولن أحفظه. وللآن أتذكر أول موضوع إنشاء امتدحني المعلم بسببه أمام أبي، ولن أنساه.

قالت وهي تمسح عن طرف فمها بقايا القهوة: ألهذا صرت كاتبًا؟

لم أختر أن أصبح كاتبًا، ثمة حادثة وقعت لي في صباي جعلتني أرى جيدًا، ومن يومها وأنا أحاول شرح ما رأيت. حدقَت بي بعينين متفحصتين، ثم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تساءلت بسذاجة جميلة: لماذا أحس بأنك حزين؟ أجبتها بأنني لست حزينًا. كنت سأقول لها إن ما ترينه محض خلل وراثي في روح الوجه، لأن أمي أصغت -وأنا ما أزال في عوالم الرحم-لعازف حزين، صعد قمة الجبل وقت الغروب، وبقي بآلته الموسيقية يحاول اصطياد عصافير المسرة. لكنه هبط خالي الوفاض، بينما الليل يسيل في الطرقات على مهل، وبخفة لص أسقى الكائنات ماء الكرى، يدثر الأشياء بردائه السرمدي؛ فنامت المدينة، ولم ينم العازف الذي يعكف على حلم بنهار جديد. إنه منذ ذلك اليوم يشيع موسيقاه في دواخلي.

عند العاشرة صباحًا أقلعت الطائرة. معظم الركاب جزائريون يتحدثون بلهجة تخالطها مفردات فرنسية. كنت أصخي السمع أحاول فهم ما يقال. ثمة أحاديث أفهم نصفها، وأخرى تبدو غامضة. أفكر باللغة، وكيف يمكن أن تولد منها لهجات عديدة. أفكر بإرهاصاتها الأولى على وجه هذه البسيطة؛ فأتذكر مُغتَقَدًا صينيًا يرى أن «الموسيقا ولدت قبل الإنسان». أغمض عيني وأتخيل الريح وهي تمر بين الأشجار، والحجارة، وعبر القصب، على ماء الأنهار، والبحار، مخلفة ألحانًا لا بد أن الإنسان حاكمها ببراعة المتلهف للحياة؛ فكان اللحن هو اللغة، وكان الناي أول آلة أفصح الآدميُ خلالها عما يجول في خاطره.

تأتي المضيفة وتقدم لي الطعام. ألتهمه بعجالة، وأتجاهل إلحاح الرغبة بالتدخين. أعود إلى صفحة توقفت عندها في رواية (الغريب).

لم يُبدِ (ميرسو) رغبة في رؤية أمه الممددة في تابوتها، بل أشعل سيجارة وهو يفكر كيف ستوارى الثرى في صبيحة ذلك اليوم. أتفكر بهذا السلوك العبثي، وأجده طافحًا بالحزن، لكنه صامت، لا يظهر منه إلا شكل خارجي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يوهم باللامبالاة. في هذا المشهد الروائي تتجلى عبثية (كامو)، وإيمانه باللاجدوى و(اللاأدرية). (كامو) الذي قدم نفسه عبر سلوكه، وكتاباته، ومواقفه إنسانًا حرًا، لذا فإن وقوفه بين منطقتي اليقين واللايقين شكل من أشكال الإيمان بما يرى؛ فهو يرفض اليقين بأي شيء، ويرفض تصنيفه بالوجودي. لم يكن لا ملحدًا، ولا مؤمنًا، لأن الوقوف برأيه بين هاتين القناعتين يقين. وهذا يقودني إلى موقفه حيال استعمار الجزائر، الذي يثير شكوكي في هذه الرواية، ويدفعني إلى التفكير بتناقض من الممكن أن يحمله أي إنسان، لكن المثقف الحقيقي يتغلب عليه بشدة. أتذكر ما قاله الصحفي الجزائري (أرزقي مترف) (مأساة كامو هي أنّه كان ينتمي إلى المستعمِرين الأصليين والمستعمَرين بالظروف الاجتماعيّة).

ترى ماذا لو لم يمت (كامو) مبكرًا هل كانت قناعاته ستتغير؟ وهل نحن أحرار بشكل مطلق أمام خياراتنا؟ وإلى أي مدى يمكن -لما ندعي أنه خيارنا الحر-أن يصيبنا بالأذى قبل أن يؤذي الآخرين؟

لو لم أكن كاتبًا لكنت مطمئنًا، أنفق أوقات حياتي مستمتعًا، حزينًا في أوقات تستوجب الحزن، وفرحًا في أوقات تستحق ذلك. لا نعرف في أي مراحلنا العمرية تقرر الحياة أن نصبح كائنات مطمئنة؛ لذا نحن في حالة ترقب دائم منذ الطفولة التي بعد تجاوز بواكيرها الهشة صار لي أن أرى أين أنا، وأين أقف معافى من خشية ورقة شجرة في الخريف أمام ريح تعدها بالعاصفة.

أي بقعة خدشت رئتيّ فيها أولى دفقات الهواء؟ إنها (حنينا) قرية تقف صورتها الأصلية أمام صورتها الحالية، وقد تحولت إلى كومة إسمنت شرقية ببيوتها العتيقة، وغربية فعلت الهندسة فعلها فأنجبت بيوتًا حديثة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حنينا التي أعرفها هي نسخة عام ١٩٧٧، وليست نسخة ٢٠٢٣؛ بيوت قليلة من الحجر والطين تتناثر كتآليل على ظاهر يد حنطية اللون. صباحها سماء يتصاعد فيها دخان الطوابين كمردة تبحث عن سر في طبقاتها العالية. روائحها: اختلاط الندى بالأشياء. القهوة وهي تُعَد للمواعيد المبكرة. خبز طازج تلقيه إلى صيجان، تعتمر رؤوس النار، أياد نساء سمراوات، ممشوقات القوام يقرفصن قرب النار كقفلة قصيدة تتبع مدارج اللهفة. أصواتها: صياح الديكة وهي تقف بنرجسيتها على الأقنان، والسلاسل الحجرية. تهليلات جدي وباقي الكهول وهم يفركون عيونهم بأول الشمس. صوت المهباش وهو يسخن حبات البن المحمصة، باب نهار جديد. أجراس الماعز والشياه وهي تيمم شطر المشارق حيث الاخضرار البكر.

رأيت جدي ذات مرة يحمل (دَلَّة) القهوة العربية من حضن كومة من جمر (الجفت)، نوى الزيتون، ويمشي مسرعًا نحو رجل بدا عليه الاستعجال، فلم يقبل الدعوة على الغداء. سكب له ثلاثة فناجين من القهوة شربها وغادر. قلت له يومها: لماذا أصررت على أن يشرب القهوة؟ أجابني وهو يدفع بعقاله إلى الوراء: لأنه ضيف. والضيف ضيف الله، فكيف لا أفعل ما رأيت. تساءلت من جديد: ولماذا القهوة تحديدًا؟ عدَّل من جلسته قرب (كانون) يتقد فيه الجفت ويمنح اللحظة دفئًا قبالة برد شتاء تلك السنة. مسح على رأسي بيده، ثم طوَّق كتفي بذراعه، وجذب جسدي الضئيل نحوه ثم راح يشرح لي. مرت سنين لم أنس ما قاله جدي عن الضيف، والقهوة لأنه قال ما يؤمن به. القهوة عند البدو تصريح مجازي يؤدي إلى الوئام، والنشوة، والكرامة. يحل الضيف؛ فيسقى ثلاثًا منها: الأولى للضيف؛ إذ إن له صدر مكان آمن لا لبس فيه. وله أعالي المحبة. وله ألا يسأل عن شيء إلا بعد ثلاثة أيام وثلث. والثانية للكيف؛ قفزًا عن التعب، وتجاوزًا لما يهدد المسرة، وذهابًا إلى اتزان النظر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والسمع والشم والذوق لتبتكر اللحظة. والثالثة للسيف؛ عهد بين الضيف والمضيف بأن يتعاونا على صد أي عدوان.

مكاننا الأول بصمة ترافقنا حتى في تنقلنا بين أمكنة أخرى لا تخصنا؛ له صور تطغى على صور أمكنة لاحقة تتلقفها الذاكرة بدهشة، مع ذلك هي لا تساوي ما تفعله بنا أشياؤنا، وأحداثنا الأولى. أمر يجيء من سر الحنين الذي مرة يثير فينا الرغبة بالبكاء، وأخرى يرشقنا بشكل طريف من الحب. أو ربما هي زاوية شعرية تُري كل إنسان ما في جهاته الأربع. أشيائي الأولى في حنينا، وباتت مع الأيام مثل الخيط الناظم بين كل ما عشت.

حدث ذات مرة أني رأيت كومة حطب تصعد الطريق نحو بيت جدي؛ فأصبت بالذعر. لم أكن أدري أن الشِّعر، هو أن ترى كومة حطب تمشي. ولم أكن أعي أن ما رأيته سيقودني إلى القصيدة في ليلة ماطرة لها الكثير من الوحشة، والقليل من الأمل. كانت أمي في تلك اللحظة الملتبسة تعلّق الملابس على حبل الغسيل حين أحتضنها صارخًا: انظري، إن الحطب يمشي. لم أدرِ أن زوجة جدي الثالثة (حميدة) ذات القامة القصيرة، تحمل حطبًا على رأسها قادمة من الوادي. للأشياء صورتان: واحدة نراها بعين الشعر، وأخرى بعين الرواية. حياتنا إذن قصيدة، وراوية، كلٌ منا يسعى إلى كتابتها ليستريح، لكنه لن ينال ذلك.

النساء في حنينا كنَّ يقفن بوجه الشقاء ببسالة غريبة، لا أدري هل يمكن لامرأة في هذا الزمن أن تفهمها. لازمني ذلك المشهد كوسواس قهري، ودفعني إلى أن أتتبع تفاصيل (حميدة) اليومية وهي تجمع الحطب، وتعجن روث الأبقار، لتصنع منه وقودًا للمدافئ، بعد أن توزعه على سلسلة حجرية تمتد أمام البيت ليجف؛ فيتخذ أشكالاً طالما رأيتها في الظلمة كائنات خرافية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحدق بي. كانت لها مهام كثيرة: تحلب الأغنام، والأبقار، وتطهو الطعام، ثم تجلس قرب (السعن)، قِربة من جلد الماعز، وتمضي ساعات تحركه أمامًا وإلى الوراء، تخض اللبن الرائب إلى أن تطفو الزبدة على وجهه. صورة فيها الكثير من زمن القرية البِكر، وفيها كثير من الشقاء، رحت أقارنها بصورة جدتي؛ امرأة غير مرفهة، لكنها تمارس دور الزوجة الأولى صاحبة السلطة المُطلقة. مقارنة جعلتني أنحاز إلى حميدة كما انحاز لها عمي عزيز. انحياز سيؤدي فيما بعد إلى وعي يعنى بالمهمشين، والفقراء، ومن تقف الشموس عمودية فوق رؤوسهم، وتسرق منهم ظل الحظ.

إنها سنواتي الأولى وقد ظهرت فيها انتماءاتي مدفوعة بإلحاح ما يجري في شراييني من دماء أسلافي، أصحاب البشرة الحنطية، نحيلي القامة، سريعي الخطوة، كثيري التلفت كوعل مهدد برصاصة في الجبين، قساة من جهة، ورقيقو القلوب من الجهة الأخرى. محاربون في النهار، وشعراء في الليل، تفتنهم رائحة الحب، وتهزمهم التفاتة امرأة. سنوات ذاكرتها مغلفة بهالة من الضباب. هكذا أراها الآن وأنا أتأملها؛ فأجد الملامح الخارجية للأشياء فقط، أشياء لها حركات شخصيات فيلم سينمائي عتيق يُعرض بوتيرة بطيئة، وأصوات خفيضة غير مفهومة.

من وراء ذلك الغلاف الضبابي أراني بكامل طفولتي وسذاجتي القروية يوم طلبت مني أمي وأنا في أواخر السادسة من عمري، أن أستعيد أطباقًا لنا من أحد البيوت التي جاء ساكنوها من خارج القرية. كان الباب مفتوحًا؛ فدفعته في تلك الظهيرة التموزية، ومشيت إلى الداخل؛ وإذا بي أمام امرأة عارية تمامًا، لها جسد مكتنز، أبيض، صاف، يخلو حتى من النمش. ينحدر شعرها الفاحم الناعم على كتفيها، وهي تفرج قدميها وتضع معجونًا -لم أكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدري أنه خليط الليمون بالسكر- تنظف جسدها. لم أفهم ما أرى، ولم أكن أدري ما العلاقة بين غناء يشوبه الدلع، وبين تأوهاتها المتوجعة وهي تشد المعجون حاملاً معه شَعرًا من منطقة جسدية أراها للمرة الأولى. في تلك اللحظات كنت مسلوبًا لسهو غريب، ويداي مسترسلتان على جانبي كأعمى يبصر للتو. أرى جسدًا بكامل عريِّه، وبمنتهى جماله، وأشم رائحة عرفت فيما بعد أنه نوع من أنواع البخور. انتبهت المرأة؛ فحدقت بي لبرهة، ثم نهضت بجسدها الوافر مصابة بالفزع، وثدياها يرتعشان كتدفق مقطوعة موسيقية مُفاجئة لعمري الصغير آنذاك. ارتعاشات عصية على فهم لذتها المباغتة. التقطت بعجالة وارتباك، ملاءة لفَّت جسدها بها، وأسرعت نحوي وعيناي ما تزالان مصوبتين عليها، وصفعتني على وجهي، ثم ارتدت إلى الوراء نادمة على ما فعلَت؛ فسقطت الملاءة، وأنا ما أزال أنظر إليها بسذاجة، وارتباك جديد يحل بي، ويصيبني بحمى الأسئلة. اتسعت عيناها الجميلتان في وجه علاه الاحمرار، بعد أن أطلقت فجأة صرخة مدوية تأمرني بالمغادرة، وهي تعيد الملاءة من جديد إلى جسد كان يستنكر المداراة.

في طريقي إلى البيت بكيت جراء الصفعة، وصدى الصرخة يلازم مسمعيّ، وفي الوقت نفسه ابتسمتُ لسبب خفي وغامض. بعد أيام أخبرت أقراني بما رأيت؛ فوجدتهم أكثر معرفة مني بشؤون النساء؛ قالوا لي ما جعلني أفهم ما فوجئت به؛ فاعتقدت أني عرفت الأنثى؛ معرفة خارج حدود الجسد. معرفة شعرية، ودرس ما قبل ابتدائي في عوالم حواء. من المؤكد أن تلك المرأة نسيت ما جرى، لكني ما نسيت؛ إذ بقيت تلك الحادثة تستعجل دولاب العمر إلى الأمام لأنمو بسرعة، ويكبر إحساسي لأعرف؛ فصارت رفيقة خيالات سن المراهقة، بل حتى تجاوزت تلك المرحلة المربكة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كلما صوبتُ القلم إلى رأس الصفحة لأكتب عن حواء؛ أجدها تجلس عند بادئة السطر، تبتسم كما لو أنها تعتذر عن يد صفعتني، وتسعى إلى تعويض افتراضي عما فعلته صورتها المعلقة في صدر جدار الذاكرة. وكلما سمعت أحدًا يتحدث عن المرأة الأولى في حياته؛ أجدها أمامي، وحولي، أحس بيديها تلامساني برفق، وأسمع صوتها تهمس لي بحميمية طريفة. كنت أراها تخرج من بيتها بمشية تشبه مشية عصفور على سلك كهرباء. ومع الأيام صارت خطواتها أكثر بطئًا، أكثر ثقلاً، تثير بي مشاعر أسى، وإحساسًا غريبًا لم أكن أدري ما هو. كبرتُ، وراحت تلك المرأة الجميلة تكبر في السن، إلى أن اختفت، وما عادت تغادر بيتها. كنت أتصيد أخبارها خفية، أخشى أن يفضحني لساني، ويبوح وجهي بما بي. وأخشى أن ينظر الناس إلى صندوقي السري فيعلموا الحقيقة.

أصيبت سيدة القرية بمرض عضال؛ ففكرت بأكثر من طريقة لأطمئن عليها، لكني لم أجد مدخلاً يبيح لي ذلك. كنت حزينًا إلى درجة لا يفهمها إلا من لا يقوى على إشهار سبب حزنه على مسمع الناس. ماتت في منتصف الستين من دولاب العمر، وأنا في الثلاثين. كان لموتها أثر تمزيق صورة لعزيز لا نسخة لها. يوم أن أهالوا التراب عليها فشلت في أن أداري بكاء أشبه ما يكون بفم نبع تسده صخرة تهشمت فجأة. بقيت الذاكرة وفية لتلك المرأة التي صار وجهها لازمة لكل النساء اللواتي عرفتهن فيما بعد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

عبر نافذة الطائرة وهي تتجه إلى الجزائر بدا لي الصباح طرياً، يتدفق للتو بوتيرة طائر جاء ببهجات غابت طويلاً. والأرض من بين الغيوم تلوح صافية، فيها أمارات أسف على ما حدث من مكائد، وخسارات فادحة. غيوم بيضاء تمتد مَدَّ الظن في البصر، كسهوب ثلجية في نهار مشمس، وجبال في صباح ربيعي رائق. امتداد جعلني أتخيلني أتجاوز نافذة الطائرة هاربًا، وأعدو على تلك السحب كما كانت تفعل بي تلك المنامات الطفولية. مشهد يبدو لي سينمائيًا، وفي الآن نفسه يبدو لي مقترحًا شعريًا للفرار من المكيدة نحو بهجات نحلم بها. أي (يوتوبيا) يحلم بها الآدمي، وأي لذة يحققها له الخروج من واقع منذ أن ولدنا ونحن نعيش الحروب معه ومن أجله؟

أطلب كوبًا من القهوة، وأعود بصفاء لا يحدث كثيرًا، إلى تحديقي بتلك المسافة المكدسة بالغيم. أفكر بالصحو، وبنقيضه، بالوعي وبما يقف ضده، وأتساءل والحيرة طائر يقف على رأس أنفي وينظر إلى العالم: أيهما الجناية، بما أننا في المحصلة جناة، وضحايا؟

أقرأ في (الغريب) وقد وجد (ميرسو) مشقة في النهوض، وقرر أن يذهب إلى السباحة، وهناك في الماء التقى بـ (ماري كاردونا) زميلته السابقة في العمل، أخبرها أن أمه ماتت يوم أمس. أبدت تعاطفًا سريعًا، ثم داعبها في البركة، وفي السينما، ومساء غرقا فيما تصنعه الرغبة. أستعيد ما قاله (كامو): (لم يكن في استطاعتي مطلقًا أن أندم على أي شيء، فقد كنت دائما مأخوذًا بما سوف يحدث، بما يمكن أن يقع اليوم أو غدًا). أتأمل عبثية (ميرسو)، وكيف بقيت بمنأى عن أن تجرده من حزنه الباطني على أمه. وكيف بدا ظاهريًا غير مكترث؛ بل جامدًا. لكن صرخة كبرى في دواخله تبدت عندما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

استفاق صباحًا ولم يجد (ماري)، وراح يشم رائحة الملح الذي خلّفه شعرها. لم يعبّر عما يحس به نحو موت أمه. لم يعبّر عن تساؤل (ماري) هل يحبها أم لا. قال: (كانت ترتدي إحدى مناماتي بعدما شمرت كميها. رغبت فيها مجددًا. وبعد برهة، سألتني هل أحبها). كان إحساسه في أوجه وهو يضاجعها- إحساس لا أرادي، حر، لا يخضع للخيارات. وما إن انتهت تلك اللحظة الأكثر تعقيدًا من بين الأحاسيس البشرية، حتى أجابها: (لا معنى لهذا الأمر. فاكتست هيئتها سيماء الحزن).

هناك فرق بين المرأة العربية في (الغريب) وبين المرأة الفرنسية. نرى العربية من وجهة نظر (كامو) كما لو أنها في زاوية معتمة، بينما الفرنسية في دائرة الضوء؛ فأشك بهذا السلوك السردي، سواء كان مقصودًا، أو من غير قصد! وأتساءل: إلى أي حد تتماهى شخصية المؤلف، بأبطال ما نكتب من روايات؟ وكيف حدث هذا مع (كامو) الذي ربما أنه سعى بخفية سردية لتهشيم الفكرة السحرية الروحانية عن عالم الشرق، مقابل مادية الغرب؟

قبل الكتابة اعتدت أن أنفق وقتًا في تقمص وعي بطل الرواية. وعند وصولي منطقة أدرك فيها أننا امتزجنا؛ أكتب بوعي سجين أودعَ غرفة موصدة أبوابها، وطُلب منه تسجيل اعترافاته بأي أسلوب يناسبه. هل الأمر متاح للروائي بهذا الشكل ليجتاز الحواجز نحو شخصياته؟ أم أننا نختار شخصيات تنطق بما لم نقله، وبما عجزت أيدينا، وملامحنا عن التعبير عن طبيعة صاخبة له ترقد وراء سكونه المخادع؟ يخيل لي أحيانًا أنني أكتب كمن يقذف وحشًا بحجارة من وراء كتف رجل لا يعرف قلبه الخوف. وحين تهدأ عاصفة الكتابة، وأقرأ ما كتبت، تعيد الحيرة إنتاج نفسها بشكل جديد؛ فلا أعثر على الإجابة. من هنا يخيل لي أيضًا أن تلك الحيرة هي الصوت الذي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يهمس لي بأن لا حلول سوى انتزاع الكلمات من مراقدها السرية، وزراعتها في أرض الورقة، لتصبح أشجارًا في حقول الآخرين.

عند الواحدة ظهرًا حلّقت الطائرة فوق الجزائر تتهيأ للهبوط، بلاد يتقاطع في مشهدها العلوي لون البحر، بلون اخضرار الأشجار، ولون التراب، والبنايات. دخولي الأول إلى أماكن جديدة يصيبني بارتباك عاطفي سرعان ما يتلاشى. حطت الطائرة في (مطار هواري بومدين). استقبلني رجل أربعيني، وأخذ جواز سفري وأعفاني من المرور بإجراءات السفر، وتبقى أن أستلم حقيبتي أمام فقداني التركيز لرؤيتها وهي تمر على الحزام الدائري المكتظ بالحقائب. كنت لحظتها أفتقد السيجارة، أشعر بالدُّوار في غيابها؛ فاستنجدت بشاب دلني على زاوية لذت بها، ورحت أدخن بعجالة إلى أن فقدت توازني، وكاد يغمى عليّ. جلست أرضًا، وضباب بصري يحجبني عن الأشياء، إلى أن استقر الحال بعد سيجارة أخرى. في انتظار الحقيبة كنت أتأمل بعض الوجوه، وجوه تميل إلى السمرة أكثر من اللون الحنطي، فيها صمت محايد لا تعرف هل يمكن أن يؤدي إلى ابتسامة أم لا. قيل لي قبل أن أسافر أن الجزائريين قساة الطبع، سريعو الانفعال. معلومة جديدة رحت أفتش عنها في قاموس وجوه ينتظر أصحابها حقائبهم بنزق. رأيت حقيبتي يدفعها الحزام الدَّوَّار؛ فرحت أحاول دفع عربة عن دربي إليها؛ صرخ بي رجل بلهجة لم أفهم منها شيئًا. حملت الحقيبة وتبعت السائق إلى خارج المطار.

الطريق إلى فندق (سانت جورج) لم تكن طويلة، لكنها مزدحمة، ينظر إليّ السائق عبرها بين الفينة والأخرى؛ إذ وجدني صامتًا أتأمل الشارع. أخبرته أنها زيارتي الأولى، وطلبت منه أن يسمعني أغنية جزائرية، فأطلق العنان لواحدة فهمت نصف كلماتها، وكامل شجنها. كان بإمكاني أن أكتفي بموسيقى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

داخلية ترافقني منذ ليلة الضجيج الجواني، لكننا بحاجة موسيقى تخص الأماكن التي نراها للمرة الأولى لتحمل الصورة بخفة إلى جدار الذاكرة.

لاح المتوسط من وراء الطريق سيدًا للزرقة العميقة، ساكنًا كمزارع أنفق وقتًا في نهار شاق، واستلقى يطرد التعب. هناك بيوت ذات طابع معماري عربي، وبنايات قديمة في تكوينها روح أوروبية، وأخرى بدت لي نشأت حديثًا. ثمة بيوت لها شرفات، وأخرى لا شرفات لها. الجزائر ليست مدينة طَبَقيّة؛ فعمرانها أفقي لا عامودي، والمسافات بين بيوتها تشي بأنها ما تزال تمسك بخيط روابطها الاجتماعية.

بعد المرور في طرق تصعد وتهبط توقفت السيارة أمام فندق سانت جورج الذي يقع في (المرادية) في أعالي العاصمة. فندق عتيق قيل لي إنه أنشئ عام ١٥١٤ كقصر (للداي)، وفي عام ١٩٤٢ وقت الاحتلال الفرنسي نزل فيه (آيزنهاور) قبل أن يصبح رئيسًا، وجرى فيه توقيع الهدنة بين الأميرال (فرانسوا دارلان)، والجنرال الأمريكي (مارك كلارك) بعد الإنزال في إفريقيا الشمالية بقيادة (آيزنهاور).

رغم تعب خلفته قلة النوم من عمان إلى (إسطنبول) ثم الجزائر إلا أنني وجدت بي شيئًا من الطاقة لأقف في شرفة غرفتي في الطابق الرابع. تحيط الفندق الرابض على مرتفع، أشجار النخيل، والزيتون، والياسمين. البنايات، والبيوت عتيقة لم تنحن أمام تقادم الزمن. بدت لي روحها تقاوم كل ما يحيل إلى الهزيمة.

رتبت ملابسي في الخزانة، وألقيت ببدني في حوض الاستحمام، لنصف ساعة أطرد تعبًا مبرحًا ألم بي. رفعت سماعة الهاتف وطلبت طعامًا. سمك التونا والبيض حاضران في الطبق الجزائري؛ إنها ثقافة المدن الساحلية.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكلت، ونمت بعد أن ضبطت المنبه على أن أصحو عند السابعة مساء، لكني استفقت عند العاشرة والنصف أشعر بتوازن غالبًا ما تحققه لي الكتابة وحدها. أعددت كوب قهوة، وحملت علبة سجائري، وجلست في الشرفة أنصت لموسيقى تأتي من ركن في بركة سباحة الفندق، وأتأمل المكان. توحي أضواء البيوت بالدفء، لكني في بلاد ليس من السهل فهمها منذ اليوم الأول، بلاد قدمت مليون ونصف المليون شهيد لتنال استقلالها، ومرت عليها عشر سنوات سوداء لم تنتهِ بسهولة.

ثمة حديقة أسفل الفندق تنتشر فيها طاولات يجلس إلى إحداها رجل وامرأة بدا لي الحب بينهما ثمرة ناضجة يأكلان منها بتلذذ. الحب كأشجار أصلها بذرة، منها ما يذوي سريعًا، ومنها ما يعمر رغم ما تقترفه يد الطبيعة. إنه هاوية لذيذة نسقط فيها رغمًا عنا؛ فيها ما يؤدي إلى سماء شاسعة تعديك فيها الطيور بشهوتها الأبدية للطيران. وفيها ما يقصيك في زاوية معتمة هي الوحيدة التي تمنحك خلوة لتتفقد كم شوكة حظي فيها جبين روحك جراء السعي إلى اللؤلؤة؛ فتعيش الوجع كما ينبغي، غير مكترث بالعيون المتلصصة. إن وقعنا في الحب؛ فإننا نسعى إلى لؤلؤة لها أن تدحر العتمة بجسارة كبيرة. وفي الكتابة أحلم بتجاوز الهوة، والمضي في طريقي نحو اللؤلؤة. كان مؤنس الرزاز يخشى من الحوادث المفاجئة على يده اليمنى. يساوره قلق على يد إن خسرها خسر الكتابة، ويسعى إلى نص إن كتبناه سنعلن اعتزالها. لأكثر من مرة فكرت في أن أقلع عن الكتابة، والقراءة، والتأمل، وأغرق في الطعام، وفي الجنس، وفي الشراب، والنوم. لكن تهاجمني كوابيس مرعبة، فيها هوة سوداء، يجيء منها صوت موحش، فأتراجع.

قرع باب غرفتي الزيواني، روائي من الصحراء الجزائرية. قرأت له

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(كاماراد) رواية جميلة فيها روح صحراوية نقية، لم تمسسها أيادي المدن الملوثة بالصخب. أعددت كوبي قهوة وأخذت أنصت له وهو يحدثني عن الصحراء، وعن عاداتهم، وعن الكتابة. روائي لا يحب المدينة، ولا يكرهها، لكنها لا تناسب روحًا أفهم أبعادها؛ إنها تعيش على نحو لا يمكن أن تفهمه المدن. تحدثنا لساعة ثم غادر لينام.

خرجت إلى الشرفة ترافقني (الغريب). الهواء ربيعي تخالطه نسمة باردة خفيفة الوقع على الجسد. ليس في السماء إلا عدد قليل من النجوم. أتأمل نجمة بعيدة معلقة في أقاصي الشرق. أتذكر ما رآه أفلاطون من أن لكل روح نجمة في السماء، تعود إلى صاحبها إن عاش حياة أخلاقية، وأتذكر ما قاله (ألبير كامو): (كل ما أعرفه عن الأخلاق، أدين به لكرة القدم). هل الأخلاق هي ما يمليه علينا الآخرون؟ أم أنها كما يرى أفلاطون: قمع ما يشتهيه الإنسان، وتوجيه النفس إلى الخير والمعرفة وقوفًا بوجه الجهل؟

أشعلت مصباح الشرفة لأقرأ في (الغريب). قبالتي مصابيح البيوت الجزائرية تؤنس حيوات لابد أن لها إيقاعًا خاصًا لا أعرف شيئًا عنه، إلا ما قرأته في روايات الطاهر وطار، وأنور بن مالك، ومالك حداد. لكل بلاد طريقة تميزها في التفاهم مع الحياة. لكل مدينة أدواتها في حياكة ثوب النهار. ولكل بيت رؤيته في نفي الحزن، وتوفير مقعد في صدر البيت للبهجة.

يقع الفندق في (المرادية). ألجأ لغوغل فيخبرني أنها «بلدية من بلديات ولاية الجزائر، تابعة لدائرية (سيدي محمد) فيها مقرات حكومية عدة، منها قصر الرئاسة الجزائري المعروف باسم (قصر المرادية) والذي يسمى أيضا مصنع الحرية. الحرية هذا المطلب الإنساني الذي فعل الجزائريون من أجل نيله الكثير. كانت البطولات في أوجها، والمعاناة في أعلى درجاتها، فانتصروا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يحكي (ميرسو) عن جاره (سالامانو) وهو يلتقيه على السلم ذاهبًا إلى غرفته برفقة كلب يعيش معه وحيدًا. ويرى (كامو) على لسان (ميرسو) أنه صار يشبه كلبه حتى في المرض الجلدي الذي أصابه، وأن الكلب اتخذ بعض صفاته مثل المشية المقوسة، والغضب. لا نعرف عن (سلامانو) إلا اسمه. بخلاف الشخصيات الفرنسية، والأماكن التي تحمل أسماء فرنسية، يأتي المكان الجزائري في هذا الرواية ضبابيًا، وتظهر الشخصيات العربية مبتورة، لا ملامح لها، ولا أسماء. وإن ظهرت فإن (كامو) يبنيها على نحو منفّر، ليس لها على الإطلاق. فقد ظهر (سلامانو) شبيهًا بالكلب ومصابًا مثله بمرض جلدي. مثلما رأينا الممرضة العربية في دار العجزة مصابة بمرض جلدي في وجهها. يبدو لي أنها إشارات من أعماق الكاتب تدل على موقف، ربما هو نابع من اضطراب في الانتماء لفرنسي ولد في الجزائر.

أفكر بدوافع الكتابة عند (كامو)، وبدوافعي نحوها؛ فنحن حينما نقرأ نجبر على تأمل ذواتنا. الكتابة فرار من وحش لا تتعب قدماه. تمارين موجعة على التخفي رغم إيماننا بالحرية. صرخة لئلا يقع غيرنا في الهاوية. والقراءة سعي إلى عوالم جديدة تثير في أجنحتنا شهوة التحليق، والاحتماء بالخيال، وإرخاء الرأس على كتف مواسٍ، والنظر في مرايا تطلعنا على ما وراء وجوهنا، وعلى حقيقة ما نحن عليه.

بقيت أقرأ متتبعًا خطى (الغريب) حتى الواحدة ليلاً، إلى أن شعرت برغبة بالنوم يستدعيني إلى بحره السكوني الآمن. قال لي الطبيب في آخر زيارة له أشكو وخزات، وارتعاشات مفاجئة في جهة القلب إن قلبي سليم، وإن ما أحس مجرد أعراض للقولون العصبي، لكنه نصحني بالابتعاد عن السهر. قلت له: تقصد مجاراة الليل في تمدده الزمني المغري. ضحك يومها: (أعرف أن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الكتابة لا تكون كما تريدها إلا بعد منتصف الليل). بعد انتصاف الليل تحدث لي أشياء كثيرة كما أريد. أشياء لا يوفرها النهار: الكتابة، الوجه الهادئ للحزن، الحب كمرادف لحالة لا نفهم عمقها غالبًا في مجاورة الشجرة للنهر، العلاقة الصافية مع الله، الوجه الخفي من الموسيقى. فكيف أفرّط بذلك. لكني رحت أمسك العصا منتصفها كما اقترح الطبيب. أسهر حتى الواحدة وأنام.

جلست إلى الطاولة، أمامي دفتر يومياتي، أدون فيه تفاصيل نهاري بجرأةِ من يزيل رصاصة من جسده في عراء جهاتُه غامضة. لا أدري، هل أتت كتابة يومياتي مصادفة؟ أم أنها عادة ولدت إثر احتمال كبير بأن ينفجر واحد مثلي، ويتفصد من ذاته جراء عجزه عن الكلام؟ حدث في أواسط سنين المدرسة أن سمعت صوت أبي غاضبًا بوجه أمي، ثم رأيته يمشي نحوها متوترًا يود ضربها، وهي تبتعد إلى الوراء ملتصقة بالجدار، يعلو وجهها الخوف، ويتخلل صوتها ارتعاش لا يعرفه إلا من جرب العراء في ليالي كانون الباردة. قفزتُ بعجالة، ووقفت بينهما كقط بين ذئب وغزالة، دونما قدرة لي على الكلام. بقيت يد أبي معلقة في الهواء وهو ينظر في وجهي المتيبس تارة، وأخرى في وجه أمي إلى أن تراجع. يومها خرجت من البيت، دونما جهة أقصدها، أمشي متجاوزًا القرية نحو مادبا، وسياراتها، وأناسها، وكل ما يؤثث تكوينها يصير مشاهد هلامية يتداخل بعضها ببعض. كنت كمن ابتلع طعامًا فاسدًا وشعر ببطنه على وشك الانفجار، يصيبني عجز عن نطق ولو كلمة واحدة. وقفت بباب متجر يبيع دفاتر وأقلامًا، وحاجيات أخرى مشابهة. أنظر إلى وجهي وهو يسيل على الزجاج العريض للمتجر، وفي الوقت ذاته أنظر إلى رزمة من الدفاتر.

لا أدري لحظتها ما الذي دفعني إلى الداخل واشتريت دفترًا وقلمًا، ومشيت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى أطراف القرية، وجلست أسفل شجرة، أكتب ما لم أقله لأبي. كنت أكتب من دون أن أنتبه إلى همهمات تخرج من فمي حارة، ثم صرت أتحدث إلى الدفتر بصوت مسموع، ويدي تمسك بالقلم مرتعشة، تنقل على الصفحات ما لم أقله من قبل. في ذلك اليوم شعرت بحجر يزال عن صدري، وصار نومي مرهونًا بذلك الطقس الاعترافي لدفتري، أقول له بجرأة غير معهودة كل ما حدث لي، وأقول حتى ما أراه في مناماتي.

منذ عام ١٩٨٣ والدفاتر تتكدس في مخبأ سري، لا أدري، هل سأفسح المجال لأحد أن يرى ما فيها يومًا ما؟ أم أنني سألقي إليها عود ثقاب، وأجلس أمامها أراقب كيف تأكل النار سنين كنت أهوّن فيها على الذاكرة؛ مُكوِّن غريب لا ندري كيف تتدبر شؤونها؛ فكلما تأملت حاسوبي الشخصي وتفكرت بكيفية عمل ذاكرته التي تديرها شحنات كهربائية يرمز لها بـ(١-٠) يأخذني فضول معرفي نحو الذاكرة الآدمية، سر لم يحقق العلم للآن تصورًا نهائيًا حول طبيعة احتفاظها بذكريات تبعث فينا وهجًا سارًا، وأخرى تثير فينا عاصفة من الأسى. شحنات لا ندري كيف تشج غلافها وتقرفص أمامنا، تأخذنا تمامًا كروائي متمكن من أدواته إلى عمق المشهد كأنه حدث للتو.

طالما أتعبني التركيز في محاولات لا أدري هل هي فاشلة أم لا في أن أستعيد ملامح من سنين تمتد بين السنة الأولى والخامسة. قبل مدة قلت لأبي إني أتذكر يوم زواج أحد أعمامي؛ فضحك: كيف لك أن تتذكر ذلك وعمرك آنذاك ثلاث سنوات؟ ما أتذكره أني كنت أراقب بالونًا أحمر استخدم للزينة أفلت من يد أحدهم، وظل يرتقي إلى نقطة بعيدة في السماء، وأنا مندهش بعلوّه، وجرأته في الطيران. هل هي المخيلة؟ هل حقًا أفرجت الذاكرة عن مشهد مثل هذا؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سألت طبيبًا: في أي المراحل العمرية يمكن للذاكرة أن تحتفظ بما مررنا به؟ قال متكئًا على رأي علمي: بعد السنة الرابعة. إذن عمر ذاكرتي الواضح ابتدأ في سن الخامسة، وأصبح أكثر وضوحًا في مبتدأ المدرسة. أما ما قبل ذلك فهو إما من متعلقات المخيلة، أو مما قيل لي. قيل لي إني ولدت الساعة الثالثة عصرًا من الثالث من حزيران ١٩٧٠. جدي يتلثم بكوفيته، يعقد يديه وراء ظهره يمشي قبالة البيت، قلقًا، يتلبسه شكل جديد من أشكال الانتظار. الأعمام في الحقل يحصدون العدس، ويترقبون أحدًا يجيء لهم بخبر ولادة الابن الأول للعائلة. وأبي جندي يغيب في الصحراء الأردنية الجنوبية كثيرًا. وعمي عزيز يفكر بالسفر. بعد مرور كل تلك السنوات أتأمل تلك اللحظة، أو أحاول تقمصها، وأتساءل عما خطر ببال عمي عزيز، حتى مد يده إلى الشجرة، وقطف الاسم، وألقاه علي، وأرخى قدميه لفم المسافة، وغادر.

بعد السنة الأولى من المدرسة صارت ذاكرتي وفية لاكتمال المَشاهد، ما قبلها ضبابيّ، وما بعدها واضح تمامًا كصورة مغطاة بزجاج رقيق لا غبار عليه. زمن المدرسة حدث استثنائي بدأ في عام ١٩٧٦. كانت (حنينا) للتو تصبح ملاذًا لجدّي من شقاء زمن الحل والترحال وراء العشب والماء، فبنى أول بيت فيها من الطين والحجر. بيت عبارة عن غرفة طولها ثمانية أمتار وعرضها أربعة. بنيت عام ١٩٥٦على مرتفع يطل من الجنوب على (مادبا) ومن الشمال على عمان، ومن الشرق على سهوب واسعة، ومن الغرب على سلسلة من تلال وجبال تنتهي في الغور، وتبدأ تلال وجبال فلسطين.

قالت لي أمي إنهم وهم يحفرون بحثًا عن التراب الطري ليعجنوه بالماء والتبن عثروا على جرة فخارية وجدوا فيها ترابًا ناعمًا؛ فسكبوه على كومة الطين. في المساء توسط القمر السماء؛ أخذ الجدار الشرقي للبيت يلتهب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لمعانًا من دون أن يعرفوا أن ما في الجرة تبر وليس ترابًا. ولما اكتمل بناء تلك الغرفة؛ أطلقوا عليها اسم (الدار الكبيرة)، دار بنيت إثر الاستقرار بعد زمن من مطاردة العشب والماء، ومقارعة أعمدة الغبار، وقسوة شمس آب وهي تحرن في منتصف السماء وتحوّل كل شيء إلى كيانات مستسلمة، مهزومة أمام زعيق الحرارة. كان جدي يعرف أن القرارات المصيرية لا تأتي إلا بتضحيات جسام. ويعرف أنه سيفتقد عالمًا حرّاً في ليلِه فرصة لتأمل لا نهائي يزيل عن كاهل قلبه غبار التعب. وفي صباحاته صفاء لا توفره قرى أدرك أنها لا بد يومًا أن تكبر مثلها مثل سائر الأشياء، وتفقد نسختها الأصلية. يعرف أنه سيصير مثل شجرة لن تبرح ترابها. لكن بعض التضحيات يمكن أن تنحاز إلى المناطق الوسطى في الخيارات؛ فخطوته تلك لم تقص بيت الشَّعر، وبيت الشَّعر، والربابة. نُصب بيت الشَّعر بجوار الدار الكبيرة، وفي عموده الأوسط علق الربابة. صار بدوياً ريفياً. مزيج عجيب رأيت فيه حقول القمح، والشعير، والحمص، والكرسنة؛ فعشت طقوس الحصاد، والبيادر، وسمعت أغنيات تطفح باللوعة والحنين. رأيت الأغنام والأبقار تغادر الحظائر صباحًا وأجراسُها موسيقى لأول الصباح، ولرقدة الشمس وراء الجبال عند الغروب. وأنصتُ ملياً إلى حداء، وقصائد تشرع باب المخيلة بسهولة لذيذة على عوالم مربكة. هل هي عوالم مفتقدة؟ أم أنها لم تأت بعد؟

لقريتي صورتان: واحدة لعالم البدو الذي يثق أبناؤه بالنجوم دليلاً إلى الجهات، وأخرى لعالم الريف الواثقين بالشجرة المتشبثة بالأرض. صورتان معلقتان على جدار مخيلتي جنبًا إلى جنب، صارتا كيانًا واحدًا، يريني جَدّي وهو يمتطى صهوة فرسه، يضع كفه أعلى حاجبيه ويحدق بالبعيد. جدتي بعينيها العسليتين وهما تتخذان شكل حبتي لوز، تحرّك بعصا طويلة إناء يرقد على ثلاث أثافٍ تشتعل بينها النار، يغلي فيه معقود العنب. أمي وهي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقرفص قرب صاج تتلوى تحته ألسنة النار، وما إن تلقي عليه العجين بعد أن تلَوّحه بين يديها فيرقُّ حتى تفوح رائحة الخبز. رائحة مفتقدة لها علاقة بالحنين إلى الماضي الموصوف بالنقاء.

أبي، جندي يغيب لأكثر من أسبوعين ويعود في إجازة قصيرة. كان مدى القرية أكثر اتساعًا؛ نراه عن بعد نصف كيلومتر يهبط من الحافلة على طرف شارع يربط مادبا بعَمان، يحمل بيديه أكياسًا. كنا نعرفه من لون بزته العسكرية، وبريق الشعار على قبعته؛ فنهرع إليه مدفوعين بهجة استثنائية. له رائحة لم تخسرها الذاكرة للآن، رائحة أبوّة لم تلتهمها الصحاري والمسافات البعيدة. نحمل عنه ما بيديه، ونسرع الخطى أمامه، نركض بالبشارة لأمي؛ فما إن تراه حتى يتورد خداها، ويميل صوتها إلى رتم لا يظهر إلا في أوقات مثل تلك.

كان يعود في بعض المرات ليلاً ونحن نيام، لكن رائحته، رائحة الأبوّة، Telegram:@mbooks90
ورائحة ما جاء لنا به من حلوى وفاكهة تنبهنا إلى أجمل ما يمكن أن نحظى به من مفاجآت. استفقت ذات صباح وإذا به جالس بمعية أمي يشربون الشاي، هرعت إليه وارتميت في حضنه؛ فاستفاق إخوتي وأخواتي وراحوا يتشبثون بكتفيه، ويداه تلتفان على أجسادنا. إن مشى نتبعه كخراف آمنة، وإن جلس نجلس بقربه كقطط تسعى إلى السكينة. على مائدة الغداء كان يقدد اللحم ويطعمنا بيده، وكلما شارف أحد منا على الشبع يطلب منه أن يتريث. لكن غياباته الطويلة تركت في دواخلي مساحة فارغة جعلتني أنحاز إلى جدي وجدتي، وأمضي نهاراتي في بيتهم. كان جدي كثير التفكير بعمي عزيز الذي غادر البلاد إلى (رومانيا) بعد عام من ولادتي. غاب لعامين أملى جدي خلالهما كثيرًا من الرسائل على من يكتبونها؛ نصفها قصائد ووصايا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تحثه على أن يبقى رجلاً لا تهزمه وحوش الغربة. عاد في عام ١٩٧٣. بالطبع لن تسعفني ذاكرتي في أن أستعيد تفاصيل يوم عودته تلك. قال لي أبي إن جدي في تلك السنة جاء بأول تلفاز إلى القرية، وأول (لوكس) مصباح أشد إنارة من الفانوس. كان الرجال يستلقون على بطونهم يحاولون استيعاب تلك الصور التي تضج من شاشة لصندوق رأوه عجيبًا. لقد كانت الصدمة التكنولوجية الأكثر قوة آنذاك، والتي بسببها كانت جدتي تغطي وجهها خجلاً من الرجال الذين رأتهم يدخلون بيتها عبر شاشة التلفاز.

في الرابع من مارس عام ١٩٧٧ خيم الحزن على العائلة؛ إذ سمعوا خبرًا يروي تفاصيل زلزال وقع في (رومانيا) أسفر عن وفاة ١٥٧٠ شخصًا. أرسل جدي برقية إلى عمي عزيز، ولم يتلق جوابًا، وأتبعوها برسالة لم يستقبلوا إثرها أية كلمة تزيل قلقًا وحزنًا كثيرين أعاقا العائلة حتى عن النوم. كان الهاتف الأقرب آنذاك يقع في محطة وقود على أطراف القرية، أجروا اتصالاً عبره لأكثر من مرة، لكن لا مجيب؛ فقد تعطلت شبكة الاتصالات في (رومانيا). كنت في ذلك العمر أرى جدّي في كامل حزنه، ينتظر أي خبر يطمئنه على عمي عزيز. قلق انسحب على معظم سكان القرية. ثمة مشهدان يتداخلان الآن بعضهما ببعض: الأول أراني فيه أجلس في ظل البيت، أحاول أن أصنع من أسلاك معدنية فرسًا على غرار فرس جدي التي كان يمتطيها بتمهل الفرسان الذاهبين في نزهة إلى الجبال، بعد أن يكافئها بقطعة حلوى، ويهبط من القرية يقصد مادبا، لأبقى أراقبه بلهفة إلى أن يتوارى في الأفق. والمشهد الثاني أراه فيه عائدًا من مادبا يصعد المنحدر مشيًا وهو يكابد الوعورة. أهبط نحوه مسرعًا كحجر تدحرج فجأة. أخبره بصوت زاعق أن عمي عزيز عاد من (رومانيا). يسرع من خطاه. يجري. أجري خلفه. يصعد الدرج، ويفتش غرف البيت. وقبل أن يصل الغرفة الأخيرة؛ يصرخ بي بصوت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تعلوه اللهفة: أين هو؟ تحسم جدتي الأمر قائلة: (اسم الله عليك. عزيز لم يعد). ينظر إليّ غاضبًا. يمشي نحوي. يصفعني. ينظر إلى الأفق، ثم إليّ، ويجهش بالبكاء.

لا أدري لماذا في ذلك العمر ارتكبت خطيئة بحق رجل يتلبس قلبه الخوف على ابنه؟ هل فعلت ذلك مدفوعًا بحزني الطفولي على رجل لم أره إلا في الصور؟ أم أنه تعاطف أخذني إلى اختلاق قصة وهمية، ربما تعتمدها الحقيقة؟ لا أعتقد أنها كانت كذبة مفرغة من مضامينها، أو قصة عابرة؛ إنها مجابهة الواقع بالخيال. وهذا ما صار يحدث لي حين كتبت الرواية؛ إذ كنت مثل جندي يوهم أعداءه بأنه يحمل بندقية وهو يتقدم نحوهم. عندما أتأمل ما فعلته بجدي في تلك السنة أبرىء نفسي من خطيئتها في الكذب، وأعترف بسطوة المخيلة التي أخذتني إلى عالم الكتابة الروائية.

بعد ما يزيد على شهر من القلق عادت الاتصالات في (رومانيا)، وجاء صوت عمي عزيز يخبرهم بأنه على قيد الحياة. أتذكر في ذلك النهار أن جدي نحر عددًا من الماعز؛ فاجتمع أهل القرية على العشاء.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

نمت لساعات قليلة، وصحوت عند الرابعة والنصف من فجر الجزائر. أشرع جفنيّ على جهة الصحو الكسول. في الفراش دفء احتكاك القماش بالجسد. أتنفس بهدوء من فاجأت عينيه بحيرة ساكنة، تشرق من وراء ذقنها شمس ربيعية. لا حراك معتاد. يدي لا تهش طيور الكسل. أنصت كما تنصت امرأة مكلومة إلى جريان الماء في الوادي. لا أتمطى، لا أتثاءب، ولا أفعل شيئًا غير أن عينيّ تحدقان بنقطة ثابتة في السقف، ومن خارج غرفتي في فندق (سانت جورج)، يتناهى لمسمعي صوت عصافير الدوري، يتقاطع به صوت قادم من ذاكرتي لبائع جوال يأتي إلى حيث أقطن، ينادي على معطر للأرضيات، وملمع للزجاج. عيناي مصوبتان على تلك النقطة في السقف، وثمة شيء في تكويني ينتظر أن ينادي البائع الجوال على ملمّع لزجاج القلب ليتضح نيسان. ثمة غبش عليه أن يزال. هكذا فكرت وأنا أنهض وأجلس بطرف السرير، أحدق بمنبّه لم يصرخ عند رأسي. مشيت متكاسلاً، ورشقت وجهي بحفنة من الماء. تأملت شفرة الحلاقة، وفرشاة الأسنان والمشط، ثم مشيت بتكاسل إلى طاولة عليها إبريق مربوط بالكهرباء، وبعض علب السكر والقهوة والشاي. أعددت كوب قهوة. وحملته إلى الشرفة، ومن هاتفي الجوال تتبعني فيروز: (بعدك على بالي يا قمر الحلوين، يا زهرة تشرين يا ذهبي الغالي، بعدك على بالي).

أدخن وأنصت لزقزقة عصافير وصياح ديكة لم أعرف من أين أتت في مدينة مثل هذه؛ صياح أمسك بي ودفعني بخفة إلى زمن القرية يوم كان كل شيء طازجًا لا تطاله يد الكدر. علمتني حنينا أن الديك عرّاب الوقت الذي لا يخطئ بمواعيده أبدًا. نرجسي يقفز إلى رأس القن برشاقة لا يتقنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غيره، صائحًا، إما بعد نيله نصيبه من رعشة الجسد القصوى، أو تحذيرًا من خطر يداهم حظيرته، أو إعلانًا لبزوغ الشمس وتراجع الظلمة. كلما راقت أبي فعلةٌ لأحدنا ردد بحزم متفاخر: (ديك). وحين يطرب لفعلة فيها كثير من الجسارة يصف أحدنا بالذئب. عَدَت ذات مرة كلابٌ على صغار شياهنا؛ فقفزت شقيقتي وأنقذتها بسرعة خاطفة. ابتسم أبي، وربت على كتفها مردّدًا: (نشمية، نشمية). لكنه لم يمتدحها بما في الذئاب من جسارة، أو في الديكة من رشاقة في الحركة، وحرارة معنوية في دمائها. يومها أعلنت احتجاجي على ذلك الشكل من التمييز؛ فهمس بأذني ونحن نمشي بين الأغنام وهي تقبل على العشب الغض في مشارق مادبا: الذئاب والديكة ذكور، فكيف نمتدح الأنثى بصفاتها؟ لم يقنعني أبي بما قال، رغم أني ما زلت أحب الديكة، والذئاب، وأمتدح الجسارة.

لم تبزغ الشمس بعد، والجزائر تتهيأ لفجرها. في السفر أستفيق باكرًا، بلا غمامة رمادية تحول بيني وبين الأشياء. قيل إن ذلك يحدث لأننا لا نأخذ حصتنا من الأوكسجين ليلاً. ربما. لكن الكتابة، والماء حرّاس أمام يد قاسية كلما كبرتُ أشعر بها تكبر. تفقدت خانة رسائل (فيس بوك) في هاتفي. عدد من الأصدقاء، والقراء يرحبون بي وينتظرون لقائي في معرض الكتاب. سعداء أني أزور وطنهم. الجزائريون وطنيون بالفطرة، يحبون بلادهم باستثنائية فريدة. أمر لم يصنعه التاريخ فقط، بل صنعه إصرارهم العنيد على مستقبل يريدونه بكل قوة.

هبطت إلى مطعم الفندق باكرًا لأتناول إفطاري، فإن لم أفعل ستصحو أعراض القولون العصبي من رقدتها الجبرية، وتعبث بمزاجي القابل للتبدل بسرعة؛ فتقف الغمامة بيني وبين تفاصيل نهاري. لم أجد في المطعم إلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(الزيواني) يشرب القهوة. انضممت إلى طاولته وفي يدي طبق فيه قليل من البيض، والجبن، وشيء من الخضار. قيل لي إنهم في الجزائر يسمون الغداء إفطارًا، معلومة كادت تصيبني بارتباك بيولوجي في المواعيد. وفي الصباح لا يتناولون ما اعتدنا على أكله في الشرق، يكتفون بالقهوة وقليل من (الكوروسان). تجولت في الفندق؛ فرأيت صورًا لعدد من مشاهير الأدب، والفن، والسياسة. بت ليلتي في بهو تاريخي كبير. أسندت ظهري إلى الجدار أراقب الصور (إديث بياف، ونستون تشرشل، سيمون ديبوفوار، وآخرون).

بدت حديقة الفندق أجمل وأنا أتجول فيها. ليس دائمًا يمكنك رؤية الأشياء بشكل أوضح من علو. وإن حدث هذا فنحن لا نرى إلا القشرة، أو ربما ظاهر الأشياء، أو وجه الحكاية، أو باب المكان. كان بيني وبين موعدي مع سيارة ستقلني إلى الصالون الدولي للكتاب ساعة. طلبت فنجان شاي وجلست أحاول أن أطيل بعمر ذلك الصفاء الصباحي. أستعيد ما قالته صديقة لي عن نظرية الجذب؛ فأخذت أبتكر زاوية إيجابية أنظر منها إلى يومي، أو بالأحرى أمارس نوعًا من التحايل على عقلي الذي يقال إنه يصدق أي هاجس ننفق وقتًا في تأمله. جربت هذه الطريقة لأكثر من مرة لأتخلص من مطارق الكآبة.

انضم إلى طاولتي عدد من الكتاب الجزائريين في وقت كنت أحاول فيه استدراج بهجات الأمكنة الجديدة إلى حيزٍ داخلي غالبًا ما ترشح جرُته أوجاعًا مباغتة. اختار الحديث وجهته كما يحدث أحيانًا نحو حروب الوسط الثقافي وصراعاته. منذ زمن اخترت عزلتي لأحافظ على الخط الأول في الطريق إليّ عبر كتابة مدفوعة بلهفة في الخلاص. منطقة غالبًا ما تدفعني إلى الانسحاب من أي صخب، وإلى أن أدير ظهري إلى أي صراع يحدث، حتى لو كنت الخاسر في محصلة التجاهل. أمر ليس له علاقة بالقوة أو الضعف،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إنما بالخشية على سلامة مزاجي. لست ممن يخوضون حروبًا في ميدان الثقافة، ولا أفتعلها، لأني لا أريد من الكتابة إلا أن أكون كما حلمت قبل أن تلامس رئتي أول دفقة هواء عند لحظة الولادة. حلمت بعالم يلعب فيه الصقر مع الحمامة، وحلمت بأن ترشد الذئاب أرنبًا ضل الطريق. وما عزلتي إلا خروج على الصخب. الصخب حولنا، والأسباب تكمن فيمن حولنا، وتكمن في عدم جرأتنا على الخروج على الجذور، أمر ربما يعده البعض عقوقًا قوميًا على صعيد العائلة، والوطن والثقافة، لكن ملامسة جذور أخرى ومحاولة عيشها بشكل مؤقت خطوة ليست فقط تذهب نحو سلامتنا النفسية، بل أيضًا نحو سلامة الكتابة. هذا يعني أن تسلم الكتابة من أية محددات، وألا تقع في اجترار اللون؛ لون البيت، لون الوجوه، لون الملابس، لون الموسيقى، لون الحياة. من هنا أؤمن بالقراءة، والكتابة، والسفر، والماء.

انطلقت الحافلة نحو الصالون الدولي للكتاب. أرى الجزائر بمزاج آخر، تطالعني وجوه نزقة قيل لي إنها تخبئ وراءها طيبة وعفوية كبيرة. تمضي السيارات إلى وجهاتها بسرعة، مثلها مثل حافلتنا؛ فأرى الأشياء تعدو إلى الوراء. لم أمتلك سيارة إلا في سن الأربعين، وقبل ذلك الحدث الاستثنائي كنت دومًا أفضل الجلوس في أي مقعد يجاور نافذة أي حافلة أو سيارة أكون فيها. لا أدري هل هو شغف غريزي بالتأمل، أم شرود بجهة غامضة؟ أم أن الأمر مرتبط بما كنت أرى؟ عبر النافذة، وكل تلك المشاهد اليومية وهي تتداخل، ويلفها شيء من الضباب، أرى وجه امرأة يبتسم لي، وجه بدت لي مهمته الحنين، والدفء، والحب كما لم يعرفه أحد. فيه ملامح الحبيبة، والأم، والأخت، والصديقة. وكلما عرفت امرأة وقلت في سري هذه هي؛ أكتشف أن الوجه ما يزال يرافق دروبي، ويطلع لي في منامات ما إن تنتهي، حتى ألوي عنق النوم لعلها تعود بكل ذلك الوضوح العاطفي.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اليوم الأول في الجزائر كان حرًا، خصصتُ معظمه للتجوال بين الكتب وهي على رفوف المعرض ساهمة بالمارة. أمشي بينها كمن يمشي بين قبور بدد شيء خفي فيها إحساس الخوف من الموت؛ فأشاعت بدلاً منه شعورًا دافئًا من السكينة. تثير بي رائحة الكتب زوبعة أصوات (سوربالة)، أرى دفّاتها تُشرع على مصراعيها، وتتصاعد منها الكلمات كطيور حبيسة أطلق سراحها. زوبعة تصيبني بدوار لذيذ تارة، وأخرى بدوار له وتيرة رمادية. أعزو ذلك إلى الشعر، وأتلفت حولي؛ فأجد أن الحياة محض قصيدة هاربة من مخيلة شاعر يحلم بهواء يحمله نحو خفة متناهية، لكنه فوجئ بفجيعة الجاذبية. أعزو ذلك إلى حزني العتيق، وإلى احتمائي بالقراءة. منذ أول كتاب قرأته والهرب لم ينقطع. لم تتعب قدما روحي. لم تضق رئتاها. لم تغفل العينان عن بقعة في البعيد تقف فيها امرأة تشرع ذراعيها وتعدني بالسكينة.

أتأمل القراء وهم يتجولون بين دور النشر. أقتني بعضًا مما كتبه الجزائريون. لا يمكن أن تحتفظ بصورة لأمكنة زرتها وأنت لم تقرأ ما كتبه أبناؤها. سترى الناس، والأشياء من زاوية غير متوقعة. ستحس بما لم تحس به وأنت تمشي في الشارع أملاً بفهم ما يحدث قبالتك. يشرع المكان ذراعيه لأبنائه، يعطيهم درسًا في هضم ولائم القسوة، ودروسًا في الحب، هذا الذي يجعلنا نخرج من هاويات سقطنا فيها، أملاً بشجرة ما تزال تحمل ثمارًا لم تنتزعها الريح.

كان القراء في ممرات المعرض، يستوقفونني لالتقاط صورة، أو حديث سريع؛ أمر أثار بي إحساسين، واحدًا مبهجًا يصنعه قربهم الطارد للكدر، والثاني مربك ومشوب بالخوف من أن ذلك سيصيبني بالغرور، ويقف عائقًا أمام قدرتي على العودة إلى منطقة الكتابة الأولى، بدايتي، بداية أي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نص يأخذني إليه؛ منطقة تحتلها اللحظة القصوى من الألم، والاستشراف، والشعور بأن ما كُتب سابقًا لا يعدو مجرد محاولة لشرح ما أحس به. حالة لها علاقة بخوفي من التوقف عن الكتابة. ازداد عدد القراء حين مررت بالتصادف من أمام دار النشر، وهي تعرض (دفاتر الوراق)؛ فرحت أنصاع لرغبتهم بتوقيع نسخ من الرواية. ساعة تخللتها أسئلة من نوع يقارن بيني وبين (إبراهيم الوراق)، شخصية الرواية. سؤال أجبته بكلمة واحدة: لا.

تعود بي ذاكرتي إلى يوم عاد فيه عمي عزيز من (رومانيا). كان الوقت صيفًا وليل القرية صامتًا يتخلله نباح بعض الكلاب، وصوت صرصار الليل. كنت أيامها في السنة الثالثة للمدرسة، أقود مجموعة من أقراني أبناء أعمامي في لعبنا اليومي. حفاة، بشعور كثة، وقامات نحيلة، وبناطيل وقمصان مهترئة. خجولين، وفي الوقت ذاته تميزنا المشاكسة. ما إن ينتهي اليوم المدرسي، ونتناول طعام الغداء بعجالة حتى نتنادى للعب يمتد إلى ما بعد غروب الشمس؛ نفترش التراب منصاعين إلى أحاديث طفولية لا أدري كيف تخلقت في تلك الأيام. حدث ذات ليلة من ليالي الصيف المقمرة أننا استلقينا ننظر إلى النجوم كيف تملأ السماء. رحنا في صمت مفاجئ، وكل منا يحدق بالأعالي. تمتم أحد أقراني وفي صوته حشرجة الحيرة: (أخبرتني جدتي ذات مرة أن من يمث يزرع الله له نجمًا في السماء). كنت لحظتها أتساءل بسري: (هل السماء مقبرة مضيئة بهذا القدر؟) ثم ما لبثت أن أعلنت عن حيرتي: (لماذا إذن هناك مقبرة على الأرض ما دامت السماء تترع بنجوم من ماتوا؟) في ذلك اليوم كان يفصلنا أسبوع عن موت أحد رجال القرية. جلسنا على كومة تراب تشكلت جراء حفر القبر، ننظر إلى شيء ملفوف بقماش أبيض، ونشم رائحة عطر قوية. حين أنزلوه في القبر رأينا وجهه؛ رجل خمسيني، عرفنا فيما بعد أن سيارة دهسته وهو يعبر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شارعًا على أطراف القرية. اعتقدت لحظتها أنه نائم، وأن الدفن سيمنحه نومًا أبديًا. رأيت بعض الرجال ينتحبون؛ فشككت بالأمر، وهاجمني شعور غريب لم أعرف ما هو وقتها، إحساس خليط من الوحدة، والخوف، والحزن المبهم. عدت من المقبرة، واختبأت في زاوية البيت، وبكيت كثيرًا. في تلك الأيام لم نكن نعرف عن الموت إلا قليلاً، لم يكن حدثًا عابرًا. وحينما رأينا التلفاز للمرة الأولى في بيت جدي، معتقدين أن وراء زجاج شاشته أناسًا يتحركون ويقومون بكل ما نراه، شاهدنا رجالاً في مسلسل عن (عروة بن الورد) يموتون في ساحة المعركة وهم يتقاتلون بالسيوف والرماح. المرة الأولى التي رأيت فيها رجلاً يموت في ذلك المسلسل أصابني الشعور ذاته الذي ساورني يوم رأيت الرجال يبكون عند المقبرة؛ فبكيت خلسة بينما عيون الأعمام، وأبناء الأعمام، وإخوتي، والعمات، مصوبة على شاشة التلفاز. ومع تتابع حلقات ذلك المسلسل بات الأمر معتادًا، لكنه أخذني إلى أن أجر أقراني إلى معركة على أرض الواقع، ودفعتهم قبلها إلى أن يصنعوا ما يشبه السيوف، والرماح، والسهام، من مخلفات مهملة، وانقسمنا إلى فريقين؛ واحد للأعداء، والآخر للمظلومين.

ليلة أن عاد عمي عزيز كنا نختبئ وراء أشجار بستان جدي هاربين من العقاب، لأنني أصبت أثناء معركتنا المبتكرة أحد أبناء الأعمام بسهم غارت مقدمته قليلاً في ظهره، ولم يسبب له ذلك أذى كبيرًا. لم نخرج من مخابئنا إلا عندما رأينا الرجال بعد غروب الشمس يتوافدون على ديوان جدي. وقفت بالباب لأرى ما في الداخل. كان عمي عزيز يستريح في مقدمة المجلس على فرشتين صوفيتين، يرتدي قميصًا أبيض، شاربه حليق، وشعره طويل على غرار موضة السبعينات. أسنانه ناصعة البياض، وفي وجهه صفاء لم أعهده في وجوه أهل القرية. لمحني بطرف عينه وهو يتحدث فأومأ لي بأن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدخل، وأجلس إلى جانبه. ترددت في البدء، لكنني امتثلت لطلبه مدفوعًا بفضول كبير لاكتشاف رجل يتحدث عنه الجميع. كنت حافيًا أرتدي بنطالاً أخضر ممزقًا من عند ركبتي، يعلو الغبار قميصي الذي طارت نصف أزراره تاركة عرواتها حرة ليكشف عن صدر نحيل. تسمرت أمامه بعينين خجولتين، وهو يحدق بي، وعلى وجهه ابتسامة تخالطها الشفقة. ساد الديوان الممتلئ بالرجال الصمت، وكأنهم ينتظرون حدثًا ما. مد يده نحو سحاب بنطالي وأغلقه. قال بنبرة حازمة: (عروة بن الوردة لم يكشف عورته قط). سحبني من يدي نحوه واحتضنني، ثم قبلني، وأفسح لي مجالاً بقربه؛ قرب رجل أطلق عليّ اسمي وغادر، وها هو يعود. قال لي بالنبرة الحازمة نفسها: (سمعت أنك تقود معركة وأنهم ينادونك عروة بن الورد) هززت رأسي متحمسًا أقر بما قال. اقترب من وجهي: (هل تعرف ابن الورد؟) حركت رأسي إلى الأعلى نفيًا، ثم تداركت الأمر: رأيته في التلفاز. وما رأيك به؟ قلت والصمت يفرض نفسه على المكان: رجل قوي. نظر بوجهي ثم أنشد:

لحا الله صعلوكًا إذا جن ليله

مصافي المشاش آلفًا كل مجزر

يعد الغنى من دهره كل ليلة

أصاب قراها من صديق ميسر

ولله صعلوك صفيحة وجهه

كضوء شهاب القابس المتنور

لا أدري كيف حفظت تلك الأبيات مع أني لم أفهمها، حفظتها رغم أنه قالها لمرة واحدة. ليلتها نمت وصورتان لا تفارقان مخيلتي: واحدة لعمي عزيز،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأخرى لعروة بن الورد.

أمضيت السنة الدراسية في عام ١٩٧٧ في غرفة مستأجرة. هكذا كانت المدرسة، مجرد غرفة واحدة، يقوم عليها معلمان يتكفلان بتعليمنا كل المقررات الدراسية. كلنا أبناء للقرية، فقراء، خجولون، ملابسنا رثة، لا نعرف ما في الحياة إلا ما تعلمناه في (حنينا). فينا من يقبل على التعلم بشغف، وفينا من كان ينظر والمعلم يقول ما عنده نحو فخاخ نُصبت في الباحة، انتظارًا أن تقع بين فكيها العصافير. في أوقات الاستراحة ثمة طلبة كانوا يذهبون إلى بيوتهم لعلهم يجودون ما يأكلونه، والبعض الآخر يبقون بلا أي قرش ليشتروا به ما من الدكان الوحيد آنذاك في القرية. بعد مغادرتنا المدرسة يخرج معظمنا بالأغنام إلى المراعي. وفي الليل ننجز واجباتنا المدرسية في ضوء الفوانيس. كانت حياة صعبة، لكنها بلا هم، ولا غم؛ بل يميزها تفاؤل كبير، ونفوس نقية.

أمران جعلاني أتعلق بالمدرسة: الأول لأقرأ القرآن لأمي التي لا تعرف القراءة ولا الكتابة، والثاني لأعرف ما في مكاتيب عمي عزيز. كانت أمي لسبب لم أعلمه تضع القرآن تحت وسادتي. حدث ذات ليلة أن مرضتُ وبصعوبة بالغة نجحت في أن تخفض من درجة حرارتي. كان ظاهر يدها هو ميزان الحرارة. بعد أن فارقتني القشعريرة وعادت لي شهيتي للطعام سألتها: (لماذا تضعين هذا الكتاب تحت وسادتي؟). قالت بصوتها الدافئ: إنه كلام الله. أخرجتُ القرآن من تحت الوسادة، وأخذت أقلب صفحاته: (أخبريني ما فيه). ارتسمت على وجهها ابتسامة مشوبة بشيء من الحزن: (لم يرسلني أبي إلى الكتاتيب. لا أعرف القراءة). قالت ذلك وأرخت رأسها على يدها وهي تغرس كوعها في الوسادة وغفت، غفت سريعًا. وجهها صافٍ، لكنه يشي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بحزن عتيق، وبأمنيات لم تتحقق، وبحب عارم للحياة، وبخسارات كثيرة أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

جلست أسفل مظلة في حديقة الفندق أشرب قهوة، وأدخن، وأقرأ (الغريب). أقرأ سعيًا إلى حريتي، رغم أني لست متيقنًا، هل الحرية هي الهروب من السجن؟ هل النهار هروب من الليل؟ وهل الدفء هروب من البرد؟ إنها لعبة نقائض ننفق أيامنا فيها، وهي تغدو كبقعة تقع ما بين نقطتين إشكاليتين. هناك من تخذله قدماه فيبقى عند النقطة الأولى يعاني حسرات وجودية. هناك من يغلبه التعب؛ فيستلقي أرضًا في المنطقة الوسطى. وهناك من يصل لاهثًا؛ فيلتفت إلى الوراء كمن يراجع بسرعة ما فعله؛ فيلقي بنفسه من مرتفعاته ليطير.

من فتحة في المظلة تسلل الماء إليّ؛ فابتل جانب من وجهي. نطرت إلى السماء وهي تمطر بهوادة لذيذة. انتحيت جانبًا ثم رحت أقرأ في (الغريب).

(ريمون سانتيس) يشكو لـ(ميرسو) ما فعلته به عشيقته العربية التي لا نعرف اسمها، ولا شكلها، ويرغب بكتابة رسالة لها لينتقم لتعود له، ثم ينتقم منها. فنجدها في هذه الرواية امرأة كسولة، طماعة، عاهرة، مخادعة بينما (ريمون) ضحية، يمارس دور المُنفق بتعال خفي. لقد أظهر (كامو) المرأة العربية خارجة عن السياق الحضاري الذي ينتمي له؛ إذ إنها إضافة إلى كل ما وصمها به، تقبل أن يضربها الرجل، وينتهي الأمر بأن يضاجعها. عبر هذا التكثيف السردي، نجد مقارنة بين صورتين؛ صورة الفرنسي المتحضر، وصورة العربي المتخلف. مقارنة تدافع عن المستعمر بالضرورة. سأقول عكس هذا لو دارت أحداث هذه الرواية في فرنسا، بشخصيات، وأماكن فرنسية، حينها ستكتمل عظمتها بعد اكتمال موضوعيتها. لكني هنا أتوقف مثلما توقفت من قبل، وأحاول فهم العلاقة بين مرجعيات (كامو) الفكرية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبين مرجعياته (العرقية). أحاول أن أفهم هذا التناقض الكبير عند كاتب ولد في حي (بلكور) الشعبي في الجزائر العاصمة، ودافع عن الجزائريين في مقالات وتقارير صحفية لأكثر من مرة. وهو من نادى بالمقاومة ضدّ الاحتلال الألماني لفرنسا، وعارض الحكم المطلق لستالين، وسياسة الغولاغ وغزو تشيكوسلوفاكيا، والفرنكويين في إسبانيا.

من غير خبرة في انسياب طرق الجزائر، ومسيل اتجاهاتها، ركبت سيارة أجرة وطلبت من السائق أن يقلني إلى قاع المدينة. قلت له بالعربية الفصيحة إني أريد الذهاب إلى وسط البلد؛ ففهم ما طلبت، وانطلق. لكل مدينة قاع، ولكل مدينة في الليل وجه غير ما نراه في النهار. للجزائر وجه ليلي يحتفظ بأسمائها: (البهجة، المحروسة، الجزائر البيضاء)، وكعادة المدن العريقة، للجزائر جانبان: واحد قديم، وآخر حديث، يطلان من شمال البلاد على الجانب الجنوبي للمتوسط. توقفت السيارة في شارع على طرفيه متاجر ومقاه، وله رصيفان عريضان. بناياته، ومحاله ذات طابع أوروبي. قال السائق هذا شارع (ديدوش مراد) ثم غادر.

المشي في أمكنة أجهلها يشبه قراءة صفحة من منتصف رواية تأسرك فتقتنيها. أنظر في وجوه المارة، كتب يمكنك أن تقرأ فيها عبارات خاطفة تختصر زمنًا حافلاً بالمسرة والوجع. أنظر في المباني، مدونات تشي بالكثير مما لم يقله التاريخ. ثمة بهجة شعرت بيواكيرها تدغدغ روحي، مكنتني من أن أمشي كثيرًا، بلا ملل، ولا كدر في مزاجي. شارع ديدوش مراد، وساحة البريد المركزي، ثم ساحة الأمير عبد القادر التي لمحت منها (مقهى ميلك بار). كان يسمى (كوك هاردي)؛ مقهى ارتبط اسمه باسم (جميلة بوعزة) رفيقة (حسيبة بن بوعلي)، و(جميلة بوحيرد)، و(جميلة بوباشا). كان لجميلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بوعزة المولودة عام ١٩٣٨ صوت جميل، وميول موسيقية أخذتها لتعلم العزف، وتلَقِي دروس في الغناء. اندلعت الثورة الجزائرية وانضمت إلى الجبهة الوطنية. ظهر أنها بارعة برسم الخطط وتنفيذها، وظهرت احترافيتها في زراعة القنابل؛ طريقان أمام الإنسان لا يختار أحدهما إلا إن أتت العاصفة، أو إن ذهبت إلى البعيد.

أجلس في مقهى (ميلك بار)، أتأمل نصب الأمير عبد القادر، وما يحيطه من بنايات. تتلاشى الأصوات، فأتخيل جميلة بوعزة: امرأة فاتنة بلباس فرنسي فاتن. أغمض عيني وأشم عطرها. أسمع نقرات حذائها ذي الكعب العالي ينقر جبين الأرض بدلال كبير، وهي تمشي نحو المقهى. تتأوه الأرض، تنوح الأحلام، تتمطى الأمنيات. أسمع من روحها موسيقى تؤازر الأشجار، والأنهار، والسماوات الزرقاء. أسمع كلمات أغنية حانية، رقيقة تحكي عن الحب، والوطن، والصباحات الدافئة. ثم أسمع دقات ساعة مُفجر (تك، تك، تك.) ويأتي دويّ الانفجار؛ فتنهال الصرخات. أصرخ، وأجفل، وحولي ينظر بعض رواد المقهى إليّ باستغراب.

أفكر بروح الإنسان؛ أرى فيها شرفتين: واحدة رقيقة حانية يسودها الزهر والموسيقى، وأخرى قاسية تسودها البندقية، ويعتليها الغضب. أفكر بلحظات لامس فيها إصبع بوعزة وتر آلة موسيقية، وبأخرى تضع فيها إصبعها على زناد البندقية. لحظتان فارقتان تصنعان تاريخ الإنسان، لكن أيهما خيارنا؟ اختارت بوعزة البندقية من أجل أن تقف بوجه اليد التي خنقت الوردة.

حدثني عمي عزيز كثيرًا عن الجزائريين، وحكى لي عن صداقاته العميقة بهم. في أول زيارة له بعد عودته الأولى لم يمكث سوى أسبوعين ثم عاد إلى (رومانيا)؛ بلاد كنت أنصت إلى أحاديثه عنها كعطشان يعدونه بالماء. لا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أدري كيف تحققت أمنيتي بأن أرافق المودعين إلى المطار في ذلك المساء. كان عمري سبع سنوات عندما رأيت المطار، والطائرة، والمسافرين لأول مرة. في ذلك اليوم لم أجد مبررًا لما رأيته من حزن في قاعة المغادرين، لم تقنعني مشاعرهم، ولم أتعاطف مع أصحابها. كنت منفصلاً عن أحاسيسهم القروية الساذجة وهي ترى في السفر احتمالات غياب أبدي، ومتصلاً بفكرة السعي نحو البهجة.

في طريق العودة إلى حنينا خيم الصمت على جدي، والأعمام، وهم تحت وطأة الحزن. أما أنا فكنت منشغلاً بصور تلقَّفتها مخيّلتي عن بلاد سيغادر إليها عمي عزيز، وهي تتكاتف بعضها مع بعض، وتشكل مشهدًا مطولاً لبلاد احتلت مساحة كبرى من مخيلتي. حلمت بفكرة الانتصار على المسافات، وتجاوز بقعة كنت أراوح فيها. يبدو لي أن الأحلام المبكرة نقمة لا نعمة، تمامًا كأن يقود طفل معركة عليه أن ينتصر فيها. أمر لم أكن أعي مخاطره إلا بعد أن تجاوزت ذلك العمر المرتبك.

في آخر أيام السنة الأولى من المدرسة أيقنت أني بت قادرًا على أن ألم شمل حروف أول كلمة تعلمت كتابتها. لم يحدث هذا الأمر إلا بعد أن صرت قادرًا على التهجئة. أتذكر أني كنت أحاول تهجئة كل كلمة تقع عليها عيناي، كما لو أني أمتثل إلى نصيحة عارف سوف تفضي بي لمعرفة الحقيقة: الكلمات المكتوبة على علب حلوى كانت تهدى لأمي حين تنجب مولودًا. اسم أبي في بطاقته العسكرية. كلمات بهت لونها على حقيبة سفر صغيرة تركها عمي عزيز.

في ذلك اليوم حشرت في جيبي وأنا أغادر غرفة الدرس قطعة طبشور، وبقيت أتحفظ عليها إلى أن وصلت بيتنا المطلية جدرانه باللون الأسود.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سرقة ارتكبتها بمعزل عن شعوري بالذنب مخالفًا أوامر المعلم الذي شكا نقصًا في القرطاسية. خطوتي الأولى نحو إثباتي لقدرة تمنيتها لأكتب مثل من ألفوا كتبنا المدرسية، من غير أن أدري أنها غيرة مردها البحث عن ذاتي. لم يكن سهلاً أن أشرح للمعلم ولعي الشديد بالطبشور وهو يرسم الكلمات على لوح مدرسي أسود له لون جدران بيتنا.

ألقيت بحقيبتي أرضًا، وأخرجت قطعة الطبشور من جيبي مبتهجًا، ورحت أكتب وشعور بالزهو يتملكني بقوة. منحني لون الجدار وخلوه من أي خربشات متعة قصوى، ولوح الطبشور ينساب عليه تاركًا لونًا أبيض يناكف سطوة الأسود. كنت مبتهجًا وأنا أصف الحروف جنبًا إلى جنب، إلى أن كتبت كلمتي الأولى: (الماء). لم أدرِ أنّ أمي تقف ورائي، وتنظر إلى ما أفعل. لم تكن على عادة الأمهات اللواتي يغضبن من تلويث جدران البيوت؛ بل جلست بقربي، وقد افترشتْ الأرض أتفقد ما كتبت، وسألتني بصوت تخالطه ملامح مكابدة البكاء عما فعلته يدي.

هل كان إحساسًا مبكرًا بالعطش؟ وأي ماء ذلك الذي ما زلت أعطشه منذ تلك السنة؟ أم أنه ولع مبكر بالقراءة والكتابة والسفر؟

في ذلك العمر كلما رأيت طائرة تحلق في السماء تنتابني قشعريرة ورغبة جامحة باجتياز المسافات نحو أماكن بعيدة. حالة دفعتني إلى أن أتعلم كيف أصنع طائرة ورقية، وأرخيها للهواء. في البدء حامت في دائرة، ثم انطلقت إلى الأعلى وظلت ترتفع إلى أن استقرت واقفة كامرأة تداري بهجة كبيرة. ربطتها بمسمار في جدار بيتنا، وافترشت التراب والخيط يتقوس كدرب إلى جبل بعيد، أحلم به يأخذني إلى حيث تتغاوى تلك الطائرة؛ فاستسلمت لحلم يقظة استدرجني إلى هناك، حيث الهواء الطري، وحيث نأي حقيقي لا يتكرر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لحظة تشبه لذة حلم مباغت انتهى على وقع صراخ أقراني وهم يرددون: (قُطع الخيط، قطع الخيط).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

7

بعد أن عدت مأخوذًا بليل الجزائر؛ التقيت كُتّابًا جزائريين جاء معظمهم من ولايات بعيدة، ونزلوا في الفندق مدعوين إلى فعاليات الصالون الدولي للكتاب. أمضيت برفقتهم ساعتين في بهو يطل على الحديقة، ثم غادرت. في غرفتي استلقيت على سريري وانصعت للقراءة.

يصف (كامو) على لسان (ميرسو) ثلاثة مشاعر بالوحدة أولها ما يحس به (سلامانو) في غياب كلبه الذي ضاع منه. والثاني شعور (ريمون) بالوحدة في غياب عشيقته العربية. والثالث الإحساس الخفي لـ (ميرسو) بعد موت أمه. هنا يظهر التناقض لدي (كامو)، وكأن بوصلته تأخذه إلى جانبه الإنساني بعيدًا عن مرجعياته في الكتابة. فنرى (سلامانو) يبث شكواه ويغادر، ويسمع (ميرسو) من وراء الجدار حركته جيئة وذهابًا. يجزم أنه يبكي، أو هكذا خرجت صورة البكاء من تلافيفه السرية، حينها خطرت أمه بباله؛ فنام بلا عشاء. ترى هل هذا شكل مجازي من البكاء لدى (كامو) يمرره عبر (ميرسو)؟

(في مجتمعنا، كل رجل يرفض أن يبكي على والدته يعدم! لماذا نبكي؟ سنموت جميعًا عاجلاً أم آجلاً). تثير عبارة (كامو) هذه غضبي وطمأنينتي في الآن نفسه، فنحن حينما نقرأ، نفعل ذلك بوعي لا ينفصل عما حدث لنا، أو ما نخشى حدوثه.

يوم ماتت أمي كان بكائي عبارة عن صرخة رعب لم أطلقها ليلة الضجيج الجواني. إن العالم مرعب بلا أم، وليست رؤية شعرية إن قلت إني حقًا شعرت بالعرج في غيابها. أثار هذا الجانب غضبي من الغريب. وعندما أفكر بالأمد الطويل لحزن جعد روحي، أشعر بالطمأنينة وصوت (كامو) يتردد في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسمعي هامسًا:(لماذا نبكي، سنموت جميعًا عاجلاً أم آجلاً).

ألقيت الرواية جانبًا، أتأمل حروف عنوانها ورأسي على الوسادة، وأستعيد لحظة القراءة الأولى في زمن المدرسة؛ إذ بت بعد مرور ثلاث سنوات عليّ فيها قادرًا على القراءة؛ فرحت أتجهز للحظة أهزم فيها حزنًا رأيته في وجه أمي يوم أخبرتني بأسلوب طفلة عن عجزها عن قراءة القرآن، ولِما شعرتُ به وأنا أفتح الحقيبة الجلدية، أفتش في رسائل عمي عزيز، من غير قدرة على فهم ما يقوله فيها. حدث ذلك في مساء صيف ١٩٨٠ نجلس أنا وشقيقاتي وأشقائي بمعية أمي قبالة تلفاز لا ألوان فيه إلا الأبيض والأسود، موصول ببطارية سيارة تكفي أيامًا فقط لتشغيله، تتابع مسلسلاً عاطفيًا يحكي قصة حب فيها الكثير من الوجع، وتجفف دموعها بباطن يدها كلما علت وتيرة المشاهد. بعد أن انتهى المسلسل نهضت بتكاسل، وجهزت لنا فراش النوم، مجموعة من الفرشات الصوفية تضعها جنبًا إلى جنب، تغلفها بغطاء بلاستيكي رقيق، تعلوه بطانية يحمي الفرشات من تبول بعضنا الليلي. فراش نندس فيها أنا وأخواتي وإخوتي، ونروح في شيء من المزاح إلى أن ننام. في ذلك المساء لم أذهب إلى النوم، بقيت بقربها وهي مستلقية على جنبها، تسند رأسها بيدها، وتغرس كوعها في الوسادة، تنظر في الفراغ رغم نعاسها الواضح. حملتُ المصحف ورحت أقرأ. انتصبت جالسة، وعلى وجهها ترتسم دهشة تعلوها البهجة، ثم اتسعت حدقتاها، وأخذت شفتاها تتراقصان؛ فأجهشت ببكاء صامت. لم أتوقف عن القراءة، وهي تنصت باهتمام كبير، ويدها مرة تلامس رأسي، وأخرى تضعها على كتفي. ليلتها كنت أعي أني أفعل من أجلها ما يمكن أن يضيف إلى روحها الكثير من الفرح. استلقت في فراش النوم، وأنا أواصل القراءة إلى أن نامت، كما ينام الأطفال وأمهاتهم يروين لهم القصص. كان وجهها في أعلى درجات صفائه، وأنفاسها هادئة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مطمئنة. رفعت غطاء النوم ولذت بحضنها، طوقت عنقي بذراعها؛ فربحت السكينة. حين استفقت صباحًا لم تكن ملابسي مبتلة، كانت آخر ليلة أبول فيها على نفسي، بعد سنين كنت أراني فيها أقف على مرتفع يطل على مدينة وأبول؛ فأصحو جراء برودة السائل في ملابسي. يومها ذهبت إلى بيت جدي، وفتحت الحقيبة الجلدية، أقرأ رسائل عمي عزيز. كنت أقرأ بصوت مسموع، أعيد العبارات وأتوقف عند بعضها. رسائل منها ما يصف مدنًا وقرى زارها في (رومانيا)، ومنها ما يتحدث فيها عن دراسته وأحلامه، وكيف سيخرج بالعائلة إلى ما هو أفضل. له لغة رقيقة، جميلة، قادرة على أن تأخذ قارئها إلى عمق ما أراد أن يصل إليه، إنها فتنة اللغة كيف تصبح طيعة في طريق السرد. حفظت من قبل أسماء المدن، والشوارع، وأسماء أصدقائه منذ أن أخذ يحدثني عنهم. قرأت رسائله؛ فوقف الحلم بالسفر عند مسمعيّ، وهمس لي بما أريد، رغم أني كنت أعتقد أن المسافة بين حنينا وبين (رومانيا) قصيرة. إنها سذاجة ولد قروي لم يكن يعرف من الجغرافيا إلا ما هو في حدود البصر.

في تلك الأيام اتسعت رقعة القرية، لكنها بقيت مكانًا وادعًا ببيوتها الرابضة على تلة تطل على مادبا. مدينة منذ زمن ما قبل المدرسة اعتدت أن أجلس قرب البيت، أرخي رأسي بين يدي، وأتأملها، أحلم بالمدينة من دون أن أدري أي الأشياء يمكن أن تسلبها مني، وأي الأشياء يمكن أن توفرها لي القرية. كانت حكايات جدي وجدتي تدفع بي باستمرار إلى التحديق بمادبا تارة، وأخرى بالطريق التي تربطها بعمان. إلى أن رأيت جدي في أول أيام الشتاء يجهز فرسه لينطلق إليها. كنت أقف قربه، وفي عينيّ ملامح غبطتي له على مشواره اليومي. قبل أن يمتطي فرسه انتبه لي؛ فبقيت قدمه اليمنى في الركاب، واليسرى على الأرض تسند جسده وهو يتفرس وجهي مبتسمًا، ثم نطقها: هيا تعال معي. لا أدري كيف قفزت وراءه بكل تلك الخفة ثم مضى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ما إن تسلقت الفرس مرتفعًا تنطلق من وسطه طريق تتلوى إلى مادبا، ويداي تلتفان حول جسده حتى رحت أنكش عش الأسئلة: من هنا تبدأ المدينة؟ ما هذا؟ من هذا؟

أخذت حنينا تتضاءل وأنا ألتفت إليها أكثر من مرة، أخشى أن تضيع مني في صخب المسافات. ومادبا تكبر وتتسع، بينما الفرس تنقر خطواتها على الطريق الإسفلتي، نقرات ما يزال صداها في أذني كضربات على طبل في حفل الفجر، أولئك الذين مررنا بحيّهم وجدي يحدثني عن طقوسهم في الحياة، لحظة أن رآني مندهشًا من رجل يطرق قضيبًا معدنيًا استله للتو من النار. لم أفهم شيئًا مما قاله سوى أنهم طيبون، ومظلومون. بقيت ألوي عنقي إلى الوراء، أتأمل شعور الرجال الطويلة، وملابس الناس الملونة، وخيامًا يخرج منها أطفال نصف عراة، وفتيات جميلات. بعد دورة لدولاب الزمن عرفت أنهم قوم مستقرهم الريح، وليلهم الغناء. ينظرون إلى الدنيا من نافذة ساخرة من كل شيء. في السوق تلاشت الأسئلة؛ وحل صمت اقتادني إلى تأمل مشوب بدهشة مفرطة، أصلها صدمة الأحداث والأشياء الأولى: دكاكين عطارة، دكاكين للخبز، للأقمشة، للحلويات. دكاكين لكل شيء، وحركة نشطة للناس، والسيارات، والخيول، لم أجدها في القرية. في القرية فراغات جغرافية شاسعة لا تعرف الصخب. وفي المدينة ما يمكن أن يخرجك عن سياق هدوء ممل ارتبط ليله بالضجيج الجواني. المدينة عالم جديد أصابني بلوثة بقيت ترافقني بلا انقطاع وجدي يسلم على هذا وذاك. كان يضحك تارة، ويبتسم أخرى. يطيل الحديث مع أحدهم، ويختصره مع آخر.

في ذلك اليوم عثرت على صورة أخرى لجدي غير ما عهدتها في القرية. صورة لواحد عينه على هدف بعيد تجاوز من أجله زمن الحل والترحال

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الصحراوي إلى زمن الاستقرار. رجل تعلن روحه عن رشاقتها، وعن محبتها للحياة. نهار استثنائي بقيت أتمسك بأثره المقدس، وآخر شارع يمر من وسط حي الغجر يقتادنا خارج المدينة عائدين إلى القرية، يداي تتحلقان حول خصر جدي، والفرس محملة بالخضار، والفاكهة، والأرز، واللحم، والحلوى، والتبغ.

في المدى الغربي تكاثرت غيوم داكنة لمع من تكاثفها برق أعقبه صوت هادر للرعد؛ وما هي إلا دقائق حتى انهمر مطر شديد الغزارة، احتضنه التراب بلهفة كبيرة. نظر جدي إلى السماء مبتهجًا، ثم خلع (فروته) وزملني بها؛ فرحت أطل من فتحتها وفي رأسي إحساس ينبثق للمرة الأولى حيال المطر وهو يقصف الأشياء بلهفة عاشق جريء. كان جدي والفرس تسير بحذر، يطل إلى الأعلى مُغمضًا عينيه، والماء يتساقط على رأسه، ويسح على وجهه، ثم يتعلق بنهاية ذقنه، مثل دموع أبت أن تسقط. فجأة والرعد يحوم في السماء صرخ بصوته الجهوري:

- عزك يا عزيز. عزك يا عزيز.

وبوعي طفولي متحمس رحت أردد وراءه، بعد أن أخرجت رأسي من الفروة:

- عزك يا عزيز. عزك يا عزيز.

ترجل عن الفرس، وحملني بعد أن خلع كوفيته، وأمسك بيدي ورحنا نرقص. وقفت الفرس على قدميها، وقد دبَّ في شراييها طرب عنفواني، بينما يجتاحني دفق موسيقي هائل، ويحملني إلى أعالي البهجة. حين مضينا في طريقنا تضاءلت صورة المدينة شيئًا فشيئًا ورائي في تلك اللحظات التي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا يسمع فيها إلا صوت الرعد وصوت تساقط المطر. لماذا وأنا أوغل الآن في تخوم ذاكرتي أراني كما لو أنني حياديًا عن ذلك المشهد:

(الفرس تتسلق الربوة نحو حنينا، وهي تصارع الانزلاقات، وأنا ألتصق بجدي عائدين بروح المدينة إلى قرية كان أغلب قاطنيها في الشتاء يعيشون في الكهوف، ويصعدون ربيعًا إلى بيوت الشعر. نمت في تلك الليلة وأنا أحاول أن أضع كل صورة رأيتها في موقعها، لأصحو صباحًا وأقف عند تلك الربوة، واضعًا كفيّ فوق حاجبيّ، كما يفعل جدي، وأحدق في المدينة، وفي درب الرعاة).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

8

في اليوم التالي أقيمت لي ندوة في صالون الجزائر الدولي للكتاب لأتحدث فيها عن تجربتي. ماذا يمكن أن يتحدث هارب إلى الكتابة؟ هل حقًا أن ما أمضيته من سنوات منكبًا على ما يمكن أن أسميه نزيفًا سرديًا هو محض هروب؟ أم بحث عن ذات تمتلك قدرة عالية على مواجهة القبح، ومصادقة الجمال؟

قلت على لسان إبراهيم في (دفاتر الوراق) إني: (أكتب لأردم هوة تخلقت بي على نحو معتم). وقلت ما يشبه هذا الاعتراف على لسان خاطر في (أفاعي النار)، وعلى لسان سراج في (سيدات الحواس الخمس). أعترف أني اختبأت وراء شخصيات في رواياتي، وصرخت بحرية من يدرك أنه لن يُرى. ربما هذا ما جعلني أتمسك بكتابة الرواية رغم ما فيها من تعب كبير. لا أشعر بمتعة أثناء الكتابة، شعوري يشبه شعور من علقت في حلقه لقمة ناشفة يجاهد أن يتخلص منها. أقوم بذلك وأنا أسمع صوتًا داخليًا يحثني على المحاولة، ويعدني بمزيد من الأوكسيجين. الكتابة الأولى لي؛ أكتب وأنا أنصت لذلك الصوت الداخلي، وأتوقف لما يتوارى. الأمر لا علاقة له بالإلهام، إنما بحصيلة جعلت لهذا الصوت طاقة على إنارة الزوايا المعتمة، وعلى ابتكار الحلول. والكتابة الثانية للقارئ؛ أشذب الشجرة من أجله، على اعتبار أن الرواية شجرة لها ساق، وفروع، وأغصان، تحمل أوراقًا وثمارًا.

اتصلت بي عائشة حداد، كاتبة لم ألتق بها من قبل. استنكرت أن أنفق جلّ وقتي بين الفندق ومعرض الكتاب في أول زيارة لي إلى الجزائر، ودعتني إلى زيارة (تيبازة)، ولاية تبعد ثمانين كيلو مترًا عن العاصمة. التقينا عند العاشرة صباحًا وانطلقنا بسيارتها في طريق محفوفة بالشجر، ومسقوفة بسماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ربيعية زرقاء صافية. تحدثني عن ولعها بالكتب، والسفر، وتجاوز كل ما يعيق الحياة. لا تفارق وجهها ابتسامة ما عاد ينفع التشبث بغيرها في هذا العمر. قدرت أننا في عمر واحد أصبحث فيه أكثر هشاشة، أكثر قلقًا، وأكثر خوفًا مما سيحدث لعالمنا. عمر يجب فيه على واحد مثلي آمن بالكتابة أن ينظر إلى الأمام، ويكتب متكئًا على ما خَبره في سنواته السالفة. قالت: (أعرف أن لك اهتمامًا كبيرًا بالأمكنة، لهذا أردت أن أطلعك على بعضها). حدثتها عن علاقتي بالمكان، والأشياء الأولى، وحدثتها عن بيتنا الأول.

أتذكر ذلك اليوم الصيفي من عام ١٩٨٥، يومَ ارتحلت فيه عائلتي، على محمل السعي إلى حيّز أوسع يوفره بيت جديد. بيتنا الأول كان عبارة عن غرفتين بنيتا قديمًا بشكل طولي، عند نهايتهما اليمنى يقف حمام ومطبخ صغيران منفصلان، يحرسهما سور متوسط الارتفاع، شُيِّدَ أيام كان أبي جنديّاً تختطفه منا الصحاري لأشهر، ثم يعود لأيام قليلة ويغادر، تاركًا لنا رائحة ملابسه العسكرية، وعبق الآباء المصابين بلوثة الحنين، وكثرة الضجر من المسافات البعيدة، ورجع ضحكاته وهو يرتدي مزاج المزاح يعوضنا عما اقترفه فينا الغياب. لبيتنا الأول طراز معماري قروي بسيط يمتد من الشمال إلى الجنوب، بأبواب تتجه نحو الشرق، تَمَثلُ شكلاني لبيت الشعر، وانتمائه إلى جهتيَ الشمس حيث بزوغها الصباحي، وغروبها الداعي إلى السكينة، وانحيازه لفضاءات واسعة لا تطيق الضيق. لا أدري، هل هذا هو السبب في أن ظُلي بلون أسود ما انفكت جدرانه تذكرني بالسبورة؟

يستقر البدوي لكنه لا يتخلص من ولعه بالمسافات الممتدة، والليل المشوب بترقب الغزاة، وامتداح النجوم، والمجرات البعيدة، والنساء اللواتي يخرجن من عباءة الظلمة متوشحات بالنور، وأغنيات للوجد لا تخلو مما يثير فينا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

رغبة بإغفاءة على ضفة البكاء.

في أول يوم في بيتنا الجديد الأكثر اتساعًا، والأكثر انغلاقًا، وقفت إلى سوره كطائر أعفيّ من مرابحه في العلو، أنظر إلى بيتنا الأول عبر مسافة قصيرة تمتد منها يدٌ إلى قلبي، وتعصره بقسوة مفرطة؛ فبكيت مهزومًا أمام شعور غريب وغامض، يشبه إحساسًا بالفقد، ويشبه شعور من جردوه من أشيائه الأولى، وألقوه عاريًا منها في دغل لا يفهم لغاته المتشابكة. مضى الشهر الأول عليّ بلا سهولة في النوم أمام مطاردة بيتنا الأول لي في مناماتي؛ منامات من زمن الطفولة، تلفحني فيها أصوات، وروائح، وهمهمات، ومشاهد ما عادت هنا بعد أن كُسر مفتاح كان يهوّن الأمر على دفاتر الذاكرة، في اللحظات الحرجة لحنين الآدمي لعشه الأول. كنت أيامها في السنوات الأخيرة للمدرسة، تدفعني الأحلام بدراسة الطب لأعكف على كتبي المدرسية كما يعكف تائه على شحذ سيفه بانتظار معركة مع وحش كاسر يقف بينه وبين النهر قاتل العطش؛ فعدت إلى بيتنا الأول طلبًا للعزلة، أنام في سرير هو لوح معدني يربض على بضع قطع من الطوب الإسمنتي، تعلوه فرشة صوفية. يرافقني ما تحتفظ به البيوت من ذكريات.

البيوت ليست مجرد حجارة تنتمي لقبيلة الجمادات ما دامت تسير في درب الذاكرة على نحو يجعلنا نتأملها بمنطق غير مألوف، ونتساءل عما يمكن أن تقوم به في غفلاتنا، وفي لحظات عجزنا عن إيجاد تصورات جديدة للكون. لولا البيت لما كانت الذاكرة، ولولا الذاكرة لكنا كائنات مفرغة تهزها ريح خفيفة. ترى هل تتساءل البيوت بمنطق المآلات في غيابنا؟ من الذي يتساءل؛ الحجارة أم الذكريات؟ يخيل لي أن البيوت كائنات بيننا وبينها عجز تاريخي من الفهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تلك الليالي كنت أتقلب بين ما في البيت من مقتنيات العش الأول؛ فأرى الصور البكر وهي لم تنكث عهدها بعدم الهزيمة أمام ما يفعله بنا الزمن من قفزات ملتبسة نحو الأمام. انتهى عهد المدرسة، وحل مصير جديد للبيت الأول؛ إذ باعه والدي لرجل جاء ليستقر في القرية. كنت أفز فجأة من نومي، وأقف ببابه، وقد أحكمه مالكه بقفل يشبه حكمًا لا رجعة عنه. بيني وبينه سور، وزمن ماثل أمام عينيّ، كأم باتت في عهدة رجل آخر. بعد أشهر أتت آلية رفعت ذراعها المعدني عاليًا، وراحت تناكفني وهي تهوي عليه ببراعة سادية. كنت أراقب ما يحدث عبر المسافة نفسها بين بيتين في زمنين مغايرين؛ فرأيتني طفلاً تحملني زوايا البيت، وتفر بي من مكيدة المعدن. رأيت قُبلات أمي تتصاعد في الهواء كندف ثلج تعود إلى مأواها قبل السقوط. رأيت كل شيء يصعد عاليًا: كلمات أبي، وكركراته ونحن نمتطي ظهره مقلدًا الحصان في مشيته الرشيقة. حكايات أمي في ليالي الشتاء المليئة بالبرد، وزعيق الريح الموحش. أحلامنا أنا وإخوتي بعد أول مشهد تمثيلي رأيناه على شاشة التلفاز. أولى الكلمات على الجدران. أول انتباه لجسدي. أول تأملاتي لمن وراء هذا الكون. رأيت كل أشيائنا في ذلك الزمن تغادر الأرض متنصلة من محنة الحجر، تاركة وراءها غبارًا شعرت به يخرج من رئتي، ويصيبني بسعال غريب.

توقفنا عند قبة هرمية تعتلي جبلاً يطل على سهل حفل بالأشجار والاخضرار. قالت عائشة: تسمى (قبة الرومية). وأشارت إلى (سهل مثّيجة). في تلك القبة ترقد (سيليني) ابنة ملكة مصر (كليوبترا)، والروماني (أنطوان). وقد تزوجها الملك (يوبا الثاني). قبة بنيت لتكون ضريحًا. وعي هندسي يشي بحزن عتيق، أو على الأقل هذا ما أحسست به؛ فالهرميات الهندسية غالبًا ما تثير بي مشاعر تبعث على التشاؤم، ليس لأنها محاولة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بشرية للتغلب على العدم، وتصعيد الذكرى، إنما لأنها تبدأ واسعة، وكلما صعدت إلى الأعلى تضيق؛ فأتساءل والسماء مثال واضح على اللانهاية: هل هي محاولة للاحتجاج على الفراغ، إضافة لكونها تشي بقدرة الإنسان الذي كلما ارتقى إلى الأعلى تضاءلت طاقته؟ يحدث هذا ونحن نتسلق جبلاً، وحينما نكبر في العمر. هل يحدث هذا في العشق؟ قال لي صديق تصوَّف هربًا من الاكتئاب إنه كلما حلقت روحه في الأعالي، وانفصل عن موطئ قدمه، يرى كل ما حوله شوكًا يتساقط بسهولة لم يحلم بها.

أتذكر كيف تسلقت شجرة سرو غرسها جدي هي وشجرتين أخريين. فعلت ذلك لأرى باريس بعد أن فرغت من قراءة (البؤساء)؛ باريس التي صورها (هوغو) في روايته على نحو أخذني إليها رغم بؤس تلك العوالم. هل كانت مخيلتي بكل ذلك الضيق بأن أحاول رؤية مدينة تربض بيني وبينها بحار ومحيطات؟ هل هي لحظة استمرار لزمن القراءة بحيث أني غرقت في ذلك القاع الثمين، ولا مناص من العودة إلى اليابسة؟

حدث ذلك حين جاء عمي عزيز مرة أخرى إلى حنينا. لكن هذه المرة ترافقه امرأة شقراء جميلة عرفت من أمي وأنا أتهيأ للذهاب إلى المدرسة واقفًا عند باب البيت أنها زوجته. تتكئ على السور، تشرب الشاي بتمهل، وتنظر بعينين مستكشفتين إلى القرية، وعدد من نسائها يقفن إلى النوافذ، ويحدقن بسذاجة بامرأة مكشوفة الشعر، ترتدي بنطالاً وبلوزة، ولا تخجل من النظر إلى الرجال. كنت في السنة السادسة من المدرسة، أخشوشن صوتي، ونما قليل من الشعر فوق فمي، وبت أكثر حساسية نحو كل شيء. لا أدري قبل أن أغادر البيت أي أمر دفعني إلى أن أعود، وأتأكد من هندامي. ربما هو إحساس قروي ينتاب الواحد منا حين نقابل أحدًا جاء من بلاد بعيدة. شعور غريزي لا يمكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن نتغلب عليه بسهولة، خاصة في يوم من عمر غض مررت فيه بمحاذاة السور، وسلمت على امرأة لا تشبه نساء قريتي، متعبات الوجوه، في عيونهن خجل عتيق، وشعور بالحاجة إلى التواري قبالة الرجل. ردت عليّ بكلمة واحدة: صباح النور. ثم انبرت تتحدث بلغة لا أفهمها، لكنها لفظت اسمي، واسم عمي عزيز.

في المدرسة سألني معظم زملائي عنها؛ فقد انتشر الخبر بسرعة. إنها الأحداث الجديدة، وهي تفعل فعلها في أماكن راكدة، روتينية، أحداثها قليلة، وأنباؤها شحيحة. كنت أعتقد أن عمي عزيز وزوجته سيمكثان لأسبوع أو أكثر بقليل، ويغادران. لكنه عاد واستقر في القرية إلى الأبد؛ إذ أنهى دراسته وحرم من العمل بسبب مواقفه السياسية؛ فبات مزاجه مائلاً إلى الحدة، والحذر، والقسوة.

في أحد الأيام كنت بمعية إخوتي وأبناء الأعمام نلعب في ظل شجرة (الفلفل). الوقت قبيل الغروب، رأيته هو وزوجته يجلسان وبينهما صينية عليها فنجانا قهوة. التفت نحوي ونادى عليّ؛ فأدركت أن لعبنا قد عكر صفوهما. جثوت عنده على ركبتي بملابسي الرثة، المتسخة. نمت في وجهه ابتسامة هادئة وهو ينظر إليّ تارة، وأخرى نحو باقي رفاقي، ثم همس لي بمزاج فيه شيء من الحدة: (اقرأ رواية البؤساء). ما أتذكره أني غادرت إلى البيت حزينًا من وصفنا المستتر بالبؤساء.

في المكتبة العامة كانت السيدة ذات الأربعين عامًا تضحك من فكرة أني قادم لاستعارة كتاب، ما إن التقطته حتى عجلت الخطى نحو البيت لأغرق فيها ليومين بعدهما قرعت باب بيته. قلت له ووجهه يطل عليّ باسمًا: (لا أعرف ما كنت تقصد، لكني أحببت هذا الكتاب).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في الحقيقة اختفت الكلمات لحظتها من فمي، ولم أجد عبارة شافية تشرح ما شعرت به بعد أن انتهيت من القراءة، ووضعت الرواية جانبًا. غادرت بعد أن قلت له ما عندي، وجلست بجوار بيتنا أسند ظهري إلى جداره، وأنظر إلى الأفق وأنا أرى فيه باريس، ووجوهًا لـ (جان فالجان، وفانتين، وكوزيت، وماريوس)؛ فداهمني الحزن لما عانياه (فالجان) و (فانتين)، وتملكتني البهجة وأنا أستعيد ما بين (كوزيت) و(ماريوس) من حب كبير. كنت مرتخيًا، كمن عبر مسافة طويلة، وألقى ببدنه يعاني الوهن. لكن لوثة مفاجئة دفعتني لتسلق شجرة السرو، أملاً في أن أرى باريس، وكل من رافقوني ليومين في أول رحلة في كون الرواية. صعدتُ بعجالة غير آبه بأغصان كانت تترك في جسدي جراحًا وندوبًا إلى أن وصلت رأس الشجرة، ولم أرَ إلا قريتي. يومها بكيت وأنا أهبط الشجرة؛ شعرت بالعجز عن تأكيد ما في مخيلتي بما هو على أرض الواقع.

بعد مرور عشرين عامًا على ذلك اليوم الفاصل في حياتي سألني عمي عزيز عما رأيته في (البؤساء). قلت له: لقد كانت الرواية الأولى التي جعلتني أراني، ببؤسي، وشقائي، وأحلامي. إن الرواية العظيمة هي التي يتهادى إليك منها صوت هامس ويخبرك أنها تحكي عنك. إنها صوت مؤسس للخروج على الظلم، وغياب العدالة، وعلى كل الذين يسعون إلى تملك المصير الإنساني. إنها بيان ثوري، لكن كتبه أديب يعرف جيدًا من هو الإنسان.

لقد جعلتني (البؤساء) مواظبًا على قراءة أفضت بي إلى كتابة منحتني جناحين لأصعد من جديد رأس الشجرة بعد أربعين عامًا، غير مكترث بمن يصرخون بفزع: كيف تصعد أيها المجنون وقد جبّوا الشجرة!

منذ تلك الحادثة واظبت على زيارة المكتبة العامة، وبت في أول طريق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإدمان على الكتب، ورائحتها، وملمسها، وكلماتها. كنت أقرأ كثيرًا من الروايات مدفوعًا بلذتين عاليتين، الأولى لها أثر مؤقت لطرد ضجيجي الجواني، والثانية زادت من شغفي بالمدن، والناس، ومن تحكي عنهم تلك الروايات. أيامها رحت أمضي وقت ما بعد المدرسة راعيًا لأغنامنا قليلة العدد في السهوب الشرقية لحنينا، سهوب خضراء ممتدة، تعمرها حقول من القمح والعدس، والكرسنة، والشعير، وعشب ينمو فيها بغزارة. اعتدت أن أترك للأغنام حريتها، وأستلقي. تارة أراقب طائرات تغادر المطار القريب من تلك المنطقة، وأحلم بالسفر. أحلم ببلدان بعيدة تركت الروايات لها في ذاكرتي صورًا أبدية، وبالنساء ممشوقات القوام وهن يمشين في شوارع تكثر فيها المقاهي، والمسارح، ودور السينما. أحلم بالموسيقى، وبغناء شفيف يأخذ الروح إلى مساحات قصية من البهجة.

لم أكن اجتماعيًا بشكل يمكنني من أن أختلط برعاة آخرين، كنت أميل إلى عزلة تؤمن لي مستوى من التأمل. أتأمل الأغنام وصغارها تركض وراءها مصابة ببهجة لم أفهمها إلا بعد أن تقدم بي العمر؛ فعرفت ما معنى أن تتخلى عن أشياء كثيرة لتنظر إلى ما بين يديك؛ فتحيا. أتأمل العصافير وهي تهبط إلى أعشاشها بطمأنينة أطلعني عليها (غاستون باشلار). عصافير أغواني أقراني ذات يوم لاصطيادها في التلال الغربية لحنينا. أعطوني فخًا، وعلموني كيف أستخرج دودة من تحت الحجارة، وأخفي الفخ بتراب ناعم، ثم أستدرج العصفور له. كل واحد منا نصب فخه في مكان يبعد عن الآخر مئتي متر تقريبًا. كانت تجربتي الأولى؛ لهذا دلوني على عصفور يقف على حجر ويحدق في الشرق. رحت ألتف حوله وأطلق صفيرًا، وأحرك يدي ليتجه نحو الفخ. لم يكن الأمر صعبًا، فقد طار وهبط على شوكة قريبة من مصيدته؛ فأخذت أطلق مزيدًا من الصفير، إلى أن رأى الدودة تتحرك في الفخ؛ فراح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يقترب، حتى رأيت غبارًا يتطاير، وريشًا يعلو في الهواء. لحظتها ركضت نحوه فرحًا بما جنيت. وجدته حيّاً يكابد فكي الفخ. انتزعته منه واحتضنته بيدي. عصفور جميل، ناعم، امتثل للهدوء وأنا ألامسه بأصابعي، وراح يحدق بالشرق. من بعيد أتت أصوات أقراني متفاوتة وهم يعدون أنفسهم بشواء لذيذ، وأنا أراقب العصفور تارة، وأخرى أفعل مثله، أنظر إلى الشرق، وأفكر: هل سأنتزع رأس هذا الطائر الجميل مثلما يفعل أقراني، ويستقر في بطني؟

اتجه أحدهم نحوي، وعلى خاصرته يربط عددًا من العصافير، وأخذ يحثني على أن أنتزع رأس ما اصطدت، وأنصب فخي من جديد. لكنني أرخيت يدي، ونظرت نحو العصفور وهو يحلق بعيدًا نحو الشرق، غير آبه بشتائم أقراني الذين رميت إليهم بالفخ، وعدت إلى البيت.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

9

أقف قبالة (قبة الرومية) مستغربًا كيف يُخلد الحزن بهذه الطريقة، وكيف كان لقصة حب بين (يوبا) و(سيليني) أن تولد جراء تحالف دولتين، وقيام حروب طاحنة. أطوف بها وأتلمس حجارتها. أفكر بالحب. محظوظ من يجد امرأة تعصر قلبه، كأنه خرقة متسخة، وتنشرها على حبل الغسيل؛ فتعود بيضاء، بيضاء من غير أسى. تمشط روحه بأظافرها، تحصد شوكها الحولي، ثم تزرع في ترابها وردة واحدة، هي البوصلة. أفكر بالحنين. دوما بي حنين لشيء غائب، كحنيني للشتاء والصيف يلقي على الأشياء سلامَه الرشيق. أو أن أفتقد امرأة ما، تتسلل خلسة عن عيون الليل الواسعة، وتقرع نافذة غرفتي، ثم تهمس لي بكلمات لم تقلها امرأة من قبل؛ فأغني كمن يغني لطفل يتأرجح بين الصحو والنعاس. أو أقع صريعًا لحنيني المباغت للقصيدة، عندما تأخذني الرواية إلى سرير اللغة؛ فننتشي ثم نغفو متعانقين على وسادة فتنة السرد، عاريين مما يحد من جسارة الكلمة. حينها أتسلل على رؤوس أصابع القلب، كمن يغافل امرأة، ويذهب نحو قلب امرأة أخرى؛ فألقي بي بحضن القصيدة، وهناك أمضي ليلتي على وسادة المجاز، أبكي تارة، وأغني تارة أخرى.

تستريح (تيبازة) على ساحل المتوسط كرحالة وجد ضالته؛ فاستقر يتأمل الجهات. بيوتها عتيقة، تطل نوافذها على البحر وهو يمارس رعونته الأبدية. في شوارعها ما يدفعك لترى نفسك من جديد.

بدت لي عائشة مصابة بما في الأمكنة من أسرار، وأسئلة. تنظر إلى الأشياء كما لو أنها تراها للمرة الأولى. إن أجمل طريق إلى اكتشاف المدن هي ما تأخذك عبرها امرأة تؤمن أن الأمكنة ذاكرة لا تشيخ. دلتني على أماكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها من الاستثنائية ما يحيل إلى الدهشة، وكأنها تدفعني إلى الكتابة. ثم اصطحبتني إلى البحر. لست ابن مدينة ساحلية، والبحر الميت لم يمنحني حيوات تحدث في مدن مثل تلك، لهذا يهاجمني سهو غريب قبالة الماء، وأمام موجة أفهم أنها صراخ للريح، واحتجاج على العمق المتواري في عالم سطحي. تركتني أختلي بنفسي، أجلس على شاطئ كَسَتْهُ صخور ليد الماء فيها الكثير من تشكيلاته الفنية. أخذني كل شيء في ميناء تيبازة إلى الماضي. كانت القوارب راسية، والنوارس تهوي في الهواء، والعشاق، والمارة، والعابرون يستسلمون لسطوة تلك اللحظات الآسرة. يعيدني طيف خفيّ إلى سنين بعيدة؛ فأرى بحارة يلقون بمراسيهم في الماء، وآخرين يحملون البضائع. أشم عبق البحر، والتوابل، والعطور، ورائحة رجال يكابدون أشواقهم بعد غياب طويل في عرض المجهول، رغم الأغنيات، والقصائد المشوبة بالأمل.

أشارت عائشة إلى جهة على الشاطئ تدلني على خلوة (ألبير كامو). أنفقنا ربع ساعة مشيًا إليها في صعود بين تشابك كثيف للأشجار، وتشكيلات صخرية فعلتها الطبيعة. في الطريق أخبرتني بما تعرفه عن (كامو)، وجهة نظر جزائرية حول روائي وفيلسوف ولد ودرس وعاش في الجزائر. لم يتبق من الخلوة سوى نصب خرساني نقش عليه بالفرنسية: (هنا عرفت معنى المجد، الحق في الحب بلا حد). أتأمل المكان، أتفحصه، أتقمص لحظات وقف فيها واحد مثل (كامو) مسكونًا بالأسئلة واللايقين، وراح ينظر إلى البحر يتوسل قاعه أن يبوح بالحقيقة. أستعيد ما أعرفه عنه. أتفكر بأثر موت أبيه بعد عام واحد من ولادته، وإصابة أمه بالصمم، وبما عاشه من فقر، وبسلٍّ أصابه في السابعة عشرة من عمره، بشكه بكل شيء، بعلاقاته النسائية الكثيرة، بعبثيته، وبموقفه (اللاأدري). تتركني صديقتي أتجول على هواي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متسائلاً عن معنى المكان من غير الذاكرة، وعن معنى الذاكرة من غير المكان الذي كنت سأراه مجرد بقعة تطل على البحر لولا أناسه. المكان هو الذاكرة، والذاكرة مكان.

يربكني اليوم الذي يسبق العودة إلى بلادي. هذا يعني أنني سأرحل عن أمكنة حدث لي معها تفاهم خاص، حب من نوع طريف، احتواء غير معتاد، سكينة تعوزني. أفكر بكثير من الأشياء: باب غرفة الفندق، فاصل بين خلوتي والعالم. السرير، سفينة الإبحار إلى ما أعده سلطان النوم. الطاولة، كتف الورقة، شاهدة الكتابة. النافذة، عين محايدة على الجديد. الشرفة، ذراعان تحوشان التفاصيل ليحدث المشهد. السقف، سر تأملاتي. الشوارع، فهرس كتب لم تؤلف بعد. الأرصفة، متكآت العابرين. المقاهي، حضن الفضفضة.

تربكني الزيارات القصيرة؛ إنها تؤدي إلى لوعة تأتي عند مغادرة المكان في لحظة أكون فيها للتو قد بدأت أفهمه. لوعة تعبث بمزاجي الهش، وتعيدني إلى المربع الأول. لكنه فرض من فروض حياتية مهما تناسيناها، ستبقى تلح علينا، وتشعرنا بالإخفاق.

جهزت حقيبتي، ووضعتها قبالتي وأنا مستلق على السرير، تنظر إليّ كعادتها؛ خلتها تتأكد من زاوية أروّض فيها لحظة مثل تلك. غادر معظم الكتاب الفندق. ثمة طيف للضجر أخذ يقترب مني، يطوّق عنقي بيديه القاسيتين، ويهددني بالكآبة. ارتديت ملابسي وغادرت. كانت السماء ترسل مطرًا خفيفًا منحني لذة دفعت الضجر إلى الوراء. ركبت سيارة أجرة وطلبت الذهاب إلى شارع (ديدوش مراد). راديو السيارة يبث أغنية جزائرية حانية. البيوت والأشجار والناس يستسلمون للمطر، كمن يستحمون بعد يوم خالط طقسه الغبار. أغادر السيارة عند (ميلك بار)، وأختار طاولة عند نافذة تطل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على الشارع، وعلى ميدان الأمير عبد القادر وهو يمتطي جواده ويشهر سيفه بوجه الغرب كله، وعلى جهة من الجزائر، بلاد لا تفك لك وثاق أسرارها إلا إذ ألفتك. أشرب قهوة، وأدخن، وأقرأ في (الغريب). يذهب (ميرسو) و(ريمون) إلى البحر. ينتبهان إلى أن هناك رجلين عربيين يترصدانهما. يرسم لهما (كامو) صورة تفاصيلها تشي بالحقد، والكراهية، والتخلف. من دون أن نعرف عنهما شيئًا سوى أن واحدًا منهما هو شقيق عشيقة (ريمون) التي ضربها بعد أن بعث لها برسالة؛ فألقي القبض عليه. يحدث عراك بينهما ينتهي بأن يقدم (ميرسو) على قتل أحدهما، من دون أن يشعر بالندم، في إشارة لا يمكن فهمها إلا أنها شرعنة للاستعمار، وتأكيد لصورة العربي غير المتحضر، وكأن كامو يهمس عبر أدبه الروائي المقروء عالميًا أن الجزائر فرنسية، وأن بقاء فرنسا ضروري للقضاء على ما فيها من تخلف.

أستعيد عبارة قالها (ميرسو): (المرء لا يغير حياته البتة، وأن كل الحيوات سواء). أضع الكتاب على الطاولة وعيناي تحدقان مرة بما هو خارج المقهى، وأخرى في دواخلي. عالمان ينفصلان ويتحدان. أي حياة يسعى إليها الإنسان بكل هذا النهم لاقتناص المسرة؟ منا من تخونه قدماه في منتصف الطريق، ومنا من يختطف اللؤلؤة، ولهاثه يعلو كسمفونية في أوج صعود اللحن إلى أعالي الذروة. وأي مسرة هذه القابعة في البعيد وقد أقصت أبصارنا عما حولنا من ينابيع للبهجة. هل البهجة للروح أم للجسد؟

أمضى صديق ملحد حياته في القراءة، والبحث، والتأمل. وكلما كبر في العمر تزداد قناعته برؤيته للأديان. في إحدى الليالي أصيب بأزمة قلبية. وهو على السرير بين يدي الطبيب نطق الشهادتين، وخاطب الله بوعي صوفي فريد. ترى هل كان إيمانه برؤاه السابقة ضعيفًا؟ هل قال ذلك خوفًا من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مجهول لم تلد أسئلته أجوبتها؟ أم أنه عرف الحقيقة؟

في صيف عام ٢٠٠٤ كنت عائدًا من (تايوان)، شاب لا إيمان لدي إلا بالعلم، بعد حصيلة قراءات، وتأملات لسنوات كنت أعتقد أنها طويلة، وكافية لأمتلك رؤية للكون. وإن جادلني أحد في هذا الأمر أنفقت من وقتي ساعات أحاول فيها إثبات وجهة نظري. كنت حاداً جدًا كسيف أُعدَّ توّاً للمعركة؛ سلوك طالما جافاني الكثير من الناس بسببه. جلست في مقعدي تجاورني سيدة بريطانية ستقيم في عمان لأيام ثم تغادر إلى (لندن)، تعرفت إليها سريعًا، ورحت أنصت إلى رأيها بالشرق؛ الشرق الذي تراه روحانياً، مقابل الغرب الذي باتت النفس فيه أسيرة أزمات عديدة.

أقلعت الطائرة من (مطار بانكوك)، والحديث بيني وبين تلك السيدة ما يزال يسلك دربًا جميلة. لكن الطائرة أخذت تهتز بشكل استغربته، ثم ما هي إلا دقائق حتى خرج علينا صوت قائدها يخبرنا أننا في منطقة تكثر فيها المطبات الهوائية. لم أعر الأمر انتباهًا في بدايته، لكن استمراره بوتيرة متنامية، ومزعجة، أثار ريبتي. نهضت من مقعدي وسألت أحد أفراد الطاقم الفني للطائرة؛ فأخبرني بأن خللاً فنياً مفاجئًا حدث قبل قليل. عدت إلى مكاني، وربطت الحزام على جسدي، من دون أن أقوى على ربط قلق تلبسني بضراوة، إلى جانب التوتر الذي جعل مني كائنًا غير قادر على التركيز بأي شيء، سوى لحظة منتظرة سوف يحدث فيها الموت لا محالة، لحظة سقوط الطائرة.

راحت السيدة الإنجليزية ترسم على صدرها شارة الصليب، وحين نظرت إلى الآخرين وجدت معظمهم يبتهلون إلى الله. أرخيت رأسي على الكرسي، وأغمضت عينيّ، أنظر فيما وراء جفنيّ من ظلمة، وأسمع منها دويّاً غير

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

دويّ الطائرة، وتأتيني منها أنفاسي وهي تتعالى بوتيرة مرتبكة. شعرت بأني ضعيف بقدر لم أعهده من قبل، وبأني يابس مثل غصن مبتور من شجرة، ملقى في العراء. نهضت من كرسيي، وذهبت إلى حمام الطائرة، وبالكاد استطعت أن أستحم. كنت بعجالة أمسح جسدي بالماء بعد أن أجمعه بكفي. عدت إلى مقعدي، وغمرت رأسي بما يزودون به المسافرين من بطانيات. ورحت أصلي. ما أتذكره أني صليت مرارًا، وقرأت كثيرًا من آيات القرآن الكريم. في البداية صليت بتلعثم، وارتباك، ثم فيما بعد مسني الهدوء رغم ما أشعر به من اهتزاز، وعدم استقرار.

لكن الطائرة هوت مرة واحدة؛ فعم الزعيق، والصراخ، والعويل، وارتطمت الأجساد ببعضها، وسقطت الحقائب من مخابئها، وراح الذهول يحكم قبضته عليّ بشراسة، بينما الطائرة تتحول إلى كتلة لا قدرة لأحد أن يسيطر عليها، إلى أن ارتطمت بالأرض؛ فأخذت أصرخ مرعوبًا، بينما ركاب الطائرة وهي تضع عجلاتها على المدرج للتو ينظرون إليّ يستغربون ما أفعل. لقد نمت لسبع ساعات من (بانكوك) إلى عَمان بعد أن صليت، وما كان سقوط الطائرة إلا كابوسًا.

جلست في غرفة المدخنين في المطار أقبل على السيجارة بنهم غير معتاد، وأفكر بكل ما قرأت، وبكل ما توهمت أنها حقائق توصلت إليها. لقد كان قراري بالصلاة خوفًا من الموت، لكني حين حملت حقيبتي وخرجت والهواء في تلك الساعة التي تسبق طلوع الشمس طريٌّ، تفكرت بحقيقتي، ثم بروحي التي وجدتها آنذاك مثل عصفور عرف أين هو النهر؛ فشرب.

أعود من منتصف الطريق إلى فندق (الجزائر) مشيًا. توقف المطر، وتراجع عدد المارة في الشارع. صارت اللحظة هينة، وخفيفة على القلب. تقتحم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجزائر قلبي بجسارة؛ فأجلس على أحد مقاعد الرصيف، وأقرأ آخر ما تبقى من صفحات (الغريب).

يُلقى القبض على (ميرسو)، ويُحكم عليه بالإعدام، ليس لأنه قتل العربي، الجريمة التي رآها القاضي أمرًا عاديًا، إنما جراء برود مشاعره حيال أمه وموتها.

ترى من هي هذه الأم التي يقصدها (ألبير كامو) بحيث صار عدم إظهار الحزن عليها جريمة تستحق الإعدام.

بعد أن نال (كامو) (جائزة نوبل للآداب)، وفي الرابع عشر من ديسمبر عام ١٩٥٧، في مدرّج جامعة (أبسالا)، طقس شبيه بطقس محاكمة (ميرسو) يوجه شاب جزائري سؤالاً لـ(كامو) حول موقفه مما يحدث في الجزائر، فيجيب:

(أنا أدين الإرهاب. ولا بد لي من إدانة الترهيب الذي يمارس بشكل أعمى في شوارع الجزائر العاصمة على سبيل المثال، والذي قد يصيب أمي أو أحد أفراد عائلتي. أنا أؤمن بالعدالة، لكني سأدافع عن أمي قبل العدالة)

لن يكون الأدب إنسانيًا بديمومته وانتمائه إن لم يكن حرًا. لكن هل يمكن للكاتب أن يكون بمعزل عن الرواسب العرقية، والدينية، والسياسية التي يتركها الزمن في دواخله، وربما تحرف مساره يومًا ما؟ في روايته (الغريب) لم يكن (كامو) مثقفًا حرًا بالمعنى الذي تزعمه أفكاره، وانتماءاته، ونضالاته، بل بدا كما لو أنه يتخفى ببراعة، حين مارس إقصاءً متعمدًا للجزائري، ورسم شخصيته من زاوية الرؤية الاستعمارية.

سيبدو الرأي هذا مربكًا وغامضًا أمام شخصية (كامو) الأدبية والسياسية والاجتماعية؛ فإما أنه وقع ضحية رواسبه فانحاز لا شعوريًا، أو أنه كان

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محترفًا في التخفي وراء شخصية الأديب المؤمن بالعدالة، فناصر الاستعمار. وفي الحالتين لم ينتصر للحظة التاريخية التي أتت نتاج سطو المستعمر على الجزائر لتزيد من رقعة إمبراطوريتها بأدوات وسعي إمبرياليتين.

يعود المطر مرة أخرى. أفتح هاتفي النقال، أتأكد من موعد مغادرتي الفندق نحو المطار، وأضبط منبه الساعة وأعيده إلى جيبي. أمر بساحة البريد المركزي. ثمة حركة خفيفة للمارة، بينما الجزائر تدس في جيب قلبي حلوى محبتها، وتعزف عند مسمعيّ موسيقاها الأصيلة، وتمد يدها تلامس رأسي. أسند جسدي إلى شجرة، أنظر في الأفق، وموسيقاي الداخلية تشج ذاكرتي. أبكي بصمت، ثم أغادر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثاني

حين كتبت أول كلمة؛ شعرت بأول خطوة

غير مترنحة على طريق لم أقل لأحد عنها.

حزن أبيض

ها أنت تستسلم لتدفق موسيقى جاءت تتعقب أثر ضجيجك الجواني. تدفق روحاني، جعلك تُعليه على كل أشكال الموسيقى وهي تحيط بك كحشائش في دغل واسع. يشبه صلاة كهل يرى العالم من ثقب عتيق في يده. مرة ظنوا أنه يبكي، وأخرى ظنوا أن غبارًا حجب الرؤية عنه. لكنهم ما دروا أنه ينظر فيرى. إذا لم تقنع جرحك بأنه سيستحيل إلى وردة من النهوند؛ ستبقى كل هذا العمر الذي يمر خطفًا رهينة أبدية للألم. الألم تجربة الشوك في المشي على سطح بؤبؤ لوليد جرّب رغم صوت الحذر التحديق بالشمس، فرأى خرافًا تُجز على مرأى من أناشيد الرحمة، ورأى دماءً كلما شاهد الشفق ضجت بياله من جديد. ها أنت تحدق بوجوه تؤدي الآن ابتسامات معدنية لا رنين فيها، وتنصت إلى أصوات عالية يبدو جرحك أمامها بكامل الصمم. حرون وعالٍ قدامها هذا الجرح؛ كفرس ترفض أن يجرها السائس إلى مربط البغال. وعالٍ كرأس شجرة سرو تتظاهر بالاخضرار، رغم ما دلقوا من ملح عند الجذور فجاء باليباس.

حدث وأن جربتَ أن تمشي على يديك؛ قدماك إلى الأعلى، ورأسك إلى الأسفل، لا بأس بإحساسك بشيء من الدُوار، ونمنمة في الوجه. سخرت من نفسك والجارة ترى قدميك، ولم تر رأسك، وأنت كعادتك اليومية تذرع الشرفة تتأمل فكرة ربما تصلح لرواية تزيل شيئًا من غبار تراكم على زجاج

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قلبك. ستكذب، وتخبر صحافيًا يستجوبك على محمل الحوار أنك تحاول أن تزرع وردة في جدران هدمها الساسة. لا بأس المهم أنك مشيت بطريقة مختلفة عما وجدت نفسك ملتزمًا به منذ رأيت من هم حولك يسيّرون شؤون حياتهم، تبعًا للذين مضوا آسفين على خوفهم مما اعتقدوا أنه خطيئة.

إذا لم تغن لجرحك وتخبره بأنه سيصير شمسًا؛ لن تنفعك مصابيح سيعيرونها لك لليلة واحدة ثم يتحججون بخوفهم من الظلمة. الظلمة إحساسك بأن الليل ما يزال يتبختر في الطرقات رغم أن الشمس تمد لسانها التموزي في عقر صفحة الظهيرة. ها أنت بكيت قبل قليل وأنت تحلق ذقنك وجعًا على خدرٍ داهم يدك، وأنت تطرد بردًا ما تعبت من طرده منذ خمسين عامًا مضت، كما يمضي سكين مهترئ بجسد فتي. لا عليك، يكفي أن تعرف أنك بكيت بصدق فارس واجه صديقًا في معركة ما كان يمكن لها ألا تقع. لا عليك من كذبة ابتدعتها لتكتب قصيدة عن شعرة سوداء تنتصب بين بياض شعر ذقنك جزّتها الشفرةُ رغم عنادها أمام حدة المعدن، وشهوته بجز الأشياء الواقفة.

إذا لم تمسد رأس جرحك؛ لن تمتد أياديهم وتفعل ما ينتظره ولد فيك لا يكف عن النظر إلى العالم ببراءة غبية لا تنتهي. مد يدك الآن وامسح أطرافه النافرة متجاوزًا وهم الحذر. الحذر ترددك أمام صخرة هشة تحول بينك وبين النبع لترتوي؛ فتكف عن حديثك المستمر حول العطش.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

محاولة جادة لأول درس في مزاج إنجليزي بريطانيا

كل كلمة أكتبها هي شوكة أنتزعها من دواخلي، لتصير وردة في حقول الآخرين.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

خمس ساعات من تحليق الطائرة انتهت بي في مطار (هيثرو) الذي خلته معملاً بيولوجيًا أنتج آلافًا من الأعراق، بروائحهم ولغاتهم، ووجوههم، وأمزجتهم، وثقافاتهم، ثم أخذ يسيرها إلى مراقدها ليحتفظ بها خوفًا على عرق آدم من أن يتلاشى إن وقعت الكارثة. هل هناك كارثة أكثر فداحة من أن يتسبب إنسان لآخر بكراهية إن لم تودِ به إلى الموت ستصيبه بعجز داخلي، وعليه أن يختار ما ينتجه معمل الضغينة. هل له أن يختار؟ وهل التفاهة وهي تحيق بنا بكل هذه السهولة، جزء من أشكال هذا العجز المميت؟

منذ أعوام بت أرى العالم مثل رجل رأيته في طفولتي حين ذهبت مع أبي إلى وليمة عند أصدقائه. كان يرتدي ثيابًا جميلة، يتغاوى بها. بحركة غير محسوبة منه، تعثر الرجل بعد أن كان يمشي متفاخرًا، وسقط؛ قدماه ترتفعان في الهواء كجذعي شجرتين أجردين، ورأسه إلى الأسفل؛ فبان سرواله الداخلي ممزقًا، ورثًا، تمامًا مثل جوربه المهترئ أيضًا الذي بان لحظة أن نُزع حذاؤه اللامع جراء سقطته.

بقيت لدقائق مثل وعل مذعور أتلفت حولي، لا أفهم شيئًا كعادتي مع لحظات مثل هذه في أماكن تطأها قدماي للمرة الأولى. من توجب عليه فهم ما يرى؛ شاعر وروائي ينوء بي، ويريد أن يرى العالم على هوى رؤاه، أم أنا، كائن بات همه الوحيد في الأيام الأخيرة هو العيش بشيء يسير من فرح ما تبقى أمامي في زمن مثل هذا إلا أن ألجأ لأحصل عليه إلى المشعوذين بعد أن جربت كل شيء، نصائح المتخصصين في التنمية البشرية، مقولات كبار الكتاب، نصائح الصديقات المتفائلات، نصائح الخبراء النفسيين. حتى إنني كدت ألجأ إلى عقاقير مخدرة قد توفر لي بهجات قصيرة من هذا النوع، إلا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنني خشيت الجنون. الجنون موت، والموت حدث كلما جاء أحد على ذكره، رحت أغني كأجدادي البدو، وهم يطردون الضباع بأصواتهم الخشنة.

حدقت وأنا أجر حقيبتي متمهلاً بوجوه النساء أكثر مما حدقت بوجوه رجال يسرعون الخطى نحو بوابات الخروج من المطار، كأن حدثًا استثنائيًا بانتظارهم. وجوه النساء أكثر دفئًا، وأكثر حميمية. تمنحك فرصة أن تمارس نوعًا من الغزل السري بلا حرج، وحتى فرصة لتقبلها بسرك، وتلقي برأسك المتعب على صدر من تختار بباطنية مفرطة. لم أر وجوهًا كثيرة من بريطانيا، رأيت خليطًا كنت أفتش فيه عن وجوه الإنجليز المعروفة بملامحها. لم أزر (بريطانيا) من قبل. قرأت عنها، وقرأت لكتابها وقد أشرعوا نوافذ المخيلة على عوالم خضراء، اصطفت جنبًا إلى جنب مع لون صحراوي عقر ذاكرتي عبر سنوات طويلة من العمل في الشرق الأردني. لكن هنالك ثلاث صور تحتفظ بها مخيلتي لبريطانيا: واحدة إثر قراءتي روايات (تشارلز ديكنز) الذي منحني الإطلالة بكل خفة على عوالم لم أعهدها من قبل، والأخرى تشكلت جراء ما فعله (بول بريمر) بالعراق. أما الأكثر دفئًا عندما اصطحبني والدي عام ١٩٨٢ إلى عيادة الدكتور (زيد حمزة) لمداواة أذني من التهاب، وأخذ يحدثه عن مهارة أطباء تخرجوا من بريطانيا. لم أكن أعي أن هناك ما يمكن أن يؤجل الإحساس بالوجع، إلا حينما أخذت عمّان تكبر شيئًا فشيئًا، وعيناي مصوبتان على زجاج نافذة الحافلة. كنت في تلك اللحظات أسيرًا لنوع طريف من الدهشة؛ دهشة قروي رأى جانبًا من هذه المدينة في الليل لمرة من قبل، ودلف إليها في نهار ربيعي مشمس، يزيل شوك البرد بهوادة عجوز طاعنة بالحكمة. هبطنا من الحافلة في جبل عَمان، يدي في يد أبي، خائفًا عليّ من تيه سعيت إليه بعد سنين من ذلك النهار، وأبواق السيارات تطرق مسمعي كأنها تنبهني إلى كرنفال مُنتظر بين تلك البيوت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العتيقة وشرفاتها تطل على الشوارع كنساء يتكئن على النوافذ. كانت عمان أكثر وضوحًا، مثل رواية كتبها كهل، وأودع أوراقه في صندوق أعد للذاكرة. كانت أقل ضجيجًا، حتى خبزها كانت له لذة المدن التي تعرف أن التمهل خيارها الوحيد للوصول إلى النهر. في ذلك اليوم بعد أن داوى الدكتور زيد حمزة أذني، اصطحبني أبي إلى وسط البلد، اشترى لي قميصًا، وحلوى، وبرتقالاً، ونسخة شعبية لرواية (أحدب نوتردام). أسرني زحام عمان، وطعامها، وروائح محال العطارة، وكتبها المعروضة على الأرصفة، وتلك الأغنيات التي كانت تبثها متاجر تبيع (الكاسيتات). أسرني حتى بائع الصحف وهو يعلن عن عناوين رئيسية فيها. لقد رأيت في ذلك اليوم وجهًا بشوشًا للمدينة، ما يزال يهمس لي للآن حينما ترهقني بشاعة الزمن الجديد وهي تعبث بالأمكنة، والناس، وحتى بالهواء.

في تلك السنة أخذتني البؤساء إلى القراءة مصادفة، وأخذتني القراءة من واجباتي المدرسية؛ فكلما فرغت من رواية أسرعت إلى المكتبة واستعرت أخرى. كانت أمي تمتدحني وهي تراني مستلقيًا في البيت غارقًا بالقراءة، تعتقد أني أعكف على واجباتي المدرسية، بينما يعاقبوني أساتذتي على تقصيري. عصا من الخيزران يرفعها الأستاذ في الهواء، ويأمرني بأن أفتح كف يدي، ويهوي عليها. الضربة الأولى موجعة جدًا، ومع الضربات الأخرى يأخذ الوجع بالتراجع، وأنا أشغل مخيلتي بما قرأت من روايات. أمر تجاوز الهوس لولا عمي عزيز؛ إذ اشتكى له والدي من انعزالي اليومي مع الروايات، وأخبره مدير المدرسة بتراجعي في دروسي؛ فراح بقسوة يخالطها اللين يحاول أن يحدث توازنًا بين ميولي إلى القراءة وبين واجباتي المدرسية.

كنت في تلك الأيام أقرأ (أحدب نوتردام) للمرة العاشرة لأرى (أزميرالدا)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شخصية روائية فتنتني. ترسم مخيلتي صورًا إضافية لها؛ إذ تتداخل صورتها بصورة سيدة القرية. امرأتان تتماهيان ببعضهما بشكل غريب، وضعني أمام حالة عاطفية تجعلني في شرود طويل.

في ذلك العمر رحت أسمع مفردات لها علاقة بالحب، وأرى زملاء المدرسة يرسمون في دفاترهم قلوبًا يخترقها سهم في طرفيه حرفان، واحد للمحبوبة، وآخر للحبيب؛ فوجدتني أقلدهم غير مدرك ما أفعله، إلى أن رآني معلم اللغة العربية أرسم قلوبًا عشوائية في دفاتري؛ فأعارني كتابًا يحكي عن (كيوبيد) رسول الغرام، وإله الحب عند الرومان. حملت الكتاب معي إلى البيت، وكأني أحمل معي دليلي إلى عالم لم أستطع النفاذ إليه. حين أعدت الكتاب إلى المعلم قلت له: كيف لكيوبيد الرقيق هذا أن يكون ابنًا لإله الحرب عند الرومان؟ ضحك المعلم يومها وهو يطمئنني بأن الأيام سوف تجيبني عن سؤالي. مع ذلك جربت أن أرسم قلبًا يخصني؛ كتبت الحرف الأول من اسمي عند طرف السهم، واحترت أي اسم أضعه في الطرف الآخر، وصورتا (أزميرالدا)، وسيدة القرية تتماهيان ببعضهما البعض؛ فتركته فارغًا. كنت أعيش مخيلة أخذتها القراءة إلى اتساع لا أدري كيف احتملته آنذاك. أعطاني عمي عزيز مفتاحًا لعالم تحتاجه مخيلتي القروية الساذجة، الحالمة، والميالة إلى المثالية.

لم أحظ بما حظي به زملائي في زمن المدرسة في تلك السنين البعيدة. كثيرًا ما رأيتهم يجتمعون في خلوة، يتبادلون الأخبار عن حبيباتهم: تلويحة يد من بعيد، كاسيت لحليم مودع بمغلف ورقي خُضب بالعطر، لمسة يد سرية سريعة، كلمة خاطفة من وراء السور، وأخيرًا الإغفاءة على إيقاع شعور جارف بالحنين. في فراش النوم أستسلم للإغفاءة ناقصًا طيف فتاة ترافقني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هناك إلى سرير السكينة سوى سيدة القرية، و(أزميرالدا). يبدو أنني ضقت ذرعًا بالخيال؛ إذ رحت أستعيد وجوه كل حبيبات رفاقي، مشيتهن، طريقتهن في الكلام، دفتر الشوق وهو يشرع صفحاته في أعينهن، ثم أغفو وحيدًا، إلا من أمنية بفتاة تأخذني بين ذراعيها، وتنصت لموسيقى داخلية ما زالت ترشقني بأنينها.

سمعت أحدهم ذات يوم والنافذة تجيء لي بأصواتهم وهم يسردون حكاياتهم تلك خلف بناية المدرسة، يقترح اسمي لكتابة رسائلهم الغرامية، منطلقًا من تفوقي في درس الإنشاء، ولم أمانع؛ فرحت أنكب على الكتابة، وعلى كل سطر من ذلك الورق تتعربش فتاة أتت من كوكب الخيال. كنت في الليلة الواحدة أكتب أكثر من رسالة، وكل واحدة لها مزاجها الخاص. في طريق العودة من المدرسة، وحيث يسلك العشاق دربًا بعيدة عن عيون الناس؛ فيلتقون، أبطئ من خطواتي، أفتش عمن كتبت لها. بعد زمن أخذتنا دروب الحياة، كل إلى جهة، وما عادت القرية قرية، وما عاد الحب طائرًا يمسح شواطئ القلب بالمسرات. في عام ٢٠١٥ كنت أنتقي كتبًا من رفوف مكتبة في مدينتي، ثمة امرأة ألقت عليّ التحية، وقالت: بصوت هامس: (قرأت روايتك، وسعدت بها كثيرًا. لقد ذكرتني برسائلك لي. كنتَ تكتب الرسائل لصديقك في ذلك الزمن، فيشيعها لي مع أخته، ولا أرد. لأنني كنت أعلم أنها لكَ). صمتت لبرهة ثم أضافت: (انتظرت أن تسلمني رسائلك بيدك. لكن العمر مضى، ولم تأتِ).

حمل كل منا، ما انتقاه من كتب، ودفعنا ثمنها وغادرنا، كل يغذ خطاه بتمهل، نراقب ذلك المشهد القديم من بعيد، بينما أطلقت الشمس آخر شهقاتها، فاشتعلت مصابيح الشوارع، وموسيقاي الداخلية تستشيط قادمة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من تجاويفي المعتمة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

حين أبلغوني في عملي عن السفر إلى بريطانيا؛ رحبت كثيرًا بتلك الرحلة، هربًا من ثقل الغمامة الرمادية. في تلك السنة تراجعت رغبتي بالقراءة والكتابة والاستماع إلى الموسيقى، وخُيل لي أنها قررت تركي وحيدًا في مواجهة عالم شارفتُ فيه على الخمسين، من غير أن أفهم ما يعنيني منه، وقبالة خواء سيؤدي بي إلى الجنون لو أني توقفت عن الكتابة.

لا أدري ما حدث لي! تغيرت على نحو لا أفهم له سببًا. ما عدت ذلك الولد الذي يقف إلى النافذة يراقب كيف تهيل السماء حصتنا من المطر، وكيف تشهق الأشجار قبالة الماء بكل تلك الضراوة الشعرية. صار الشتاء مثل آلة فيولين على كتف عازف كئيب، في حفلة تأبين رجل عادي عثروا عليه ميتًا على قارعة الطريق. تغيرتُ، ومضت أشياء كثيرة إلى زاوية معتمة في الذاكرة. ما عدت أحب كتبًا أغرمت بها لزمن، فكلما فتحت واحدة من صفحاتها رأيت بيتًا تطرق الريح أبوابه بقسوة، كأنها ليست من حمتني طويلاً من السقوط. ما عاد لموسيقى طالما فتنتني أن تفعل بي شيئًا، سوى أن تثير شكلاً جديدًا من أشكال الضجر. ما عدت ذلك الذي لو رف قميص امرأة على حبل غسيل رف قلبه معه. صرت أميل للنساء الحزينات اللواتي يفضلن الصمت والكلمات المقتضبة. كل شيء تغير: الألوان، الأصوات، الملامح، الروائح، الرغبات، الحزن، الفرح. كأن جرمًا سماويًا هوى على روحي وشقها لنصفين متباعدين. كل شيء تغير إلا الكتابة التي أكابد معها ألمًا يصعب عليّ وصفه، وأنا أبدد بالحبر سكينة البياض في الصفحة. لهذا أجد أن أكثر الأسئلة إرباكًا هو ذلك الذي يفتش عن أسبابها. وغالبًا ما تعادل الإجابة الصريحة أن أخلع ملابسي في الشارع، وأمشي عاريًا؛ فيكتشف الناس ندوب جسدي،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وعيوبه. وكانت أكثر إجاباتي افتعالاً هي قَولي إني أكتب لأرمم جبين العالم مما ألمَّ به من ثقوب جراء حفل سوريالي للبنادق دبر بليل ما يزال مستمرًا.

أنا أكتب لأنني خائف؛ خائف من كل عواصف الفوضى. وما يستحسنه القراء عندي هو مجرد احتماء بالكلمة. اعتقدت أني بالقراءة تخلصت من مشهد (يوم القيامة) وقد تلقفته مخيلة الطفولة برعب كبير، لكني وجدته ما يزال هناك في تلافيف ذاكرتي، يعاون المشهد الأكبر فيما يحيق بالعالم من فعل فوضوي. إن جلست وراء طاولتي لأكتب لا يمكنني فعل ذلك من دون أن أعيد على سبيل المثال كتابًا إلى مكانه لو رأيته في غير ما وضعته عليه من قبل. كل شيء يجب أن يعود إلى مرقده: الأقلام، المنفضة، علبة السجائر، حتى كأس الماء عليه أن يكون في موقعه.

قال لي أحد زملاء العمل: (رأيتك أكثر من مرة تمسك بالمكنسة، وتنظف البهو الخلفي لمقر العمل. لماذا تفعل ذلك رغم أن هناك من عليه أن يقوم بهذه المهمة). كان كأسئلة الحياة الكبرى، دفعني إلى الجلوس على عتبة الباب ممسكًا بعصا المكنسة، أقلب دفتر الفراغ، وأتساءل عما أفعله. قلت محتارًا: (صدقني لا أعرف، لكني أشعر بارتياح كبير إزاء ذلك الأمر). لا أدري ما الذي منعني من أن أقول له إنه رفض للفوضى، فعل يوازي فعل الكتابة التي لولاها لتملكني رعبُ من يخشى أن تباغته يدٌ، وتدفعه إلى الهاوية.

سحبت حقيبتي ومضيت، أتلفت حولي. لم أجد في مطار هيثرو عناقًا حارًا، ولا دموعًا تسح على وجوه تثير بي رغبة عارمة بالبكاء مثل ما في مطاراتنا العربية؛ كل ما رأيته قليلٌ من العناق البارد، والمصافحات الخفيفة، واستقبال عادي يخلو من عواطف ما تزال تعشش في قلب واحد مثلي في روحه تمتد على رسلها سماء القرية، وينتصب بيت الشعر. قلت هامسًا: «إذن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنت في بلاد (شكسبير)، و (ديكنز)، و(بايرون)، وفي بلاد (جون باغوت غلوب)، و(بول بريمر) أيضًا». تحسست جيبي فاطمأننت على أن علبة سجائري والولاعة في مكانهما، وأنا في بلاد تحارب التدخين والمدخنين، وما كان ينقص إلا أن توضع يافطة أعلى البوابات تقول: (أدخل إلى حيث قتلنا كل وحوش القلق).

عبرت بوابة المطار أتدارك التباسًا معنويّاً داهمني بمغادرة المنطقة الوسطى بين عَمان وتفاصيلها وهي تتشبث بكتفي، وبين بريطانيا، بلاد لم ألج عالمها للآن. جلست عند البوابة على مقعد رخامي في فسحة مخصصة للمدخنين، وأشعلت سيجارة ثم رحت أنفث دخانها بتلذذ بلا اكتراث بدوار أصابني لانقطاعي عن السيجارة لأكثر من ثماني ساعات. لم أرَ وأنا أحاول استكشاف (لندن) من بين بنايات المطار سوى غيوم داكنة، ورؤوس بعض الأشجار؛ كأن حدود المطارات لا تسمح لك بدخول عوالم مدنها بسهولة، خوفًا من أن تبدل قرارك وتعود من حيث أتيت. بدا الطقس مائلاً نحو عوالم الشتاء رغم أننا في الأسبوع الثاني من أغسطس. انتبهت إلى أنني ما أزال ممسكًا برواية (موسم الهجرة إلى الشمال) للطيب صالح. تأملت افتتاحيتها:

(عدت إلى أهلي يا سادتي بعد غيبة طويلة، سبعة أعوام على وجه التحديد، كنت خلالها أتعلم في أوروبا. تعلمت الكثير، وغاب عني الكثير، لكن تلك قصة أخرى. المهم أني عدت وبي شوق إلى أهلي في تلك القرية الصغيرة عند منحنى النيل).

أفكر بماذا تعلم السارد. ربما مفاجآت الطرق بعد منتصف الليل أثناء عودته من حانات (لندن). أو النساء الشقراوات اللواتي يملن إلى دفء الرجل الشرقي مقابل بلاد باردة في المشاعر. ربما أنها حكمة (التايمز) وهو يوزع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الاخضرار كجد موغل بالبشاشة. إنها افتتاحية روائية مذهلة رغم إيحائها بالبساطة، أخذتني بهوادة إلى أرض هذه الرواية، وكشفت لي شيئًا فشيئًا عن أسرارها. ماذا لو لم يقل الطيب صالح في هذه الافتتاحية (لكن تلك قصة أخرى) و (المهم أني عدتُ)؟ كان يمكن للملل أن يجعلني أودع الرواية خانة كتب لم أستطع قراءتها.

أتذكر كيف بدأ ماركيز روايته بافتتاحية ما زلت مفتونًا بها إلى الآن: (بعد سنواتٍ عدة، وأمام مشهد الإعدام رميًا بالرصاص، يتذكر العقيد (أوريليانو بوينديا)، ابن (خوسيه أركاديو)، بعد ظهر ذلك اليوم البعيد عندما اصطحبه والده لاكتشاف الثلج).

وجَبَ عليَّ في ذلك اليوم أن أنطلق مع ثلاثة من زملائي في العمل إلى (Kington) بلدة تبعد ثلاثة كيلو مترات عن حدود (Wales) لنتلقى لأيام دورة تدريبية في منطقة تدعى (Radnor)، ثم أمضي أيامًا أخرى حرًا من أي التزام. جاء زميلي الذي عاش لخمس سنوات في تلك البلاد يستعجلني: (أنا متأكد من أن ويلز ولندن ستبهرانك كثيرًا أيها الكاتب، لكن علينا أن نغادر؛ السائق بانتظارنا). لم أقل شيئًا في تلك اللحظة؛ فلم أكن متأكدًا من أن مدينة كبرى مثل (لندن) ستبهرني، أو أن خطواتي ستكون خفيفة وأنا أتجول في شوارع أعرف أسماءها من الكتب والسينما. أخاف المدن الكبيرة، وأطمئن للصغيرة منها، أشعر أن شيئًا ما سيبتلعني منذ ولوجي أول مداخلها.

انطلقت الحافلة عند السادسة مساء متجهة إلى الشمال الغربي من (لندن)، حيث تقع (كنغتون). كان علينا أن ننفق خمس ساعات من المسير نحو جهة أجهلها. في وقت لم تمِل الشمس فيه إلى الغروب بعد؛ إذ يفصلنا عن بداية الليل ثلاث ساعات، فالشمس هناك تغيب عند التاسعة مساء. رأيت الأشجار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والحشائش تحرس أطراف الشارع، ومن ورائها حقول خضراء، تنتشر فيها أغنام وأبقار، وتحلّق في سمائها الداكنة طيور شتى. نعم سماء داكنة، وممطرة بما يزيد على حاجة الطبيعة المغرقة بالاخضرار. داهمني شيء من الكآبة من وراء ذلك الطقس المربك، أو ربما حدث ذلك حينما رأيت الشارع يتخلى عن استقامته ويصبح لولبيًا، وقد ارتفعت الأشجار والحشائش، وما عاد بإمكاني رؤية ما وراءها. قلت ربما يحدث ذلك لحيرة الفصل هذه، إنها المنطقة الوسطى بين الصيف والشتاء. أو ربما هو خلل مناخي بات يعصف بالأرض جراء ما فعلته أيادٍ هشمت وجه طبقة (الأوزون). هل امتدت الحيرة أيضًا إلى الفصول؟ أم أن حيرة الفصول هذه انعكاس لحيرتنا في قرننا الجديد؟؛ قرن افتتح بحروب، وقطع رؤوس، وسقوط دول، ونشوء ثقافات جديدة، وانهيار ثقافات راسخة، وصعود أصوات متطرفة، وهبوط أصوات معتدلة. أشعلت مصباحًا جانبيًا في السيارة، ورحت أقرأ في (موسم الهجرة إلى الشمال):

(دفن مصطفى قامته في المقعد، ومدد رجليه. وأمسك الكأس بكلتا يديه، وسرحت عيناه، كما خيل لي، في آفاق بعيدة، ثم فجأة سمعته يتلو شعرًا إنكليزيًا، بصوت واضح ونطق سليم. قرأ قصيدة وجدتها فيما بعد بين قصائد عن الحرب العالمية الأولى:

هؤلاء نساء فلاندرز

ينتظرن الضائعين

ينتظرن الضائعين الذين أبدًا لن يغادروا الميناء)

هذه بوابة أولى نحو رجل يعيش الحزنُ في روحه، يدعى مصطفى سعيد.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مثقف توارى وراء شخصية مزارع، وراح يحاول نسيان ماض تملأه النساء والشعر، والطريقة الغريبة في الثأر. سافر من بلاد حارة إلى بلاد «تموت الحيتان فيها من البرد». له بشرة سوداء في أرض البيض. قلبه جنوبي مكلوم، ويعيش في الشمال الغازي.

أوغل في القراءة، وأفكر: من هو مصطفى سعيد؟ هل هو الطيب صالح؟ أفكر بأسرارنا، وبما يواريها. نحن بارعون في ارتداء الأقنعة. قناعي صنيعة تخدش وجهي الحقيقي. وكلما فكرت بأن أخلعه، وألقيه بعيدًا، تجرحني ألف عين مصوبة إليّ؛ فأرتد إلى مكيدتي.

غط بعض زملائي بالنوم، وبقي بعضهم مثلي ينظرون خارج الحافلة إلى مشهد واحد لا تكسر رتابته سوى بيوت، تبدو كمشهد سريع على شاشة سينما، ببنائها ذي الطابع الإنجليزي، سقف قرميدي مائل تفاديًا لثقل الثلوج، وإلحاح الشتاء في استمرار الهطل، وأبواب ونوافذ خشبية مغلقة تظللها الستائر دائمًا، ولا يأتي مما هو مكشوف منها سوى أضواء شحيحة باهتة ذكرتني بأضواء قريتي قبل أن يعمر ليلها بالكهرباء في عام ١٩٨٣؛ إذ صار لليلها إيقاع آخر، وتراجع شيء من ظلمته، لكن تلاشت تلك السكينة التي تدب في الأمكنة والشمس تسقط وراء الجبال. باتت معظم البيوت تقتني أجهزة التلفاز، وصار لدى عدد من أبناء القرية سيارات تبدد الهدوء بضجيجها. كبرت القرية قليلاً، وجاء إليها أناس جدد، وسكنوها، فاستجدت مفاهيم، وتبدلت رؤى. انضم إلى المدرسة طلبة لا نعرفهم من قبل، لهم طريقة مختلفة باللباس، ولهجات جديدة، واهتمامات مختلفة. أكثرهم تأثيرًا ابن القاضي الذي انضم إلى فصلنا الدراسي وأنا في الصف الثاني إعدادي. شاب أنيق يلفت انتباه كثير من طالبات المدرسة في عودتنا، وفي طريقنا إليها. لهذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أخذت أجرب كل الوسائل مع أبي، حتى حظيتُ بملابس وحذاء جديدين لأول مرة في حياتي. كانت ملابسي مستعملة من متجر (بالة) لم نقو على دخول غيره آنذاك. لم يكن ذلك التحول الكبير في إلحاحي، إلا بسبب انضمام ذلك العنصر الجديد لفصل جلّ طلابه من أهل قريتي الفقراء؛ إذ تُخاط فيها البناطيل لمرات إلى أن تهترئ. ويمشي بعض من أولادها حفاة تتكسر رؤوس أشواك (المرار) الحولية على صلابة أقدامهم. لكن عادل بملابسه الجديدة، وعطره الجميل، وتسريحة شعره المسيرة بفعل زيت الشعر، ونظرات الفتيات له، خلق حالة نزوع نحو مرحلة جديدة في ذلك الوقت. مرحلة لم ينجح بالنزوع نحوها، إلاي، وأنا أصل الليل بالنهار ملحًا وباكيًا من أجل ملابس من (النوفيتيه) وفي البال مشاهد متتابعة للفتيات وهن يراقبنني بهيئتي الجديدة، أمشي جنبًا إلى جنب مع عادل.

ما إن حل الليل حتى وضعت الملابس قرب رأسي، وأغمضت عيني أحاول نومًا تمنع عني بشدة. بقيت أستجدي شمس الصباح أن تأتي ليذوب الليل؛ فأنطلق. إلى أن نمت. في الصباح نهضت من فراشي بعجالة، ورشقت وجهي بحفنة ماء من فم (الحنفية)، وارتديت ملابسي الجديدة؛ قميصًا كرنفالياً موشى بخطوط من مختلف الألوان. بنطالاً أحمر استعضت عن الحزام فيه بخيط كتاني. حذاء بلاستيكياً لا يشبه الأحذية إلا في شكله. سرحت شعري مستعينًا بسمن الطبخ، بديلاً عن زيت الشعر وحملت حقيبتي وانطلقت فرحًا. في طريقي نحو المدرسة أسرعت خطاي لألتحق بعادل. ما إن رآني حتى امتدح ملابسي بسخرية لا يفهمها أهل القرى. لكن ثمة فرح رشق قلبي فجأة والفتيات يصوبن النظرات نحوي، وأنا أمشي بقرب عادل وقد توقف فجأة، وراح يشرح مزايا (بوط صيني) يرتديه، إذ أقسم إنه يجعل صاحبه يطير بعد عدة قفزات قصيرة. دخلنا إلى غرفة الصف وأنا أنصت باهتمام لحديث عادل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حول الحذاء.

في تلك الأيام انعزلت أفكر بالحذاء وبالطيران. وأتخيل نفسي أقفز ثم أطير في السماء، بينما الفتيات يراقبنني ممتدحات ما أقوم به. لاحظت آنذاك أمي شحوبًا يتلبس وجهي، ووهنًا يدب بي. قرأت عليّ كثيرًا من آيات القرآن، والمعوذات، وبخرتني، ثم أخبرت أبي؛ فأمضى بعضًا من وقته لمعرفة السبب، لكنه صمت عاجزًا عن فهم ما يجري. ذات ليلة أيقظتني أمي من النوم وأنا أحاول القفز في فراشي مرددًا عبارات تشير إلى حلمي بالطيران. ناولتني كوب ماء بعد أن شربته، نطقتُ مذهولاً: (اشترولي البوط الصيني بدي أطير). بعد أن أدرك والدي فحوى الحكاية، تدبر أمره واشترى لي الحذاء، فرحت أمضي وقتًا محاولاً الطيران، كما صوّره لي عادل. لكن بلا جدوى إلى أن تمزق الحذاء، وتهشمت ركبتاي.

أنهيت الإعدادية في حنينا عام ١٩٨٤ وانتقلت إلى مادبا من أجل التعليم الثانوي. المسافة بين حنينا ومادبا ليست بعيدة، لكن عالم مادبا التي كانت للتو تتلمس طريقها لتصير مدينة على نحو أكثر من ذي قبل، عالم مختلف، منحني لحظة التبدل الثانية بعد القراءة. ما إن مضى الشهر الأول للمدرسة حتى بت أفكر بتغيير طريقتي في اللباس؛ بنطال ذو كسرات، ينتفخ من عند الفخذين، ويضيق من الأسفل. قَصة ذيل الحصان للشعر. الانتقال من ذوقي في الموسيقى من الأغنيات ذات المزاج البدوي إلى أغنيات جورج مايكل، وبراين آدمز، وفرقة (Modern talking). التباطؤ في المشي في شارع تقع فيه مدرسة البنات، رغم أن ليس في الذاكرة سوى سيدة القرية، و(أزميرالادا). طرأ تبدل على يومياتي، باتت أكثر حميمية، فيها نزوع إلى عاطفة مفتقدة يؤججها صوت حليم، اختيار متوازن بين ذوق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيلي الموسيقي في المدينة، وذوق القرية. لاحظ عمي عزيز أني أنجرف بسرعة نحو عالم لا أفهمه. احتار على ما يبدو بين أن يتركني على رسلي أعيش المرحلة، وبين ما يدفعني إليه من مستقبل يخشى ضياعه جراء ذلك الانجراف. نبهني لأكثر من مرة بطريقة حاول فيها أن يحقق لي توازنًا منطقيًا.

بعد عام لاحظت أن زملائي ليسوا بذلك التجانس الذي أتوهمه، هناك من يحمل أفكارًا يسارية، وفئة متدينة يطلق أصحابها لحاهم ويتحدثون كثيرًا عن الحرام، وفئة يميلون للحديث عن القومية العربية. كنا صغارًا على انتماءات لم أعرف كيف تشكلت في تلك المرحلة، رغم أن الأردن كان أيامها ما يزال تحت الأحكام العرفية التي ألغيت عام ١٩٨٩، ولم أعِ وقتها أن تلك الانتماءات تشمل أساتذة المدرسة أيضًا. كلما قرأت كتابًا أحكي لعمي عزيز عنه، رغم أني أكتشف فيما بعد أنه قرأه. وكلما واجهت أمرًا غير مفهوم في المدرسة أسأله. أخبرته عن انتماءات زملائي الطلبة؛ فطلب مني أن أتبعه إلى غرفة نومه. فتح درجًا وأخرج منه ورقة، وقال لي اقرأها وسأعود إليك بعد قليل. أطلعني على بيان سياسي يتطرق إلى شؤون وطنية، أصدره الحزب الشيوعي الأردني. بعد ربع ساعة عاد ولم نتحدث في أمر ما قرأت. بقيت صامتًا أشعر أني تقدمت إلى مساحة جديدة عليّ أن أفهم أبعادها. أما هو فقد لاذ بصمته، يدخن وهو شارد بأمر ما. بقي ذلك البيان يثير بي رومنسية سياسية انعكست على كتابة يومياتي. لم يحدث أن خاض عمي عزيز أمامي بأي حديث في شؤون حزبه، رغم أنه لمس بي توقًا إلى ذلك. كان يحدثني في مواضيع فكرية، وتاريخية، وثقافية. وحين وجدت عائقًا بيني وبين ما أريده آنذاك لجأت إلى المكتبة العامة، أقرأ ما هو متوفر في حقبة منعت فيها الكثير من الكتب التي تتحدث عن الاشتراكية. لكني لم أنل ما أريد. في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السادس عشر من ديسمبر عام ١٩٨٩ اندلعت الثورة في (رومانيا) وأعدم على إثرها (نيكولاي تشاوسيسكو). وفي عام ١٩٩٠ دعا (غورباتشوف) إلى (البريسترويكا)، وبعد عام من ذلك تفكك الاتحاد السوفييتي. صار عمي عزيز أكثر حزنًا من ذي قبل، وبات متشائمًا مما سوف يؤول إليه العالم في السنين القادمة. أخذ الأدب حصته الكبرى من أحاديثنا، من دون التطرق إلى السياسة التي بت أشعر بنفوره منها. لكني بقيت مرتهنًا لأثر ذلك البيان الذي قرأته قبل سنوات، ولأثر الهزة التي أصابت اليسار العالمي. ذات يوم كنت أتجول في وسط البلد في عمان، دخلت مكتبة تبيع الكتب المستعملة، وإذا بي أجد المئات من الكتب التي كانت ممنوعة قبل عام ١٩٨٩. كتب حول (ماركس)، و(إنجلز)، والثورة البلشفية، والاتحاد السوفييتي. استغنى عنها أصحابها، وتباع بثمن زهيد. بل اكتشفت أن عشرات المكتبات تبيع مثل تلك الكتب. في ذلك اليوم اشتريت العديد منها، وغرقت بقراءتها لأشهر. كنت منصاعًا لذلك الشعور بزهو سياسي، ترافقه حيرة في الانتماء. لكني حين استغرقت أكثر في الأدب، اتضحت الصورة. لا يمكن أن أكون إلا حرًا. يبدو أن عمي عزيز تراجع في لحظة شعر فيها أنه يدفع شابًا في روحه بذرة الكتابة نحو عالم تحيطه حدود لا تتفق مع الأدب، إني أجزم بذلك، رغم أنه لم يصرح به.

بعد مرور عام من الدراسة في مادبا تبدلت شخصيتي، غرقت في كتبي المدرسية، وفي قراءة الروايات، وكتب الفلسفة، والسياسة. تبدلت طريقتي في اللباس، ولم أعد معنياً بالموضة. وفي الموسيقى صرت أميل إلى الكلاسيكيات الغربية، بعد أن عرفني عمي عزيز على (شوبان) و(تشايكوفسكي). صارت لي طريقة مختلفة في العيش، وطريقًا مغايرًا حتى في العودة من المدرسة. اتضح حلمي بدراسة الطب خارج الوطن، سعيًا للسفر، وتوقًا إلى أماكن جديدة، وأناس جدد. كان والدي في تلك الأيام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يتهيأ للإحالة على التقاعد، ويرى بي ضابطًا. خشي تعلقي بالسفر؛ لهذا ما توقف طوال السنين الأخيرة في المدرسة عن تزيين الطريق إلى ما أراده لي. انحازت أمي إلى ما أريد، رغم تشوش العلاقة بينها وبين أبي جراء ذلك. يوم نتائج الثانوية العامة وجدت فرحة أبي من ذلك النوع الصامت ذي الصخب الداخلي، وكانت بهجة أمي معلنة؛ فلأول مرة أسمع زغرودتها وقد بدت كترويدة ترد الجبال صداها فتزداد عذوبة. مضت أيام على بهجة عائلتي بي، ولم ينجح أبي بأن أكون ضابطًا يرى النجوم تتلألأ على كتفيّ، ولم أنجح بأن أكون طبيبًا. حين ذهبت إلى مقابلة أولية لتفضي إلى قبولي في الجامعة العسكرية لم أبدِ كثيرًا من الاهتمام؛ فلم أقبل. رحت أحاول من جديد أن أسافر من أجل الدراسة، أمر رفضه والدي بشدة. مضت عليّ شهور كان الضيق فيها يجتاحني بضراوة. وبت حبيس جدران البيت، أستسلم لشعور مرير بالفشل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

في الطريق إلى (كنغتنون) أخذ ما في السماء من نصف ضياء النهار يتراجع، معلنًا عن قدوم ليل لا أعرف عوالمه في هذه البلاد. لكل بلاد ليلها؛ فليل بيروت يرعاه البحر، وضجيج المقاهي، والشعر، ورائحة الكتب المنبعثة من المكتبات ودور النشر. وليل عمان تدبُّ شؤونه الخطوات في شوارعها المتعرجة، وحكايات الشرفات، ليل يدبر شؤونه أيضًا الحزانى العائدون من الحانات يغنون للحب وللوطن. الحب زهرة تمتد إليها أيادينا، رغم أننا نعلم أن نحلة ستجيئ، وتوجه لنا لدغة في سويداء القلب.

تراجع الاخضرار والحافلة تختطفنا إلى (كنغتون). صار لون الأشجار رماديًا من لون ما يسبق الليل من لحظات ملتبسة؛ فدبت بي وحشة تحالفت مع ما جاء من ذلك الطراز الجديد من الكآبة، وأنا أنظر إلى شارع ذكرني مشهد الحافلة فيه وهي تتلوى عليه بأفلام الرعب في السينما الإنجليزية. أول فيلم إنجليزي شاهدته كان في العام ١٩٨٢، في إحدى ليالي الشتاء القروية. لا أنسى مشهد ذلك البيت القصي في غابة موحشة، يسكنه رجل غريب الطباع لا يزوره أحد. يصيبني ذلك النوع من الأفلام بنعاس مرتبط بشكل غريب من الخوف.

Telegram:@mbooks90

رأيت بعض السيارات تمر مسرعة كما لو أنها هاربة من (لندن)، بينما الحافلة تيمم وجهتنا بسرعة متوسطة. أتأمل وجوه بعض سائقي السيارات؛ فشعرت للوهلة الأولى بأنها باردة، غير مبتسمة، وغير فضولية، ينظر أصحابها إلى الأمام كأنهم روبوتات يسيرون إلى حتف ما. نفضت رأسي محاولاً التخلص من تلك الأفكار، وقلت للسائق بشيء من العتب: (ألا تستمعون إلى الموسيقى وأنتم تقودون على هذه الطرق الطويلة؟). كنت سأقول له:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والمملة أيضًا، لكني لم أكن متيقنًا من حكمي عليها. راح السائق، وقد علمت فيما بعد بأنه بلغاري يعمل في شركة للنقل، يفتش جهاز الراديو عن محطة موسيقية لكنه بدا لي معطلاً وهو يحاول بلا فائدة؛ فلم أكرر طلبي؛ إذ ارتديت سماعات الأذن أستمع لمقطوعات لـ(شوبان) احتفظت بكثير منها على هاتفي النقال. تأخذنا الموسيقى في درب جديدة إلى خساراتنا؛ فنتقبلها. خسرت دربًا كان يمكن أن تؤدي إلى حلمي بالطب، والبلدان البعيدة. كان الأمر أشبه بمن سعى إلى نهر ليشرب لكنه وجد نفسه يسلك طريقًا خاطئًا. في تلك الأيام كنت مكبلاً في منطقة فارغة بين ما أراده أبي وبين ما أردته؛ فصار ليلي نهارًا، ونهاري ليلاً، لا أفعل شيئًا سوى ذلك الالتصاق الغريب بدفتر يومياتي؛ أكتب وأنا أسمع صوتي يتردد في دواخلي حاداً وصارخًا ومحتجًا. صارت كتابة يومياتي مهربًا آمنًا مثل ما ابتكر في الطرق المنحدرة من مهارب يلجأ إليها من يفقد السيطرة على سيارته. كدت أهوي إلى القاع لولا الكتابة. في انتمائي الفطري لها، لم أكن أخطط أن أصبح كاتبًا، ولم أنتظر طرقًا تأخذني إلى ما أنا فيه الآن؛ كل ما كان يعنيني هو ذلك الشعور المفعم بالراحة بعد الانتهاء من قول ما أريد؛ إذ رأيت الصفحة بمثابة يد تقتلع أشواكًا من دواخلي فتعفيني مؤقتًا من الألم. الأمر بالفعل يغدو كراحة مؤقتة من وجع يوفرها العقار المسكن. لكني اكتشفت مع الأيام أن منحدرات وحفرًا كثيرة كان يمكن أن تبتلعني.

قرأت في الصحيفة إعلانًا عن كلية عسكرية تفتح أبوابها لتخصصات في هندسة الطيران الحربي، تخصص لا علاقة لأحلامي به سوى ما رأيتني عليه في مناماتي وأنا أحلق من غير جناحين. لقد قادني القدر إلى الهندسة. أرادني والدي عسكريًا، وجرّني القدر إلى رغبته. ولا أدري ما الذي دفعني إلى خيار مثل هذا، يبدو أنني أردت اختيار جهة من تلقاء نفسي، حتى لو لم تكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مما حلمت به. جاءت الموافقة بعد المقابلة الأولى، ولم أعلم أني سأصبح عسكريًا لثمانية عشر عامًا. كنت أعتقد أني سأنهي دراستي وأغادر، ولم أنتبه إلى شرط الالتزام. بعد أسبوع حلقوا شعري الكث بأكمله، وأعطوني ملابس عسكرية، ونقلوني مع عدد كبير من الطلبة في حافلات إلى مطار عسكري في الشمال الأردني. كنت بين وجوه لأناس لا أعرف منهم أحدًا. لا أعي أني مقبل على ما سيقلب حياتي رأسًا على عقب، ويزج بي إلى عالم الكتابة.

وصلنا قبيل الظهيرة. كان ذلك في شتاء عام ١٩٨٩، طقس ريحه باردة، موجعة، موحشة، تمر بين بنايات طليت باللون الصحراوي، لها صفير يبعث على الرغبة بالبكاء. امتثلنا إلى أوامر عسكرية لم أكن أعرف عنها إلا ما توحي به ملابس والدي، وسيارة (لاندروفر) كان يعود بها أحيانًا إلى القرية. قسمونا إلى فصائل، ومن ثم قادونا إلى ثكنات ستصبح فيما بعد مأوانا لأشهر. كل واحد منا له سرير، وصندوق معدني لحاجياته. الأسرة بطابقين. سريري في الأعلى، وبين كل سرير وآخر مسافة قصيرة لا يمكن عبرها حتى أن تداري نفسك. بعد أن فرغنا من ترتيب أسرتنا وارتداء ملابسنا، أمرونا أن نخرج إلى الميدان، مساحة إسفلتية واسعة بقينا نركض حولها لساعة إلى أن سقط عدد من الجنود مغشى عليهم؛ فعدنا إلى الثكنات، وحملنا ملاعقنا وأطباقنا وذهبنا إلى (الميس) قاعة كبيرة لتناول الطعام. نظام صارم في التوقيت، وفي الاصطفاف للحصول على الوجبة، وللحديث، وللجلوس. قبيل غروب الشمس عدنا نركض حول الميدان، إلى أن حان وقت العشاء. لم تتجاوز الساعة الثامنة مساء حتى غط معظم الجنود بالنوم إلاي، أفكر بمكان لا أدري كيف جئت إليه، ومن هؤلاء الذين أقاسمهم ليلاً موحشًا، وماذا ينتظرنا غدًا.

عند الثالثة والنصف صباحًا، استفقنا على صوت قرع على الأبواب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والأسرة، وعلى أوامر بارتداء الملابس سريعًا، والخروج إلى الميدان للركض حتى موعد الإفطار المبكر. على طاولة الطعام جلس قبالتي شاب له لون بشرتي. ضحك وهو يضرب بيضة مسلوقة بجبينه: يبدو أنك غير مصدق أنك الآن جندي. قال ذلك ثم راح يلتهم طعامه. إنه من ينام في الطابق السفلي من السرير، وفيما بعد سيصبح صديقًا مقربًا اسمه محمد عوض. يبدو أني حقًا لم أكن مستوعبًا لما يحدث. تختلط في مخيلتي صور بنيت مع الأيام لـ (رومانيا)، وللجامعة، بالمشاهد اليومية الجديدة لجندي لا يعرف كيف عُبدت الطريق إلى مصيره هذا.

ابتداء من ذلك النهار انخرطنا في تدريبات عسكرية شاقة منذ ما قبل طلوع الشمس حتى مغيبها؛ تدريبات رغم ما تخلفه عليّ من تعب جسدي شديد، وتبدلات مرهقة على ساعتي البيولوجية، وصدمتي بأمكنة وطقوس جديدتين، إلا أنها خلصتني من مشاعر سلبية عادة ما تجثم على روحي كوحش يخرج فجأة من عباءة الظلمة، وتحيلني إلى كائن صامت لا يتقن شيئًا سوى السهو بوجوه الناس.

مع حلول المساء يهزمنا النعاس؛ فأكابده إلى أن أدون يوميتي. كان الليل يمضي بسرعة خاطفة بلا كوابيس، ولا أحلام، ولا قلق. وينتهي على صوت المدربين وهم يقرعون الأسرة بالعصي، آمرين الجنود بالصحو السريع.

بعد مضي أسبوع أخذني الشوق إلى عائلتي؛ فرحت أكتب لهم رسالة وأنا أجلس في الجهة الخلفية للثكنة، حيث شمس الصحراء توزع دفئها بسخاء كبير. رآني أحد زملائي منكبًا على الورقة أكتب بتروٍ واضح. أخذ يقترب مني مفضوحًا بفضوله إلى أن أخبرته عما أفعل. رأيته ينظر إلى ما كتبت؛ فأعطيته الورقة. أعادها إليّ مبتسمًا: إنك تكتب بلغة تُحدث أثرًا غريبًا. استعار ورقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مني، وجلس بقربي، وأشعل سيجارة، وراح يكتب، بهدوء، وبخط جميل. إنه عليّ شنينات الذي سيصبح فيما بعد صديقًا يؤلف بيننا الشعر والكتابة.

بعد مضي أسبوعين صار لي أصدقاء جدد، بالإضافة إلى علي ومحمد، صداقة جعلتنا نتقبل المشقة، وصار الوقت أكثر خفة من ذي قبل، لكن الاشتياق إلى عائلتي كان يحيلني إلى تساؤلات عديدة أكثرها وجعًا: ماذا أفعل في صحراء جرداء مثل هذه؟

في تلك الأيام زارني والدي. قالوا لي إنه ينتظرني عند باب للمطار يبعد مسافة كيلو متر وأزيد، قطعتها ركضًا وأنا أفكر بما كان في خاطره حين دفعني لأصير ضابطًا، وبما خشيه من ولعي بالسفر. لأول مرة حاولت أن أتقمص روحه. لم يكن الأمر سعيًا لإيجاد عذر له، إنما لأنفض غبارًا طفيفًا تراكم على صورته في دواخلي. وجدته يجلس في غرفة معظم جدرانها من الزجاج أعدت لاستقبال الزوار، ورياح ذلك النهار شرقية تحمل معها الغبار، والأتربة، وتؤدي إلى مزاج معكر، يعقد يديه على صدره وينظر في الأفق. ما إن رآني ازددت سمرة ونحولاً، وأنا ارتدي ملابس عسكرية يعتريها خلل في مقاساتها، حتى اغرورقت عيناه بالدموع. أشرع ذراعيه واحتضنني، ثم راح يربت على كتفي، ويشد من أزري. لم يمكث سوى ربع ساعة، بعد انتهائها دس في جيبي خمسة دنانير، ثم مضى في طريقه يمشي بتمهل، إلى أن ما عدت أراه.

بعد شهر عدت إلى البيت. ما زلت أتذكر آخر أيام ديسمبر من عام ١٩٨٩. يوم طقسه بارد جدًا، والريح فيه تعبث بكل شيء. لم يُبد أبي اهتمامًا تفرضه عاطفة الأبوة عادة، بل تقمص دور أب جاف يريد لابنه أن يعيش تجارب تأخذه إلى حيث ينظر الرجال الجسورون نحو العالم. لكن أمي لم تستطع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كعادة الأمهات أن تكون على ذلك المنوال، بل راحت تعد باهتمام أمومي كبير ما أحب من الطعام، وتغرقني بأسئلة ربما تريحها إجابتها من قلقها. ليلتها غلبني النعاس باكرًا لشدة التعب، وجراء ما اعتدت عليه لأسابيع في الجندية. جهزت لي فراشًا وثيرًا، تحاول ألا يجد البرد منفذًا منه إليّ، وتهش بيد قلبها كل ما يمكن أن يعطل نومة هانئة هيأت ما استطاعت من سبل إليها. قبل أن يهزمني النعاس راحت الصور والمشاهد تتقاطع في مخيلتي، تنذرني بهجمة شرسة للضجيج الجواني: المدرب بصوته الجهوري وهو يأمرني بأن أركض بسرعة أكثر، عمي عزيز وهو يحثني على ألا أتنازل عن حلمي بدراسة الطب، أبي وهو يرسم لي صورة لضابط تلمع النجوم على كتفيه، عينا سيدة القرية والملاءة تسقط عن جسدها الجميل، الطائرات وهي تمر من فوقي مغادرة المطار وأنا أذرع المسافة بين حقول القمح في مشارق مادبا، وكتابي بين يدي أحفظ ما فيه لأجل امتحانات الثانوية العامة.

عند الرابعة والنصف صباحًا قفزت من فراشي أمتثل لقرع المدربين على الأسرة، لكنها كانت مجرد أصوات احتلت موقعها في الذاكرة، وأتتني في المنام.

بعد ثلاثة أشهر انتهت التدريبات العسكرية. استلمنا ما نستحقه من أجور، ومُنحنا إجازة لعشرين يومًا. كان ذلك أول مبلغ مالي أتقاضاه في حياتي. أتذكر يومها أني هبطت إلى وسط البلد في عَمان بصحبة عدد من أصدقاء تلك الأشهُر، رؤوسنا حليقة، ووجوهنا لوحتها الشموس، وأتعبها البرد، نرتدي بزاتنا العسكرية ونتحرك في الشارع بحذر كبير خشية من أن توجه لنا الشرطة العسكرية أية مخالفة. اجتمعنا على طاولة الغداء في مطعم القاهرة، يتملك الكثير منا شعور جميل بانقضاء تلك الأيام المتعبة، والضحك بصوت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عال على ما حدث لبعضنا من نوادر ومواقف طريفة. برهنت لي تلك الأيام أن أكثر الصداقات قدرة على الاستمرار هي التي تحدث ونحن نقف قبالة العاصفة. تقترب الأيادي من بعضها سعيًا إلى الدفء خشية البرد. وحين يتلاشى لن تبتعد بسهولة، ستظل وفية للحظة عجزنا فيها عن فهم ما يمكن أن تكون عليه المصائر.

لم يمكث الأصدقاء كثيرًا؛ غادروا إلى قراهم الجنوبية والمتوسطة، وبقيت أنا وعليّ شنينات نتجول في وسط البلد نحاول فهم أمكنة جديدة على قرويّين مثلنا. اشترى علّي ملابس، وحلويات لعائلته. أما أنا فاشتريت عددًا من الروايات، وعودًا. سألني رغم أنه امتدح صوتي بعد أن سمعني أغني ذات ليلة: لماذا اشتريته؟ لم أكن أدري لماذا فعلت ذلك، ربما كان سعيًا إلى خلوة روحية توفرها الموسيقى. في البيت داريته عن أبي. كنت أعلم موقفه مسبقًا من اقتناء آلة موسيقية في مجتمع يرى في العازف غجريًا لن تحترمه القبيلة، وما هي إلا أيام حتى افتضح أمري، لكن أمي هونت الأمر؛ فبقي صامتًا على مضض. لم أذهب إلى معلم للموسيقى؛ اشتريت كتابًا للمبتدئين، وبقيت أتمرن عليه إلى أن أتقنت شيئًا من الصّبا، مقام تحبه أمي، وتطرب لغنائي؛ فتتسع عيناها، وتغرورق بالدموع. كانت إجازة طويلة أمضيتها بين التمرن على آلة العود، وفي القراءة، سعيًا إلى التوازن، رغم الأصدقاء الجدد، وما طرأ على الذاكرة من أحداث إضافية. اعتدت النظام العسكري في الصحو المبكر، وحلاقة الذقن، كنت أفعل ذلك يوميًا في تلك الإجازة، ثم أقف قبالة البيت، أتفقد حنينا، وقد أخذت تكتظ بالبيوت، والسيارات، والشوارع، وراحت تخسر صباحاتها القروية، بل إن امتداداها سعى نحو مادبا أكثر من ذي قبل.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد زمن تلاشى جزء كبير من العوائق بيني وبين العود، صرت قادرًا على استنطاق أوتاره، غارقًا في الموسيقى. امتعض والدي حين لاحظ خروجي مع أصدقائي وأنا أحمله وأرجع إلى البيت متأخرًا. حدث ذات ليلة أني وجدته بانتظاري. كنت عائدًا من ليلة غنيت فيها كثيرًا بصحبة أصدقائي. ما إن وصلت باب البيت حتى أخذ العود مني وهشمه. كَسر والدي العود، خوفًا من ملامة القبيلة. مرت السنين، واشتريت أعوادًا كثيرة، وغنيت لمئات المرات، لكني كلما لامست عودًا، يداهم مسمعيّ صدى أوتار عودي الأول وهي تئن تحت تكرار ارتطامها بالجدار، فتخنقني (عبرتي)، وأشعر برغبة عارمة بالبكاء. إنها حسرة ضياع أشيائنا الأولى، وذاكرة الخسارات الأبدية.

لم أكن طالبًا نجيبًا في مرحلة الدراسة، بل كنت شارد الذهن، أوحي لمن يراني بالانتباه، والقلم بيدي يرتكب خربشات، وكلمات عشوائية. في الثكنة العسكرية ألجأ إلى قراءة الروايات حتى يأخذني النوم نحو منامات منها ما هو غامض، ومنها ما أراني فيه مسافرًا إلى بلدان بعيدة. وفي قاعة المحاضرات أخفي بين دفتي المقررات الدراسية روايات صغيرة الحجم وأقرأ. كانت قراءة من أجل الهروب؛ لم تكن مواجهة، لكنني مع الأيام حافظت على خيط خفي يربطني بدراستي، لأجتاز الاختبارات، رغم أني كنت أشعر بجفاف يزحف نحو حقولي الداخلية، حقول لم يرها أصدقائي، ولم يشعروا بصدى العشب اليابس تحت قدمي وأنا أتجول فيه، إلا عليّ شنينات الذي بعدما قرأ رسالتي إلى عائلتي أطلعني على قصائد كتبها سابقًا، وعلى أخرى جديدة.

في عَمان حيث تقع الكلية التي درسنا فيها، كنا نبتعد عن الثكنة، ونجلس على مرتفع يطل على المدينة، ننظر إلى ليل لم نكن فهمناه بعد، كل منا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يستعيد أحلامه الضائعة، وأحلامه التي لم تتحقق بعد. كان عليّ يحلم بامرأة تفهم ما وراء قصائده. ليس لديه أحلام صارخة، كل ما أراده هدوء لا يهزمه الضجيج، هدوء لا يشوش انحيازه للشعر الذي يؤمن به جدًا.

مضت سنين الدراسة وتخرجنا، وعُين كل واحد منا في مطار عسكري بعيد عن الآخر مئات الكيلو مترات. خلال نافذة طائرة عسكرية أقلعت من مطار ماركا، واتجهت إلى الجنوب الشرقي أصابني مشهد الصحراء بريبة كبيرة، من دون أن أدري أني سأمضي فيها ستة عشر عامًا، وتصير الكتابة متراسي الأول والأخير.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

بعد ساعات من المسير في طريق على طرفيها يترامى الريف الإنجليزي توقفت الحافلة عند استراحة في منتصف الطريق إلى (كنغتون)، كانت الحاجة ملحة عند الجميع لشرب كوب من القهوة. أخذت السماء تهطل مطرًا ناعمًا؛ رحت معه أرفع رأسي نحو السماء، أفتح فمي للمطر، حاجة عتيقة كنت أفعلها في الصغر، أركض تحت مزاريب بيت جدي، وهي تنشج الماء محملاً ببقايا زبيب نُشر في الصيف على سطح الدار. أملأ كفي بالماء، وأنثره في الهواء كما كان يفعل جدي وهو يرمي البذار في الحقل. أقف على زاوية السور، وأرفع رأسي عاليًا، وفمي مشرع نحو سماء بُتر شريانها في تلك اللحظة، وأشهق بالماء، وفي مسامعي رهط كمنجات يصحن عاليًا، ويشعلن بروحي شهوة الغناء. أهبط من السور وأقف بباب (الديوان) بينما جدي قرب (الكانون)، والجمر فيه يوزع الدفء في المكان. أتخلص من ملابسي المبتلة، وألوذ بـ(فروة) جدي بينما البخار يتصاعد من ملابسي كفكرة لا تخرج إلا أمام النار.

عند الحادية عشرة مساء وصلنا (كنغتون). كانت السماء ما تزال ممطرة، والسكون مثل طيف لكائن خارق يحرس المكان؛ فأصابني بشيء من الكدر، رغم حاجتي للهدوء. بيوت (كنغتون) قديمة، بنيت من الطوب الأحمر، بعضها بطوابق لا تزيد على ثلاثة، والبعض الآخر منفصلة. سقوفها قرميدية، تطوق معظمها أسوار هابطة، فيها حدائق صغيرة. لم أكن أتوقع أن بلدة بريطانية تنام باكرًا في مثل ذلك الوقت، ولم أكن أدري أنها تغلق متاجرها القليلة عند السادسة مساء التزامًا بقانون العمل والعمال. قال لي زميلي: (الصخب في لندن، نحن الآن في بلدة جل سكانها كبار سن متقاعدون، أتوا هنا ينشدون

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الهدوء).

عند بوابة فندق (Burton) العتيق، توقفت الحافلة، وسكن محركها ناشجًا كأنها تشكو مسافة قطعناها في تلك الساعات الطويلة، وحلّ الصمت إلا من صوت خطواتنا، ونحن ننظر حولنا بتوجس الغرباء. ذهب زملائي إلى الداخل، أما أنا بقيت أتأمل بيوتًا وراء عدد من نوافذها أضواء خفيفة، من غير أن أرى ظلاً لأحد يتحرك فيها. لم تكن للمكان رائحة مميزة لتحتفظ بها الذاكرة. إن شممتُ رائحة الياسمين؛ فهذا يعني أنني في (اللويبدة)، أو في (دمشق). ثمة فارق بسيط بين ياسمين اللويبدة، وياسمين الشام إنه ذلك الإيقاع الذي يخلفه نوع الهواء، وزاوية إطلالة الشمس على الحدائق. أشم رائحة البحر، فتقودني إلى الإسكندرية، أو (بيروت)، أو (العقبة)، أو (سوسة) ثمة فارق بين بحر بيروت، وبحر سوسة والعقبة. فارق في الأغنيات، وأمزجة العشاق، وحزن الصيادين، وشهوة البحر في تسجيل أكبر عدد ممكن في دفتر الغياب.

أي رائحة لك يا (كنغتون)، وأنا كائن تأخذه الروائح إلى دروبها بيسر. أحب رائحة قلم الرصاص، والمبراةُ تدبُ رأسَه؛ فيصير كمبضع حَسن النوايا. هنالك مباضع تختزل الحياة، ومباضع تزيل من الدروب ما يعيق بلوغ لذتها العالية. قلم الرصاص ابن الشجرة؛ ناطق ما يزال يذكرني بفتنتي البكر بالخربشات قبل أن تستقيم الحروف، وتؤلف كلمتي الأولى. أحب رائحة الكتاب المطبوع للتو وهي تعيدني إلى أول سنين المدرسة، يوم كنت أعتقد أن حدود العالم تقع وراء الجبل، وأن أجمل النساء هي من ترعي الشياه في مشارق (مادبا)، حيث حقول القمح الذي يعلو فوق طول كثير من الرجال؛ فيلوذ بها العشاق، والخائفون من مغبة الفضيحة. أحب رائحة (البالة) ملابس لم يكن لنا غيرها؛ فتأخذني إلى زمن كنا فيه نستعجل صباح العيد لنبتهج،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهي ترقد قرب الوسائد، تنتظر مثلنا نهارًا جديدًا، لا أجد الآن إلا صداه العتيق. أحب رائحة عادم السيارة، وهو يشبه رائحة عادم سيارة (اللاند روفر) العسكرية، وأبي يعود بها من الصحاري البعيدة، يهبط منها مبتسمًا، ونحن نهرع إليه حفاة إلا من البراءة. أحب رائحة ورق الدفاتر العتيقة وهي تذكرني بمكاتيب عمي عزيز، وهو يبث بين سطورها أشواقه، ويرسم بالكلمات شكلاً لأوروبا النور. أحب رائحة الميرمية لتأخذني إلى أول شتاء شج فيه البرقُ روحي؛ فأهداني إلى تعب الكتابة، وإغراء الولادات فيها على سرير البياض. أحب رائحة التراب إثر هطل المطر؛ فتدب بي نشوة سرية ما تزال تعتري روحي، نشوة تشبه صرخة بدوي رأى وهو يحرس شياهه من ذئاب الليل امرأة ترخي ساقيها على حافة القمر. أحب رائحة ملابس أمي، وبدلة أبي العسكرية، ورائحة الخبز، مشتهى يخرج من الطوابين كقمر مبتهج. أحب رائحة عطر أول عروس لامستْ شعرها الناعم الطويل في الصغر وهي تكفكف دموعها، والنساء يغنين بلوعة البدويات: (يمه يا يمه لميلي مخداتي. طلعت من البيت وما ودعت خياتي). أحب رائحة الذاكرة جدًا، وهي تسعى لإنقاذي من فساد الواقع، وتجنبني برفق مآلات السقوط.

السيدة الإنجليزية التي كانت في قسم الاستقبال، وسجلت معلوماتي قبل صعودي إلى غرفتي، سيدة أربعينية لطيفة، لها شعر أشقر، ووجه ممتلئ، ترتدي قميصًا أرجوانيًا ترخي أطرافه على تنورة سوداء قصيرة وضيقة، أبرزت خصرها النحيل نوعًا ما. من وراء نظارة ترتكز على أنفها المدبب كانت تنظر إليّ بعينين مبتسمتين، وتحكي لي عن مزايا الغرفة. قالت وأنا أهم بالذهاب إلى غرفتي، وبلكنة إنجليزية أنثوية تمط حرف الياء في عبارة (Excuse me):

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- عذرًا، رأيتك تحدق بالأشياء بشكل غريب، متأخرًا عن زملائك.

ما أعرفه مسبقًا أن الإنجليز حتى إن لاحظوا أمرًا لا يتدخلون بشأنه خاصة مع الغرباء، وأعرف أنهم قساة، حادو الملامح؛ إذن ما بال هذه السيدة تسألني عن سر تأملي.

قلت:

- الأماكن التي أزورها للمرة الأولى تربكني.

ظهرت على وجهها ابتسامة لم أستطع أن أميزها؛ هل هي دهشة، أم استغراب، ثم قالت:

- لكن (كنغتون) بسيطة لا يمكن أن تربكك.

علقت ملابسي في الخزانة، وألقيت بي تحت صنبور الماء في الحمام مستسلمًا لدفقاته الدافئة، ثم استلقيت في السرير. تذكرت ما قالته سيدة استقبال الفندق، واستعدت لون عينيها، ووجهها الصافي، وابتسامتها الجميلة وأنا أحاول النوم. لكن محاولتي باءت بالفشل؛ فرحت أستجلب النوم بقراءة ما يقول مصطفى سعيد في (موسم الهجرة إلى الشمال):

(«أنا بخير يا مستر روبنسن». ثم قدمني إلى زوجته. وفجأة أحسست بذراعي المرأة تطوقانني، وبشفتيها على خدي. في تلك اللحظة وأنا واقف على رصيف المحطة، وسط دوامة من الأحاسيس، وزندا المرأة ملتفان حول عنقي، وفمها على خدي، ورائحة جسمها، رائحة أوربية غريبة، تدغدغ أنفي، وصدرها يلامس صدري، شعرت وأنا ابن الاثني عشر عامًا بشهوة جنسية لم أعرفها من قبل في حياتي).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هل هي شهوة جنسية، أم أنها الحاجة إلى فردوس لا تمنحه غير امرأة قلبها موطنٌ للدفء، وروحها سماء للرشاقة. حاجة شاب يتيم الأب عاش حقبة ما بعد رحيل المستعمر الإنجليزي عن بلاده، وقاده نبوغه إلى القاهرة، وهناك تلقفته عائلة مستشرق إنجليزي وسهلت دربه إلى لندن، بلاد تكلم لغة أهلها بطلاقة، وقرأ آدابها، وعرف أمكنتها، وعاشر نسائها، وهضم ثقافتها، لكن جرحًا في دواخله بقي ينزف؛ فلم يتمكن من نيل لحظة الاندماج الكامل؛ لحظة عجز متعلقة بالهوية وأبعادها. مصطفى سعيد ليس مجرد شخصية روائية بل إنه جيل بأكمله تلقى من الاستعمار ضربة على رأسه. رحل المستعمر، وجاءت الأسئلة، أسئلة تخص وجوده. من هنا سيثأر مصطفى سعيد فيما بعد، بطريقته الخاصة.

ألقيت الرواية من يدي، وانزلقت تحت غطاء النوم، بعد أن أبقيت على ضوء خفيف، ورحت قبالة السقف كعادتي أنتظر أحصنة النوم تأتي، وتختطفني إلى عوالم أخرى بعيدة. في صغري قال لي والدي وهو يعود من عمله بكل حيوية الجندي فيه، وأنا في ظل حوش الدار منكبًا على القراءة؛ إذ كنت أدمن ما كتبه (هوغو) و(ديكنز) و(محفوظ) و (ديستويفسكي)، وآخرين: (ستصيبك كثرة القراءة بالعمى). لم أقل شيئًا. وقبل عام وأنا أوغل في سنين ما بعد الخمسين كررها عليّ، والكتاب بين يدي؛ فقلت له وهو يسكب شيئًا من تبغه في ورقة حشرها بين إصبعيه، ثم لصقها بريقه، وأشعلها: (كلما نظرت حولي وجدتني أعود لأحدق بالكتب، دعني أفعل ذلك لعلي أنسى ما أرغب بنسيانه، ولعلي أرى ما لم أره حولي). لم يقل شيئًا بل نفث دخان سيجارته في الهواء، وبعينين غامضتين حدق عميقًا في الأفق الأزرق الصافي الذي خلا من الغيوم، ثم انتشرت على وجهه ابتسامة لم أفهم معناها للآن.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثمة صوت لرجلين يتبادلان الشتائم جاء من الخارج، تحديدًا من رصيف شارع يحاذي غرفتي. بدا لي أنهما مخموران. أقصت تلك الأصوات الخطوة الأولى إلى النوم، لكني بقيت أنظر في السقف إلى أن رأيته سماء، ورأيتني ولدًا يعدو على عهن السحب فنمت.

صحوت عند السابعة والنصف صباحًا. ثمة ضياء خفيف للشمس بالكاد يخترق زجاج النافذة. لا أصوات تسمع من الخارج إلا زقزقة عصافير الدوري يتخللها صوت سيارة مرت سريعًا، ثم تلاشى تاركًا هذه البلدة لسكينة متفق عليها. فتحت هاتفي النقال أنصت لسيرنادة لـ(شوبارت)، مقطوعة بدا لي أنه ألفها وهو في أعلى درجات تحليق روحي إما إن جاء الحب، أو أن الحزن صنعه ببراعة، وهو يتودد للمحبوبة كما درجت العادة في هكذا شكل من المقطوعات الموسيقية قبل القرن الثامن عشر.

كدت أشعل سيجارة وأنا ما أزال مستلقيًا في السرير كعادتي الرديئة، لولا أني تنبهت أن التدخين ممنوع في هذا الفندق. لم يكن للغمامة الرمادية حضور قوي في مزاجي الصباحي، ثمة طيف لها يلوح من بعيد؛ هربت منه إلى الحمام، ووقفت تحت الماء كجندي أمام قصر ملكي مستسلمًا لزخاته الدافئة. ثمة صور تتناوب على شاشة مخيلتي؛ امرأة طوقت نزقي بيديها وأخذته إلى حضنها الدافئ، السيدة الإنجليزية التي سألتني عن سر سهوي بالمكان، عائلتي التي نسيت أن أخبرها بوصولي. الطريق الطويلة إلى الصحراء الأردنية الشرقية، الطريق إلى (ويلز)، شخصية روايتي التي أفكر بكتابتها، جلوسي في الصغر على تلك الربوة الصغيرة في قريتي محتضنًا رأسي بين كفيّ يدي، وكوعاي منغرسان في فخذيّ أحدق بمادبا، تراجع رغبتي بالكتابة، والقراءة، والاستماع للموسيقى.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرجت من الحمام عاريًا؛ ففاجأني بدني في المرآة العريضة. ضحكت، ورحت أفكر كيف كان الإنسان الأول على ذلك النحو من التصالح الفطري مع جسده. تفحصت جسدي في المرآة، ثمة عين سرية متلصصة تقبع في دهاليزي الداخلية أودت بي إلى بالخجل. أشحت البصر عني، وتأملت وأنا أعد كوبًا من القهوة فكرة العري، ومساحة الخلاص المؤقتة الكامنة بهذا الفعل. نتعرى؛ فنشعر أننا تجاوزنا الخجل بالعودة إلى محطتنا الأولى ما بعد عوالم الرحم؛ بيت كنا ننعم فيه بالدفء، والطمأنينة، والاحتواء المقدس. ترى هل نتعرى ونحن نمارس الجنس لنحظى بفردوسنا المفقود؟

ارتديت (الروب)، وأزحت ستارة النافذة، ثم جلست أشرب أول كوب قهوة في (كنفتون) بلا سجائر. تجلس سيدة الاستقبال في مقعد في حديقة الفندق، تدخن وتبدو ساهمة بأمر ما. الأشجار خضراء جدًا، ساكنة كأن لا غبار ولا ريح في هذه البلدة. يوحي تصميم البيوت بالحميمية، ويشير إلى الدفء؛ بيوت نظيفة المداخل، تلفها أشجار، وزهور، وحشائش. لا قضبان حماية على نوافذها. أليس في هذه البلدة من لصوص؟ أليس في هذه البلدة من أطفال أشقياء ربما يسقطون من النوافذ؟

استعدت ما قرأته عن أوروبا، وعن عصور الظلمة، وتاريخ يستلزم مني فهمه عمرًا إضافيًا. وتذكرت نصيحة قديمة من صديقة مفادها أن أعيش الأماكن بمعزل عن أي أفكار أخرى؛ فالأماكن الجديدة بحاجة لذهن صاف لنرى حقيقتها.

كانت (موسم الهجرة إلى الشمال) بقربي، تستريح كفتاة حزينة في محطة القطار. رواية كدت أغير بسببها رأيي بأن الإلهام صاحب الحصة الكبرى كدافع للكتابة الروائية، لولا تفكري العميق بأسبابها، وما يمكن أن يأخذنا إليها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

التقطتها، ورحت أقرأ:

(عرفت حانات تشلسي، وأندية هامستد، ومنتديات بلومزبري. أقرأ الشعر، وأتحدث في الدين والفلسفة، وأقول كلامًا عن روحانيات الشرق. أفعل كل شيء حتى أدخل المرأة إلى فراشي)

توقفت عند آخر عبارة تشير إلى سعي مصطفى سعيد إلى النقطة المنشودة من وراء تسلق درج الرغبة بمعية امرأة. ترى هل كان يثأر خلال نسائه ضحاياه مما فعله المستعمر بالجنوب، من انتهاك، ونهب، وتهميش، وتجويع؟ أم أنه ينتصر لعطشه الأبدي للمرأة. إن أبشع ما يمكن أن يخلفه الاستعمار هو الذات المنقسمة. فحين رحل المستعمر الإنجليزي عن السودان فقد فعل ذلك بعد أن خلخل البنية الكلاسيكية للمجتمع، تمامًا مثل شارع يشق قرية إلى نصفين. وشخصية مصطفى سعيد تقوم على قسمين واحد جذوره ضاربة في السودان قبل الاستعمار، والثاني عينه على الحداثة التي تقوم عليها بنية المستعمِر. وهنا حدث الالتباس، والصراع الذي قاد مصطفى سعيد إلى علاقة بوجهين مع نسائه، واحدة دافعها عطش غريزي للمرأة، والثاني انتقام كان يهيأ له أنه سيهدئ من ضجيج صراعه الداخلي.

تزوج (آرنست همنجواي) من أربع نساء، وعاشر العديد من العشيقات. له زمن عاطفي غزير رغم أن حضور المرأة في كتاباته ليس كثيرًا بل حتى اتهم بمعادتها، وكرهه لها. سألني صديق ذات مرة: من هي المرأة التي تقف وراء ما تكتب؟ قلت له: لا أحد. راجعت كثيرًا من يومياتي؛ فوجدت أن سيدة القرية تقف ورائي وأنا أجلس إلى طاولتي، تطوق عنقي بذراعيها الناعمتين. صدرها يلامس كتفي، ورائحة عطرها تسحب من مخيلتي الكلمات، وتلقيها في حضن الورقة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

هاتفت زوجتي واعتذرت عن عدم اتصالي بها البارحة. تأملت صورة عائلتي في هاتفي النقال وأنا أفكر: (هل أنا أب صالح؟ هل يمكن للكاتب أن يكون أبًا صالحًا كنجار يعود مساء ويتخلص من رائحة الخشب وبقاياه، ثم يجلس مع عائلته آمنًا مطمئنًا؟)

ارتديت ملابسي وذهبت إلى صالة الطعام لأتناول الإفطار، ثم أغادر مع زملائي إلى أول يوم لنا في الدورة التدريبية. وقفت السيدة الإنجليزية وراء طاولة الاستقبال، تنظر نحوي بعينين فيهما شيء غامض. النساء عالم مليء بالأسرار يشبه القصيدة، إن فقدت غموضها تحولت إلى مجرد كلمات لا لذة من ورائها. قالت لي امرأة ذات يوم وبعد مضي عام على لقاءاتنا: (يجب أن نفترق. ما عاد فيك شيء أسعى لاكتشافه؛ عرفت عنك كل شيء) وافترقنا بعد عناق بارد، وعبارات مقتضبة. لم أقل لها شيئًا، ولم ألتفت إلى الوراء وهي تغادر. بعد سنين وفي (أمستردام) التقينا صدفة. كنت أجلس بمفردي في حانة قريبة من محطة القطار، في ساعة متأخرة من الليل، جلست بقربي وقالت من دون أن تنظر بوجهي: (ها نحن نلتقي من جديد). تبادلنا تحيات سريعة، ثم أخذت تنظر إليّ، وراحت تثرثر، وتحكي لي كيف تزوجت، ثم انفصلت بعد عام من زواجها. عندما هممت بالمغادرة أمسكت بيدي وأعادتني إلى الكرسي. قالت بنبرة حزينة: (بيتي قريب من هنا، رافقني إليه) اعتذرت بقليل من اللطف. مع ذلك دونتُ في ورقة عنوانها، وغادرت بعد أن وعدتها بزيارة خلال يومين، لكني تركت الورقة على الطاولة، ومضيت.

حييت السيدة الإنجليزية بابتسامة، ثم واصلت طريقي إلى صالة الطعام التي كانت تضم القليل من نزلاء الفندق وجلهم كبار سن، إلا امرأة بدينة بدت لي في الأربعين من عمرها، ورجل بشارب كث يأكل بشراهة عرفت فيما بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أنه من (ويلز). ألقيت نظرة عبر زجاج الصالة العريض. تحيط الورود وأشجار الزينة بالفندق، مشهد لم أره في الليل، تأملته جيدًا لأوازن ما بين مشاهد صحراوية اللون تحتفظ بها ذاكرتي، وما بين تلك اللغة الخضراء. في الصيف يغلب اللون المائل إلى الصفرة على قريتي، وغالبًا ما كان الربيع قصيرًا يغادرها بسرعة. لون يثير بي مشاعر الوحشة، وإحساسًا آخر لا أستطيع وصفه للآن. وخلال ثمانية عشر عامًا رسمت الصحراء ما تبقى من جداريات في ذاكرتي.

كان العربي يقف قبالة تلك الصحراء الممتدة بتقلباتها الغريبة، يجد نفسه عاجزًا عن فهم أسرارها، ويحتله سأم وخوف كبيران وهو يرى اليباس يزحف نحوه بضراوة. يقف قبالة سماء ألغازها كثيرة، غير قادر على فهم ما فيها. حينما يعجز العربي كان يغني، ويلجأ إلى تفسير الأشياء بالشعر، وإلى اجتراح عوالم جديدة لا مكان لها سوى مخيلة للصحراء الدور الأعظم في اتساعها؛ فاستطاع أن يرسم فردوسه المفقود؛ الماء، والخضرة، والوجه الحسن، وأن يختلق تفسيرات لما تساءل عنه طويلاً، وأن يرسم لنفسه صورة تمنحه الرضى؛ فصار الشعر ديوانًا للعرب، ينظر إلى الكون من زاوية غنائية.

لم يرقني الإفطار الإنجليزي كثيرًا؛ فتناولت قليلاً من البيض، وشربت شايًا، وخرجت أدخن، وأنتظر أن تأتي الحافلة لتقلنا إلى (رادنور)، أقف على رصيف الشارع الذي كان هادئًا أكثر مما ينبغي. أن ترى الأماكن ليلا غير ما تراها صباحًا، فلكل مكان ليل وصباح، حالتان يتبدل فيهما لون الأشياء ومزاجها، ويتبدل حتى إيقاع خطوات العابرين. بدت (كنفتون) في الليل كامرأة أمضت نهارها ترعى صغارها، وما إن ناموا حتى تفرغت لنفسها؛ فغرقت بصمت لم يفهمه واحد مثلي داهمته وحشة كريهة، جارحة، مثل شوكة علقت بالحلق.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في ذلك الصباح رأيتها بحال آخر، تسقط أشعة الشمس على أبعاد الأشياء الثلاثة؛ فيتضح المكان: شوارع نظيفة، بيوت وادعة، شجر يتغاوى بخضرته، مارُّون يمضون إلى وجهاتهم بهدوء تام.

جلست على مقعد في حديقة الفندق أدخن سيجارة أخرى، وأتأمل رجلاً مسناً يرتدي زيّاً عسكريّاً ويحاول المشي بخطوات ثابتة. تذكرت يوم هبطتُ من الطائرة العسكرية في الصحراء الأردنية الشرقية في أول أيام عملي هناك بعد انتهاء سنين الدراسة. كان هواء ديسمبر باردًا، وحادًا كسكاكين شرهة. وقفت أستطلع ما حولي، عراء أصفر مسطح، تستلقي فوقه الريح، وهو يمتد بعمق، مطمئنًا لفكرة اللانهاية. للوهلة الأولى داهمتني رغبة بالبكاء، لكني استبدلتها بضحكة أقرب ما تكون إلى المجون الساخر، والجندي يستعجلني بالصعود إلى السيارة بنبرة عسكرية آمرة. كنت خلال المسافة القصيرة بين الطائرة والثكنة العسكرية أكتم صراخا داخليًا: ما الذي تفعله هنا؟ سؤال يقف بوجهي بقوة رغم شريان السلالة الصحراوية. كل شيء له لون يميل إلى الصفرة، حتى الثكنة التي بقيت ساهمًا بها إلى أن صرخ الجندي يستوضح من زملائي: ما به ساكن بهذا الشكل؟

كل واحد منا انتبذ سريرًا شاغرًا، وصندوقًا لأغراضه، وجلسنا ننصت لترحيب من سبقونا بالمجيء إلى تلك البقعة القصية. لم تحظ السماء في تلك الليلة العاصفة إلا بظلام دامس وأنا أقف إلى النافذة ونَفَسي يشكل طبقة ضبابية على زجاجها. إنها صدمة الأمكنة، تربكك، تثير فيك مشاعر إضافية من الوحشة والأسى، وتضعك أمام أسئلة جديدة. رسمت برأس إصبعي ثلاث نقاط على الزجاج، ووصلت بين اثنتين منها بخط، ثم استلقيت في سريري، بينما زملائي يجلسون مع عدد من قاطني الثكنة ويتبادلون الحديث.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتحت حقيبتي ولذت بقراءة (وداعًا للسلاح) لهيمنجواي. مر أحدهم ورأى العنوان وابتسم، ثم حرك يده أمام أحد زملائه بطريقة ساخرة فهمت منها أنه يشير إلى الجنون. ليلتها رأيت نفسي آكل جبنًا وأشرب نبيذًا، تمامًا مثلما كثر الحديث عن هذا الأمر في الرواية.

في الصباح أخذونا إلى الطائرات، وعرّفونا بواحدة منها بمعزل عن سنوات الدراسة. كائن فيزيائي يركض على المدرج، ثم يطير في الهواء مخلفًا ضجيجًا كثيرًا. مثلما حدث لي صدمة مع المكان مُنيتُ بواحدة مع الطائرة. كرهتها، ولم أجد بي أدنى درجات الطاقة للتعامل معها. كنت أقف بلا اهتمام مع زملائي ومسؤول القسم يحاول أن يجسر المسافة بيننا وبينها. التقيت بزملاء من تخصصات أخرى؛ فطرد حضورهم شيئًا من الوحشة، لكنه فعل مؤقت هربت منه في المساء إلى القراءة. كنت أقرأ بنهم مرضي. أقرأ هربًا من أحلام كنت على يقين ساذج من أنها ستتحقق، ومن صحراء رغم اتساعها كانت تخنقني بجدارة. انخرطت في العمل، انصياعًا إلى الأوامر العسكرية. في أوقات الاستراحة أجلس في ظل شجرة صحراوية وأدخن بشراهة غريبة، رغم آلام في المعدة أخذت في تلك الأيام تهاجمني بتدرج بدايته مقبولة. أول مرة جلست فيها أسفل تلك الشجرة، نقشت على جذعها تاريخ خطوتي الأولى في تلك الصحراء، أضبط عدادًا يفضي بي إلى لحظة أغادر فيها.

بعد مرور عامين صار لي أصدقاء مقربون، اعتادوا على ذلك الشكل من الفوضوية، والمرح الزائدين عن حدهما، وتجاهلي لمواقف لا تستحق الوقوف عندها، وشغفي الشديد بالطبخ، وكرهي للطائرة، من غير أن يعلموا عن أوراق تمدها لي يد الذاكرة ليلاً، وتحيلني إلى شخص كئيب يهرب منها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى القراءة. هناك بدأت الكتابة بوعي مغاير لما فعلته بشكل عشوائي من ذي قبل، وحدث تصالح مباغت مع الطائرة، ومع الصحراء. كان ذلك قبيل غروب ليلة صيفية، حيث الشمس تتهيأ للسقوط في بحر الرمال الشاسع. كنا نجهز الطائرة للانطلاق، أضع على أذني سماعتين مربوطتين بمسجلة على خاصرتي تبث إليّ أغنية من فيلم (Top gun) أغنية رقيقة بعنوان (Take my breath away). تحركت الطائرة وأنا أراقبها عن بعد، ثم انطلقت من رأس المدرج، وصعدت إلى السماء، وتقاطعت بقرص الشمس. لحظة آسرة، تشبه الحب في مشتهاه العالي. لحظة تماهى فيها كائن فيزيائي، مع الطبيعة، كائن أماط اللثام عن جانب جميل من وجهه. لا أدري لماذا حدث ذلك! ربما كانت الموسيقى وراء أن أرى الأشياء من زاوية جديدة، أو ربما هي لحظة الكتابة وقد كان عليها أن تبدأ من مشهد جعلني أؤمن أن بإمكاننا إضافة روح حتى إلى أشياء لا روح فيها. يومها جلست أرضًا قبالة نسمة الهواء الصحراوية، عند غروب يميط اللثام عن جهة لم أرها من قبل لحزن لولاه لما عرفنا معنى للبهجة، أستنطق الصحراء كيف تمتد بكل تلك السلاسة، وألمس الحصى، والتراب، وأفكر بالمعاني المتوارية وراء القشور. استلقيت على ظهري، والسماء تعج بالنجوم، والخطوط الضوئية للشهب، والنيازك تهطل كضربات جريئة لفنان يصالح بين الأبيض والأسود.

عادت الطائرة، وسكنت كأنها ليست تلك التي فعلت كل ذلك الضجيج. اتكأتُ على جناحها أتأمل رعونتها الفيزيائية، رعونة تشبه خروجًا مفاجئًا لبنت على ما يعيقها عن شكل مفتقد من الحرية. لامست معدنها وموسيقى الأغنية ذاتها تتهادى من أغوار مخيلتي، تدفعها موسيقاي الداخلية؛ فكتبت على جناحها الناعم، وبرسم متمهل للحروف: «أريد امرأة مثلك لا تأبه بالريح».

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اشتهيت لحظتها امرأة أرخي رأسي على ركبتيها، وأبكي، كما ينشج المزراب على حجر أملس. كنت أكتب على مهل، وأنا أفكر بالحب خارج مدارات (أزميرالدا)، وسيدة القرية، وفتاة المدرسة. ليلتها همت على وجهي في الصحراء. كانت ليلة مقمرة، هواؤها ناعم، وفيها سكينة كبيرة. غنيت كثيرًا مما حفظته عن أجدادي البدو من أغنيات من أجل الوجد، والحب، والنساء اللواتي يتسللن خلسة بعد منتصف الليل، ويتهاوين في أحضان رجال يطردون قسوة النهارات الحارقة، بقبلة خاطفة، وكثير من الشعر.

على جدار يلتصق به سريري في الثكنة العسكرية كتبت قبل أن أستسلم للنوم عتبة لقصيدة تشبه بابًا أشرع بتردد واضح نحو فتاة رأيتها قبل أعوام، وراحت بهدوء تجلس على كرسي في الذاكرة، وترشقني بابتسامات تعطل مبتغى الحزن، ومراده. قبيل النوم، وخارج يومياتي كتبت لها؛ كنت أريد الحب طائرًا أسطوريًا ينقذني من ثقل الحزن، ويدلني على بوابة الحياة، كما تدل أم ابنها على بوابة المدرسة. منذ ذلك اليوم صارت الكتابة خياري أكثر من ذي قبل، وصار طيف تلك الفتاة أنيسًا جديدًا لي، لكني جاهل في الحب الذي لا أعرف عنه إلا ما قرأته من قصائد لأجدادي، ولـ (جميل بثينة)، و(شكسبير)، و(توماس ويات)، و(ابن زيدون). بقي ما رأيته حبًا في تلك الأيام أسيرًا لأوراق تتوارى في خزانتي. كنت أراها مرة بعد أن أعود من الصحراء، أتحدث إليها بوعي من يتقمص دور رجل غير مبال بامرأة جميلة. لكنني ما إن أعود حتى يسقط ذلك القناع فأتهاوى على أرض صفحاتي وأكتب ساعات لا انقطاع فيها. إلى أن قررت القيام بخطوة على أي رجل أن يفعلها نحو حبيبته. لكني وجدتني أمام امرأة لا يمكن أن يكون لي مكانة في قلبها. ومثلما أقلعت عن كتابة الرواية، اقتلعتها من ذاكرتي. كنت قاسيًا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على نفسي كرجل في واد سحيق، لسعته عقرب في إصبع قدمه، ولا وقت لمغادرته؛ فأطلق رصاصة على إصبعه ليوقف السم، بينما العقرب تمضي تاركة له احتمال الموت في ظروف موحشة.

في تلك السنة تزوجت؛ كنت أريد عائلة تحمي روحي. مع الأيام حظيت بشكل هادئ من الحب، كبر حين ولد ابني الأول، وبنتي، وابني الثاني. وجدت مستوى مختلفًا للسعادة لم أفكر به من قبل رغم أني تزوجت في ظروف اقتصادية متدنية.

مضت عليّ أربع سنين في الصحراء، حظيت بعدها بغرفة منفصلة، وفرت لي عزلة ليلية أعانتني على القراءة والكتابة خارج هذين الفعلين اللذين أخذا يتجاوزان مهمتهما كوسيلتين للهروب. في الليالي المقمرة أخرج إلى الصحراء، أمشي في عمقها الهادئ، أتلذذ بصمتها، وبصوت الهواء الخفيف وهو يمر بين الأعشاب الصحراوية؛ فأملأ رئتي به، وأخلع حذائي، ثم أمشي على الرمال حافيًا، أدور حول نفسي، أفرد ذراعي في الهواء، وأطوف بي، أشعر أن الكون يؤجل مهامه ويدور معي، يقف معي، ويتحالف مع كل ما يخطر بالبال. أستلقي أرضًا وأتأمل السماء، والنجوم، والكواكب، والمجرة. أحببت الصحراء؛ فكتبت أكثر. للصحراء وجهان، واحد في الظهيرة يستسلم للشمس وهي تحرن في وسط السماء، والأشياء تمتثل للغليان، وآخر في الليل؛ سكونيّ، حميمي، شِعري، يقصي البشاعة، ويحتفي ببعد فريد للأشياء.

في تلك السنين حظيت بمجموعتين من أصدقاء المهنة، الأولى اعتادت جلال وهو يطل عليهم بروح ساخرة تهوّن مما نحن فيه من قسوة العمل، والمناخ؛ شخصية لم يستطيعوا دمجها بي كقارئ، إلا نايف الحميدي الذي جاء إلى هذا الأمر من باب التعاطف. والمجموعة الثانية هي من تقوم علاقتنا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها على محبة رومنسية نوعًا ما للأدب كمنقذ من الإحساس بالعزلة عن عالم غير مستقر، وفيها عليّ شنينات، ومهدي حراحشة، صديقان عُيّنا في المطار العسكري نفسه. كنا نمضي كثيرًا من أوقاتنا نتحدث في الأدب بشغف فطري. لكن هذين الصديقين نُقلا إلى مطارين عسكريين آخرين؛ فافتقدت وقتًا معهما كان يمنحني شيئًا من التوازن، ونحن نحكي عن الأحلام، والأمنيات، وعن روايات تشبهنا، وقصائد تسقي أشجارًا في حقولنا الداخلية التي خشينا عليها من اليباس. لقد ترك غيابهما فراغًا رحت أملأه بمزيد من القراءة. أقرأ بلا انقطاع، حتى وأنا أعمل. أستظل في فسحات زمنية قصيرة بالطائرة، والشمس تصر على أن تذيب الأشياء في تلك البقعة القصية من البلاد. أقرأ وأنا أعبر المسافة نحو قاعة الطعام، وحتى وأنا في الحمام متجاهلاً بعض نظرات الاستغراب، وإشارات تلمح باحتمالات جنوني.

في تلك السنة ابتعثت في دورة للإدارة تقام في مطار عسكري في الصحراء الشمالية، يقوم عليها شاب اسمه عمر العامري، هادئ، له طريقة سلسة في التدريس، يردد أبياتًا من الشعر في المحاضرة، ويغني وهو يعود إلى مكتبه. بعد الساعة الثانية ينعزل في غرفته في الثكنة، ولا يخرج إلا قليلاً. في إحدى الليالي والوحشة تتكاثر مثل خفافيش تولد من رحم الليل الصحراوي قرعت باب غرفته. وجدته يقرأ في كتاب (جماليات المكان) لـ(غاستون باشلار). تلفتُ حولي؛ فرأيت على طاولته عددًا من الكتب، والأوراق. شعرت بأني عثرت على أنيس له أن يطرد وحشة مكان يلزمني وقت لاعتياده. رمقني بنظرةٍ مجاملة وأنا أقلب الكتب. أيامها لم أكن قد قرأت (باشلار) لكني قرأت عنه، وحين سمعني ألوم نفسي على تأخري في ذلك؛ تساءل عن علاقتي بالكتب. قلت له إني مجرد قارئ. أخبرني أنه شاعر، ثم قرأ على مسمعيّ قصائد، أتبعها بالمزيد. أخذت علاقتي بعمر تنمو على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مهل، إلى أن صار يقرأ لي خلال الهاتف العسكري قصائده بعد أن عدت إلى حيث أعمل. كان أكثر جرأة مني؛ إذ شارك بجائزة عربية ونالها، ثم خضع للمحاكمة العسكرية لتجاوزه القانون. وبعد مغادرته زمن الجيش انتسب إلى الجامعة، ونال البكالوريوس في اللغة العربية، ثم الماجستير، والدكتوراه وهو الآن أستاذ في جامعة اليرموك.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

تجاوزت الحافلة يافطة كتب عليها (أهلا بكم في ويلز)، واختفت الشمس وراء غيوم داكنة حبلى بالمطر. كانت الطريق تتعرج، ذاهبة بنا إلى (رادنور). تمر بين بيوت في حقول تتوسطها الأغنام، والأبقار، وتحلق في سمائها طيور متغاوية بالعلق. شعرت بزميلي الذي يجلس بجانبي ويحتفي بسعادته بالعودة إلى بلاد أمضى فها خمس سنوات، يراقبني كيف أتأمل تلك الأماكن. قلت له: (ماذا يحتاج إنسان أكثر من هذه البلاد ليكون ما يريد) قال لي: (لكن لا تنسَ أننا الآن في أغسطس، الشتاء قاس هنا، يغور برده في الجسد إلى أن يصل العظام؛ فيصبح الطقس كئيبًا، دفع الكثيرين إلى الانتحار).

أخبرت ذات مرة صديقة سويسرية أتت إلى عمان عن ولعي بالشتاء، واستغربتْ من كرهها له، ومن ولعها بشمس تدفقت بغزارة في ذلك الشهر الصيفي. الشمس أول الأشياء التي تفكرت بها خاصة وهي تتماثل للمغيب. في صغري، والعالم كجناحي حمامة بيضاء ترفرف في سماء مخيلتي، هبطتُ سفح قريتي (حَنِينَا)، ثم رحت أصعدُ جبلاً آخر، كنت أعتقد أن الشمس تتوارى وراءه لصالح ليل يُجبر حتى الحجارة على السكون، ويدلق في البيوت التي لا يظهر منها سوى إنارات الفوانيس الشاحبة، ضوءُ سكينة لا تعرفها مُدن هذا القرن المتخم بالحروب والعويل والكراهية. صعدت ذلك الجبل الذي يختنق بالإسمنت هذه الأيام، وما رأيت الشمس هناك؛ اعتقدت أنها تختبئ خلف جبل آخر يرقد في الأفق المضمخ بالشواظ الأحمر، كأن أحصنة من دم تقوم بعدوِها الأخير. يومها مشيت غارسًا في تيهي الأول، أطارد قرصًا ذهبيًا، لا يؤمن بالنهايات، ولا يتدارى خلف شيء. جبل وراء جبل، والشمس تنأى وتنأى، إلى أن حلّ الليل على ولد ضيّع الشمس، وضيع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجهات، وراح صدى بكائه يسري مع نسمة ليل كان للتو يطمئن أسرّة النوم، والرعاة، والحصادين، واللصوص، والعشاق بوأده لعيون الفضيحة؛ فعدت أدراجي، دليلي تيه من عادته أن يقدم الصدفة في عز حاجتها؛ إذ تجاوزت الوادي، وصعدت إلى القرية، لأجد أمي غارقة في البكاء على ولد كاد أن يبقى مستمرًا بخطواته نحو شمس توهمنا بفكرة التواري. نمت في تلك الليلة وأنا أعتقد أن لا نهاية لشيء. ولم أدرِ أن بين البداية والنهاية طريقًا واحدًا. الأمهات يمتن؛ فينتهي صفق الأجنحة. الآباء يموتون؛ فيخفت صوت الرعد. الحبيبات يغادرن؛ فتنطفئ عين اللون. الأصدقاء يديرون ظهورهم؛ فيجف فم البحيرة. حتى النهاية تستريح من انتظارها الطويل؛ فتؤول إلى مصيرها المنتظر.

ترجلنا من الحافلة عند مقر الشركة الذي يقع بين جبلين مكسوين بالأشجار. ذهب زملائي كل إلى جهة، أما أنا فبقيت واقفًا أنظر إلى كل الجهات وأفكر: (هذا المكان يصلح للتأمل لا الهندسة). جلست على حافة إسمنتية قبالة قاعة سنتلقى فيها الدورة، وأدرت ظهري للجميع. تنحدر المسافة الواقعة بعد تلك الحافة نحو الوادي، حيث نهر يجري بوداعة بين الأشجار والحشائش. في مرمى البصر ثمة أرانب برية غير مرعوبة، وسناجب تتقافز على الشجر، وكثير من الأغنام تتسلق كتف الجبال بلا راعٍ إلا من كلب يردها كلما ابتعدت. كان أمامنا بعد حفلة استقبال قصيرة ما يزيد على الساعة على بدء الدورة التدريبية.

مشيت لدقائق بين الأشجار، وافترشت العشب أقرأ كيف كان يوقع مصطفى سعيد في (موسم الهجرة إلى الشمال) النساء الإنجليزيات في شباكه، يقتادهن إلى غرفة جاء إليها بكل ما يتوهمه الغرب عن روح الشرق

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السحري، بخور، وروائح، ومقتنيات شرقية. كان يعرف إلى أي حد ترسخت تلك الصورة التي رسمها بعض المستشرقين في أذهانهم؛ فاستخدمها كمنتقم لبلاده، وكعطشان ليروي ظمأ جسده، من دون أن تعرف النساء أنهن سيبقين عالقات في طقس سحري، وراءه بقعة مظلمة في دواخل مصطفى سعيد الذي انتحرت عدة نساء بسببه، حينما اقتربن منه، ووقعن في غرامه. تغلب عليهن لكنه لم يقوَ على (جين موريس)؛ فتزوجها لكن بشروطها. إن أشد العلاقات إشكالية في هذه الرواية هي علاقة مصطفى سعيد بـ(جين موريس) التي يبدو أنها تمثل الغرب بنظرته الفوقية للشرق. حين تعالت هذه المرأة على مصطفى سعيد، أحبها، وهذا الحب ربما كان معادلاً موضوعيًا لتقرب الطرف إلى المركز، والسعي إلى الاندماج به، وهذا لن يحدث إلا بتقديم تنازلات. أعطى مصطفى سعيد بعضًا من حاجياته الشرقية المتعلقة بهويته لـ (جين موريس) مخطوطة، ومزهرية، وسجادة للصلاة؛ فقامت

Telegram:@mbooks90

بإحراقها، لقد أحرقت هويته. وحين أعطته جسدها كانت تعرف أنه سيقتلها، لكنها فعلت ما تريد.

(وتذكرت ما قاله أن القاضي قبل أن يصدر عليه الحكم في الأولد بيلي قال له: «إنك يا مستر مصطفى سعيد رغم تقوفك العلمي، رجل غبي، إن في تكوينك الروحي بقعة مظلمة، لذلك فأنت بددت أنبل طاقة، يمنحها الله للناس: طاقة الحب»).

كان القاضي على علم بحقيقة تلك البقعة المظلمة التي خلّفها آباؤه من المستعمرين، لكن قانونه لن يعفيه من الحكم بتهمة تسببهِ بانتحار عدد من النساء، وقتل زوجته. يقطع المستعمر أشجار الآخرين الضعفاء ليبني بيته، ويطبق فيه القانون الذي يجعله مميزًا، وأكثر رقيًا من الآخرين. لكن لا ينسى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان ألمه، سيثأر بقصد أو بغير قصد ذات يوم. إن الاستعمار من أكثر الأفعال البشرية التي يمكن أن تترك رواسب في النفس، ستبقى تلح على صاحبها إلى أن يأتي الثأر، إما كلمة، أو ربما رصاصة مباغتة.

كان صوت النهر في (رادنور) يتقاطع بصوت الداخلية، وأنا أوغل في قراءة رواية استطاع فيها الطيب صالح أن يجمع بين المتناقضات: حضارتان مختلفتان، القرية والمدينة، الأسود والأبيض، الدفء والبرد. في روح مصطفى سعيد بقعة مظلمة، ومع الأيام سيكتشف بعضنا أن هناك الكثير ممن في أرواحهم مناطق مجعدة، وأخرى فيها بقعة إما رمادية، أو مظلمة. إنها الحياة، حديقة لا تمنحك وردتها من غير أن يصيب الشوك يديك.

في قاعة المحاضرات لم أكن بكل ذلك الانتباه المطلوب من واحد مثلي قطع مسافة طويلة ليتعلم مبدأ جديدًا في الهندسة؛ كنت أنفق جل وقتي أتأمل جبالاً رأيت السحاب يلامس رؤوسها. أتلقى شيئًا يسيرًا من المعلومات ثم أعود إلى شرودي الطويل بالسماء، وبالجبال، وبالشجر، حتى بطيور تحلق عاليًا ثم تهوي إلى النهر بجسارة فريدة. قلت لهم سأذهب لأتبول؛ فضحك جلهم. غادرت القاعة، وهبطت ذلك المنحدر. افترشت العشب، وجلست على ضفة نهر فيه الماء رقراقٌ، يتدفق مطمئنًا لمجراه بين سكينة الشجر، وامتداد العشب. وجدته باردًا لحظة أن سلمته يدي، ثم غرفت منه القليل؛ فشربت، ومسحت بالباقي وجهي. أفكر:

من أين تأتي الأنهار؟ من البحار؟ من باطن الأرض؟ من أين يأتي الماء؟ من السماء؟ من الأرض يذهب عاليًا بحجة التبخر؟

الأنهار، والبحار، والمحيطات، والينابيع دلالة واضحة على أننا نحوم في دائرة كونية. نحن وكل أشيائنا كائنات في دائرة. نطوف بالمركز المتوهج، منا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

من يفتش عن إجابات لأسئلة تحيره، ومنا من يريد أن ينسى. الماء متحرك، ونحن ثابتون؛ لهذا قال (هيراقليطس): (أنت لا تستطيع أن تضع قدمك في النهر نفسه مرتين).

ما إن هممت بالمغادرة، حتى جاء رجل ستيني يسبقه كلب أسود برأس ضخم. لم أنتبه أن شاة من شياهه المنتشرة على الجبال عالقة بشجرة قرب النهر. حررها ومضت في طريقها، ثم نظر بوجهي وحياني بلكنة إنجليزية ثقيلة بالكاد فهمتها وهو يسألني متفحصًا ملامحي: (أنت لست من هنا). لم ينتظر إجابتي بل قرفص قرب سيل الماء وغسل يديه ثم ملأ كفيه بالماء وارتوى. سألته إن كان الماء صالحًا للشرب. فلم يجبني. أخبرته أني قادم من الشرق حيث الشموس، وتفشي اللون الصحراوي، وحيث وجوه لا تبتسم بسهولة. قال لي: (اقترب. سأحرك هذا الحجر الصغير من الماء. لاحظ شكل الحشرة تحته). رفع الحجر؛ فرأيت حشرة سوداء صغيرة. قال: (إنها لا تعيش إلا في المياه النقية) أشار بيده لعشب أخضر على الصخور المنتشرة في الماء: (وهذا العشب دليل على نقاء الماء أيضًا). غادرنا النهر سويًا، ولاحظ أنني ألهث ونحن نتسلق الطريق؛ فقال هامسًا: (اقلع عن التدخين لتتنفس بشكل سليم). حدق بوجهي: (إذن أنت من الشرق. كيف تستدل على الجهات من النجوم، هل تعرف ذلك؟) قال ذلك ثم غادر، تاركًا إجابتي في فمي.

غابت الشمس في كنغتون عند التاسعة مساء؛ فخرجت من الفندق أختلي بي. توقفت في منتصف طريقي إلى حانة استدللت عليها عبر الإنترنت. لم يكن في السماء نجوم، ولا شهب كالتي كثيرًا ما رأيتها تهطل من سماء (حنينا) والصحراء. وقفت عند باب الحانة القريبة من الفندق، ونظرت مرة أخرى إلى الأعلى. لا نجوم في سماء هذه البلدة، ولا قمر. دخلت الحانة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صالة شبه معتمة، فيها عدد قليل من الرجال والنساء، يجلسون إلى إحدى الطاولات، أما الأخريات فخاليات إلا من واحدة يحتلها رجل كبير في السن، وأخرى يجلس إليها رجلان في الأربعين من عمرهما. جلست إلى طاولة قريبة من نافذة تطل على الشارع. أتت نادلة في الثلاثين من عمرها، وأخذت تحدق بملامحي المختلفة عما هي عليه وجوه أهل تلك البلدة؛ فقطعت عليها ما تفعل بأن طلبت كوبًا من القهوة. ثمة صوت موسيقى لعزف منفرد على التشيللو كان يلامس كتفي أمام شارع يخلو من المارة. فجأة سقط المطر. لا شيء يحدث فجأة في هذه البلاد إلا المطر. صارت جدران البيوت تلمع تحت أضواء الشارع الفارغ من المارة. لم أكن أفكر بشيء وعيناي مصوبتان على ذلك الليل. لست حزينًا ولست سعيدًا، ثمة شعور محايد يستبد بي. لا يعجبني شيء، ولا شيء يدفعني لكرهه؛ فغادرت.

في حديقة الفندق رأيت سيدة الاستقبال كما رأيتها مرة من قبل، تدخن سيجارة وتنظر في الفراغ. كان صوتي الموسيقي الداخلي في تلك اللحظة في أوجه، والدنيا أكثر غموضًا من ذي قبل. جلست بجانبها، وأشعلت سيجارة. قالت بصوت هادئ:

- يبدو أنك كنت في جولة في (كنغتون).

- لا. ذهبت إلى حانة مملة ثم عدت.

- على فكرة. هذه بلدة هادئة، وليست مملة.

بدا لي أنها تبرر أمرًا ما، أو تدافع عن تلك البلدة حيال رأي شعرت بي أتبناه بلا مواربة.

قلت وعيناي تنظران في البعيد:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ثمة خيط رفيع يربط الملل بالهدوء.

- قال لي أحد زملائك أنك روائي.

- هذا صحيح إلى هذه اللحظة.

نهضت وصافحتني:

- اسمي مارغريت. سعدت بمعرفتك.

في مساء اليوم التالي، رأتني أخرج من باب الفندق إلى الحديقة، أحمل كوب شاي، ورواية (موسم الهجرة إلى الشمال) لأدخن أثناء القراءة. عادة رديئة مثلها مثل التدخين أثناء الكتابة. بعد مضي نصف ساعة جاءت وجلست بقربي، وسألتني عما أقرأ. لم تكن سمعت بتلك الرواية من قبل. حدثتها عنها؛ فأثار ما قلته فضولها. ضغطت بإصبعها شاشة هاتفها النقال، وطلبت الترجمة الإنجليزية من الرواية. ليلتها حظي الفندق ببعض النزلاء؛ إذ كانت (مارغريت) تغيب عني لدقائق، تتفقد شؤونهم، وتعود. حدثتني عن ولعها بقراءة الروايات. أثار فضولي ذلك الولع؛ فبقيت ألقي بالكلمات كمن يحوم حول طريدة إلى أن باحت بما توقعت. (مارغريت) تقرأ هربًا من أزمة عصفت بها لسنوات. أحبت رجلاً بعد طلاقها من زوجها الأول الذي أنجبت منه بنتًا. عاشت الحب لسنين إلى أن أخذ الإدمان على المخدرات يغير بطباع زوجها الجديد، حتى وصل الأمر لقتل ابنتها. تقول (مارغريت):

- عشت في لندن حياة صاخبة، راقتني. لكن بعد أن قتلت ابنتي مُنيث بكره شديد لكل مكان كنا فيها سوية. أخذت ذاكرتي ترهقني جدًا. وبت مثل السيد (سيبتموس) في رواية (السيدة دالاوي) لفرجينيا وولف، أصارع هلوسات عديدة أودت بـ (سيبتموس) إلى انتحار وجدت السيدة (دالاوي)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في المحصلة أنه حل مثالي لمثل حالته. لكني لا أريد إنهاء حياتي؛ فجئت إلى هذه البلدة هربًا من ذاكرتي. هذه البلدة فهمت حاجتي للسكون.

في اليوم التالي خرجت مع (مارغريت)، وتناولنا العشاء في مطعم صغير فيه عدد قليل من كبار السن. كنت مستمعًا أكثر من أكون متحدثًا. مع ذلك أجبت عن أسئلتها عن شرق لا تعرف عنه إلا القليل، وعن بعض تفاصيل حياتي، وعن الكتابة.

رغم عطشي للاخضرار منذ أن فهمت الفرق بين الجفاف والخصب، إلا أن شيئًا من الضجر أصابني في آخر يومين لي في (كنغتون). مطرها فائض عن حاجة الأرض، وقليلاً ما تفرج غيومها الداكنة عن وجه الشمس الدافئ؛ طقس يبعث في النفس رغبة غير مفهومة بالبكاء.

أرخيت بدني على كرسي أمام النافذة، أتأمل شجرة كيف تقف كامرأة فاتتها الحافلة في يوم ماطر، وموسيقاي تغلف روحي بغلالة من السهو الحزين، إلى أن احترقت السيجارة-مخالفًا قانون الفندق-بين إصبعي، ورمادها يتأرجح على أهبة السقوط. خلت (كنغتون) من المارة عند الخامسة مساء كعادتها. دلفت إلى الحمّام، ورشقت وجهي بحفنة ماء بارد، ونظرت في المرآة أتساءل عن تلك الموجة التي كانت تغرقني بذبذباتها الموجعة. استلقيت في السرير أقرأ في (موسم الهجرة إلى الشمال): يصف الطيب صالح القرية ببراعة متناهية، لكنه ليس وصفًا قادمًا من النوستاليجا، إنما لرصد التحول الذي صار عليه المجتمع بعد الاستعمار. إنه يشير إلى التبدل الذي طرأ على مجتمع كان مطمئنًا وبات الآن أكثر قلقًا. لقد كتب الطيب مكانًا يعرفه جيدًا، وقرأت مكاني جيدًا. إن من مهمات الرواية الكبرى أن تجعل قراءها يبنون رواياتهم الخاصة، ويستعيدون حيواتهم، خاصة ما تطاولت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عليه ممحاة الوقت. نحن لا نقرأ لنتسلى، نحن نقرأ لنعثر على أنفسنا؛ فنستمر مؤمنين بالحياة والحرية.

تركت الرواية جانبًا، وهبطت إلى حديقة الفندق، وجلست على مقعد عند البوابة أدخن وأتسلى بمراقبة الشارع الفارغ من المارة، والمليء بصمت بددته خطوات (مارغريت). قالت بعد أن جلست بجانبي، متشاغلة بأصابعها النحيلة:

- إذن بعد غد ستغادرون.

- نعم سنغادر.

قلت ذلك ثم نظرت بوجهها وقد بدا لي حزينًا بعض الشيء. أشعلت سيجارة ثانية ثم قدمت لها العلبة، فالتقطت واحدة:

- لا أعتقد أني مدخنة بمستوى شراهتك.

- هل أنت حزينة بسبب ماضيك؟

قالت وهي تنفث دخان سيجارتها في الهواء:

- لا عليك، هي أحاسيس تأتي، ثم تغادر.

أمضيت مساء الخميس في الحديقة. طلبت كوب قهوة من مطعم الفندق، وأمضيت ساعة في القراءة. أما ما تبقى من ساعات انتهت عند منتصف الليل أمضيتها بمعية (مارغريت)، تحدثني عما قرأت من روايات، ومن كتب، وعن أيام سافرت فيها إلى بلدان أوروبية. وجدت أنها تقرأ وتسافر هربًا من ذاكرتها. قلت لها ذلك؛ فهزت رأسها معترفة بما درجت عليه منذ سنين. سألتني:

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- هل تكتب أيضًا للسبب نفسه؟

- لا أدري.

قلت لها ذلك في لحظة شعرت فيها بالتباس في المنطقة التي سوف تأتي منها إجابتي؛ فطوحت بصري فوق بنايات (كنغتون) ذات الأضواء الليلية الباهتة، والسكون الممل. فهمزتني بكتفي مبتسمة:

- هل أنت متأكد مم قلت؟

- لا، لست كذلك.

عند انتصاف الليل نهضت (مارغريت) وصافحتني:

- ستغادرون غدًا بعد الظهر، ولن أكون هنا، لكني سأقول لك شيئًا، هذه الحياة مثل الكلب إن خفت منه هجم عليك وآذاك، وإن لم تخش منه صار صديقًا أليفًا لك.

قالت ذلك ثم مشت إلى الداخل بعد أن شيعت لي من وراء الزجاج ابتسامة حزينة.

انطلقنا بعد ظهيرة يوم الجمعة إلى (لندن) مستقلين حافلة أخذتنا من (كنغتون) عبر طريق طويلة يرافقني فيها آخر ما قالته (مارغريت). فعلاً أن هذه الحياة مثل كلب لكنه متقلب المزاج. ارتديت سماعتي الأذنين أنصت لـ(شوبان). أخذت كثير من المشاهد في تلك اللحظة تتزاحم على شاشة الذاكرة، إلا أن صورة آخر دقائق أمضيتها بمعية (مارغريت) تتصدر كل الصور، وآخر ما قالته لي يرن في صحن الذاكرة. كانت الطريق مزدحمة، ونحن على أبواب نهاية أسبوع من العمل، والناس هنا يمضون نهايات أسبوع

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صاخبة.

قبيل المساء وصلنا (لندن)، ونزلنا في فندق غرفتي فيه تطل من الطابق العاشر على نهر (التايمز)، وعلى (London eye). وقفت إلى النافذة، وبي شعور أن آلة الزمن نقلتني من عصر إلى آخر. بنايات وشوارع ذات طراز لم تألفه مخيلتي الشرقية. شوارع تسير فيها عربات يجلس سائقوها على الجهة اليمين. شوارع وأرصفة ذات وعي إنجليزي. لبرهة رأيت (لندن) من نافذة (تشارلز دينكز، وبيرون، وشكسبير)، رأيتها في ليلة عاصفة، يتفقد رجلٌ تلك الفوانيس المعلقة على أعمدتها؛ برهة أنهتها أضواء ساطعة، وزحام، وضجيج. لكنها مدينة لا أصدقاء لي فيها، تصيبني بنوع موجع من الوحشة، والخيبة.

أتذكر كم سنة مرت لأعتاد الصحراء؛ فبعد مضي سنين قصرت المسافة بيني وبين عملي، ووجدتني أحبها أكثر من ذي قبل، رغم قسوتها المفرطة. الأمر أشبه بأن تجد نفسك في سجن مع شخص لا يشبهك؛ شخص منفّر، لكن مع مرور الوقت تعثر على جانب خفيّ لم تره فيه فتحبه، وتتساءل: ما الحكمة في ألا نرى حقيقة الناس، والأشياء مبكرًا. حلمت منذ الصغر بأن أسافر إلى (رومانيا)، من دون أن أعي أن غرض هذا الحلم جاء مما فعلته بي حكايات عمي عزيز عن بلدان يحتفي فيها الماء بالشجر. بلدان لها حيوات تستحق أن تعاش.

بعد مضي سنين عليّ في الصحراء، وحين رأيت وجهًا جميلاً لها لا يراه إلا من يتفرس بقسوتها أولاً، أيقنت أني لا يمكن أن أكون طبيبًا، بل كاتبًا، وأن الحلم السري بالكتابة هو من قادني إلى توقي للسفر. وما كانت دراسة الطب إلا طريقًا إلى ما أريد. لهذا بات هاجس الكتابة رفيقي اليومي في عمل أغيب فيه عن حنينا لأسبوعين. هناك أحلام أبدية، وأخرى يخفت وهجها كلما

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تقدمنا في العمر. في أول العمر نعتقد أن ما نحلم به هو من سيرينا الجانب المبهج من الحياة، من دون أن ندري أنها أحلام مؤقتة، عجولة، متهورة رغم صدقها، تمامًا مثل الحب الأول. وحينما تدفع بنا السنين أمامًا تتبدل أحلامنا، تصبح أكثر بساطة، لكنها الأعمق، مثل رواية تكتب بعد أن عاركت الحياة صاحبها كثيرًا، وتركته ليستريح؛ فكتبها بهدوء وبساطة عميقين.

تحولت غرفتي في الصحراء إلى مكتبة. على الجدار علقتُ جدولاً قسمت فيه سنوات خدمتي للقراءة، ففي كل قسم يمتد لسنتين أو أكثر أقرأ في أحد الآداب. ابتدأت بالأدب الروسي، ووجدتني الأقرب إلى (ديستويفسكي)، ووجدت أفكاره، وأدواته في نبش النفس البشرية الأقرب إلى دواخلي. على الجدار كتبت مواعيد البرامج الثقافية في المحطات الإذاعية العربية والعالمية. كنت مستمعًا جيدًا للراديو في الليل. طالما دونت على الجدار ما خطر بالبال من عبارات شعرية في المنام، ورسمت عليه وجوهًا، وتخطيطات سوريالية؛ فعلةٌ أمَّنَت لي شيئًا من التوازن في لحظات أشعر فيها بترنح جواني. توازن طفيف أخذني في تلك المرحلة إلى سرد مفتوح لا جهة له، حملني إلى كتابةِ زعمتُ أنها رواية أسميتها (الحالة)، أتبعتها بثلاث مخطوطات، اعتبرتها تمارين غير ناضجة، جعلتني أقلع عن السعي إلى الرواية؛ إذ نقصني أن أكتشف نفسي، وأراها مليّاً.

إقلاعي عن الكتابة الروائية زاد من نهمي للقراءة، حتى قراءة الصحف التي لم يكن يهمني فيها شيء مثل الصفحات الثقافية. أتتبع أخبار عالم يعنيني عبر مسافة طويلة، أكبر مما هو بين الصحراء، وبين مدن تضج بالصخب والحياة. كنت أكتب مقالات، وآراء، وقصصًا، وأودعها خزانتي، لأحافظ على توق خشيت عليه من تلك المسافة؛ ففي زمن الجيش لم يكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لي بحكم القوانين العسكرية أن أكتب للصحافة، أو أن أحضر ندوات، أو أي حدث ثقافي. كان عليّ أن أكون الكاتب، والناقد، والقارئ في آن واحد. أمر لم يكن يهمني إلا عندما قررت أن أطلع القراء على ما كتبت؛ إذ وعيت مبكرًا أن الكتابة الأولى لأي نص هي رؤية فطرية للعالم من نوافذنا الداخلية. رؤية مجنونة، متهورة، غير محكومة بشيء. تمامًا كمن يتحدث بسره، وهو يدرك أن لا أحد يسمع ما يقول، وهذا ما حدث لي في كتابة يومياتي. أما الكتابة الثانية يصاحبها شكل غير قمعي من الحرص، والخوف من حفرة الخطأ، لأن ما كُتب سيصبح فيما بعد ملكًا لشخص غير كاتبه، يمضي إليه من زاوية ربما لم تخطر ببال الكاتب.

منحتني مرحلة الصحراء أن أعيش ما عاشه أدباء اجتازوا مراحل كثيرة نحو الاستقرار في مطبخ الكتابة. ودفعتني إلى العيش اللذيذ عند منطقة الكتابة الأولى. لم أكن أدري وأنا كوعل مقيد أتوق نحو عوالم الصخب الأدبي أن عليّ في السنين القادمة أن أحافظ على هذا القرب من النقطة الأولى، وأحميها مما يمكن أن يهددها في أوساط المثقفين، وصخب المدن، والانتكاسات اليومية. طالما اعترفت لنفسي أن الضجيج الجواني هو من جاء بكل ما كتبت. وطالما وجدت نفسي حائرًا فيما إذا عثرت على دواء لهذا الضجيج فهل أوافق مقابل خسراني الكتابة، أم أعقد تصالحًا أبديًا معه؟

حين لمس زملائي علاقتي بالقراءة والكتابة أكثر مما اعتادوا عليه؛ سخروا بوعي من هم على يقين من ألا جدوى مما أفعل. لكنني حافظت على تجاهل ما يرونه؛ فالكتابة بحد ذاتها يد كونية حمتني من السقوط. لم أكن منعزلاً بشكل متطرف، لكني احتفيت بعزلتي بوعي غالبًا ما يؤدي إلى الكتابة. كنت أبدد المسافة بين مقر عملي والثكنة مشيًا رغم ما تفعله شمس الصحراء وهي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

للتو تميل عن مستقرها الأوسط في السماء، أتأمل وجهها النهاري، وأتفكر بزاويتها الأحادية أمام حيوات متنوعة خارج حدودها. ألمس الرمال الساخنة، والأعشاب الجافة، والشجيرات التي تكتفي بزخة مطر واحدة لتعيش عامًا كاملاً. أحدق بالزواحف ذات اللون الصحراوي، وبعصفور يحط على شجيرة ويراقب الأفق اللامتناهي. وكلما مشيت أشرعت نوافذ في مخيلتي. وجه الصحراء النهاري أخذني إلى الشعر لأبتكر عوالم تقف بوجه قسوة الصحراء؛ فكتبت قصائد في تلك السنين تحكي عن أيائل تهبط من رؤوس الجبال محملة بسلال فيها كرات ضوئية لا تنطفئ. وعن نساء يمشين على الماء عرايا. وعن شجر يمد ثماره للعابرين. علمتني الصحراء لماذا الشعر ديوان العرب، وكيف للمخيلة أن تخرج على الواقع، وتناكفه بالخيال.

بعد مرور سنين تبدلت حولي أشياء كثيرة، لكنني بقيت أعاني ما يخلفه غيابي عن حنينا. نحن لا يمكن أن نكفر بأعشاشنا مهما تفجرت العواصف حولها، ليس لأنني شممت أول الروائح فيها، ورأيت أول مشهد لأناس يطرقون أواني معدنية، وهم ينظرون إلى قمر مجزوء الاستدارة خشية عليه من حوت يبتلعه، بل لأني أيضًا أفتقد دفئًا لا أحس به إلا في بيتنا الأول. جعلني ذلك الغياب أخشى على حيوات قادمة لا تتوقف قطاراتها لانتظار أحد.

منذ طفولتي إلى آخر سنوات المدرسة كان أبي غائبًا في الجندية، وها أنا أتبعه في الخطيئة ذاتها. أتعبتني تلك البقعة الزمنية التي بقيت تتسع كدائرة في بحر ألقيت فيه من علو صخرة كبيرة. وبت أشعر أن عليّ أن أكون أكثر قربًا من أبي، ومن أمي، وأخوتي، وعمي عزيز، ومن كتّاب لم أغامر بأن أتقرب منهم امتثالاً للأوامر العسكرية. لكن انعطافة مفاجئة حدثت لي في هذا

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشأن.

في أحد نهارات عام ١٩٩٤ قرأت في الصحيفة إعلانًا عن جائزة تخصصها رابطة الكتاب الأردنيين لغير الأعضاء. ذلك الإعلان أصابني بما يصاب به من يجلس على كرسي من جمر؛ إذ أدخلني في صراع بين ما هو محظور، وبين وما هو مرغوب ومُلِح. أخبرت علي شنينات بما أفكر به. ترددنا في البداية، لكننا قررنا المشاركة. أتذكر ذلك النهار الذي ذهبنا فيه إلى رابطة الكتاب الأردنيين، وكان يترأسها مؤنس الرزاز. يتلبسنا الخوف إلى جانب اللذة في اقتحام الباب الأول نحو الكتابة. دخلنا بخطوات مرتبكة، خجولة، خائفة. شاركت بقصة وشارك عليّ بقصيدة، ثم غادرنا تقودنا نشوة لم نشعر بها من قبل، وولجنا باب الانتظار لنتائج الجائزة. بعد أشهر أعلن في الصحف عن يوم إعلان نتائجها؛ فذهبنا يدفعنا أمل أكبر من الوجع. هناك وفي رابطة الكتاب الأردنيين كان محض استلامي لشهادة تقدير مذيلة بتوقيع من مؤنس الرزاز قد أثار في نفسي غبطة عالية جعلتني في اليوم التالي أضع لهذه الشهادة إطارًا، وأعهد بها لصدر الجدار في بيتنا لأبقى أيامًا أنظر فيها كأني أفتش عن إجابة ما، إلى أن قررت الذهاب مجددًا إلى الرابطة وأقابل الرزاز، أحمل معي عددًا من القصص الجديدة المكتوبة بخط يدي.

كنت آنذاك ما أزال أحيط كل كاتب قرأت له بهالة من القداسة الاستثنائية. قرعت باب مكتب الرزاز وأتاني صوته المتحشرج. كدت أغيّر رأيي، وأعود بسبب مهابة تلبستني لحظتها. لكن شيئًا سريًا دفعني للدخول بخجل واضح. نهض من وراء طاولته، وأنا أمشي نحوه بشيء من التوتر، وصافحني، وسيجارته في يده اليسرى لا تنطفئ. بقيت واقفًا وقد عاد إلى كرسيه، وأزاح جانبًا أوراقًا يعمل عليها، ثم حدق بي باستغراب طالبًا مني الجلوس؛ فجلست

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على طرف الكرسي، ورحت أحدثه على استحياء وتلعثم واضحين: (أعرف أن وقتك ثمين، لهذا لن أطيل عليك). أجابني بصوت خفيض وهو يشعل سيجارة ثانية: (لا عليك).

تلك أول مرة أكتشف فيها أن مؤنس الرزاز مقلّ في الكلام. قلت وهو ينظر إليّ بعينين انتفخ جفناهما: (كتبت عددًا من القصص، فأتيت إليك بعد تحديق طويل في توقيعك على شهادة تقدير حصلت عليها من الرابطة، لتخبرني هل أصلح للكتابة أم لا؟). مدّ يده يريد الأوراق وأنا أمسك بها بيدي الاثنتين مثل من يداري على دليل نجاته من ورطة ما. أخذ يقرأ الأوراق تباعًا إلى أن وصل إلى الورقة الرابعة فحدق بي لقليل من الوقت، ثم عاد يكمل القراءة، بينما بقي رماد سيجارته يتكون إلى أن سقط على الطاولة مع انتهائه من قراءة الورقة الأخيرة.

أشعل سيجارة جديدة، وحرك كرسيه نحوي بحيث صار أقرب، وقال لي بصوت خفيض كمن يخبر أحدًا بسر:

(هل قرأها أحدٌ غيري). قلت له بما يشبه أسى أحاول تجاوزه: (نعم، قرأها زملاء لي في العمل، وأخبروني أن هذا محض هراء). اقترب أكثر، ثم قال لي بوتيرة الصوت نفسها: (اشتغل على ما تكتب، ولا تأبه بالعصي التي توضع في الدواليب. الكتابة مغامرة، والمغامرة بحاجة إلى جرأة كبيرة، فكن جريئًا وكن حرًا) قلت كمن رأى ضوءًا في نهاية النفق: (هل أكمل إذن؟). أطفأ سيجارته في المنفضة بهدوء كأنه يحرص على ألا يؤلمها، ثم أكمل حديثًا اعتقدت أنه انتهى: (كم كتابًا قرأت؟) قلت: (ربما ألف كتاب)، قال وعلى وجهه طيف ضئيل لابتسامة خفية: (اقرأ كثيرًا، لتستطيع كتابة ما وجدتُه في هذه الصفحات). كنت أريد أن أعرف ما وجده، لكن دافعًا سريًا يشبه الحرص في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدم الحديث عن فكرة رواية لم تكتب بعد جعلني أتراجع عن ذلك.

غادرت الرابطة مزهوّاً، أمشي عبر اللويبدة إلى أن وصلت وسط البلد. لم أقل لمؤنس الرزاز إني لم أقرأ له سوى مقالاته، ولم يسألني هل قرأت له أم لا؟ لم يحضّني على قراءة رواياته، ولم يحدثني عن نفسه؛ بل بدا لي مستمعًا بقدر ما كان متحدثًا هادئًا. اقتنيت كل ما صدر للرزاز آنذاك، وفي حافلة أقلتني إلى مادبا وهي تسير بطيئة بدأت بقراءة (أحياء في البحر الميت). ما إن وصلت حتى انتهيت من قراءتها، ثم انعزلت من أجل قراءتها مرة ثانية، لا لأنها كما أشار مؤنس في بدايتها رواية (ليست للقارئ الأرق، بل إنها الأرق بعينه) إنما أيضًا لأنني وجدت انعكاسًا لتشظٍّ داخلي أحسست به ماثلاً في رواية رثت زمننا العربي. ومنذ ذلك الحين واظبت على قراءة رواياته، وما صدر له بعد ذلك التاريخ من سيرة، ومقالات، إلى أن عرفت مؤنس الرزاز مليًا مما يكتب، إنسانًا آذته انكسارات الإنسانية، وانكسارات الإنسان العربي من غير أن يخفض من صوته، أو يبيع قلمه، أو يهادن من أجل امتيازات من نوع غرق الكثير في مستنقعاتها. عرفته روائيًا يذهب إلى بياض الصفحة وهو يعي كم عليه أن يكون مغامرًا وجريئًا، ومجددًا، وحداثويًا.

في ٨/٢/٢٠٠٢، كنت أخطط لأذهب أثناء إجازتي إلى مكتب مؤنس الرزاز في وزارة الثقافة لأطلعه على ما لدي؛ إذ انتهيت من كتابة عدد من القصص، ومرت ثماني سنوات على لقائي الأول به. يومها تأخرت الصحيفة عن الوصول لموقع عملي؛ وصلتني مساء مع أحد الزملاء؛ فوجدت خبر وفاة مؤنس الرزاز يتصدر العناوين. كنت مستلقيًا على سريري والصحيفة بين يدي. نهضت، وأخذت ألتف حول نفسي كمن وجد نفسه محاطًا بعدد من الدبابير. غادرت الغرفة، ومشيت باتجاه ظلمة صحراوية تحت سماء تفجرت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فيها نجوم، وشهب، ونيازك تهطل بغزارة. ما أتذكره، أني افترشت الرمل، ووضعت رأسي على ركبتيّ، وانتحبت، ثم تمددت على الرمل بعد أن أطلقت صرخة كان عليّ أن أفعلها، وبقيت أراقب النجوم والشهب والنيازك كيف ترثي رحيل إنسان بحجم مؤنس الرزاز.

منذ ذلك اليوم كُسِر حاجز الخوف بيني وبين الأنشطة الثقافية؛ فصرت مواظبًا على حضورها من غير أن أتحدث مع أحد. أجلس في الصفوف الخلفية متواريًا وراء صمت حذر، أحمل دفترًا صغيرًا وقلمًا، أدوّن ما يلفت انتباهي. حدث ذات مرة أني عدت من الصحراء التي تبعد في السيارة مسير خمس ساعات. لا أمتلك سوى أجرة الطريق، وقليل من التبغ الرخيص، وأوراق (أوتومان) لأجل صنع سيجارة. ذاهبت إلى ندوة في رابطة الكتاب الأردنيين، يتحدث فيها الدكتور هشام غصيب عن الفلسفة. معظم الحاضرين مدخنون، وأثاروا شهيتي لسيجارة لم يكن مناسبًا أن أقوم بلفها وإشعالها بينهم. كان تدخين هذا النوع من التبغ مستهجنًا؛ فذهبت إلى الحمام، أدخن ومكبر الصوت يرسل لي ما خشيت أن يفوتني من الندوة. ما إن رآني هشام غصيب عدت، حتى نظر إليّ، يتأمل شابًا شعره قصير، وهو الوحيد الذي يدون في دفتره. حينما انتهت الندوة طلبت ورقة محاضرته، فسلمها لي بعد أن سألني: من أنت؟ اعتقد أني رجل أمن. واكتشفت فيما بعد أن أكثر من شخص هناك تبنوا ذلك الاعتقاد.

كنت أدخل إلى قاعات الندوات صامتًا وأخرج صامتًا. أنصت لكل كلمة تقال، وأعرف من هذا ومن هذه. لا أنخرط في أي نقاش، ولا أبدي رأيًا، إلا في أمسية وحيدة جرت في بيت الشعر الأردني لقاسم حداد أدارها الراحل حبيب الزيودي. في حديقة بيت الشعر وجدت جمال ناجي رحمه الله،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقاسم حداد وآخرين يجلسون حول نافورة ماء؛ فجلست على مقربة منهم. شاب بملامح بدوية مأخوذ بعَمان ذات المزاج الشعري العالي للتو، وبرائحة كتب تخرج طازجة من المطابع مثل عطر على ثوب امرأة تتغاوى بأنوثتها، وبصورة الكاتب خارج نصه، وخارج احتمالات القداسة. كان جمال ناجي يحدق بطائرة ورقية تتصدر صفحة السماء، بقي لدقائق يراقبها وحنين بادٍ لزمن الطفولة يفضح وجعًا متواريًا في روحه. التفتَ إلى رجل في مقعد قريب منه، وقال يعاتب زمنًا مرّاً: (يا أخي كيف غادرنا طفولتنا ولم نعِ أن ما من حياة حقيقية غيرها) ثم اتسعت دائرة الحديث إلى أن جاء ذكر (غاستون باشلار) على ألسنتهم، يحكي رأيه بالطفولة وأسرارها. كنت أيامها خارجًا للتو من عوالم (باشلار)، وأدرك أن ما من متحدث لبق، إن لم يكن مستمعًا جيدًا؛ فأنصتُ طويلاً وأنا أعي ما معنى أن أجلس بين أناس ليس فيهم من يعرفني. كنت محض ولد يدمن القراءة، ويحلم بسماء شاسعة توفرها له الكتابة. قلت: (إن باشلار أعظم من قادنا إلى استعادة دهاليز الطفولة وأعشاشها) التفت جمال ناجي نحوي، ثم عاد يحدث رفيقه من دون أن يعيرني أي انتباه. عدت أنصت إليه متحدثًا عن (باشلار) كيف رأى النار عند القرويين وهم يلتفون حولها في القُرى. قلت مقاطعًا: (القرى التي تحدث عنها باشلار غير القرى في الشرق). لكن ما من أحد أعار الانتباه لشاب نحيل القامة، خجول النظرات، خفيض الصوت مثلي؛ لهذا انسحبتُ إلى الداخل أنتظر أن تبدأ الأمسية، وبي شعور غريب كان قد تشكل للتو يشبه الكره لجمال ناجي.

مرت سنين، قرأت فيها كل ما كتب جمال ناجي، والتقينا في رابطة الكتاب الأردنيين، في أمسيات، وفي لقاءات انتخابية، وفي ندوات، تحدثنا بعجالة كنت بعدها أغادر سريعًا والطائرة الورقية تحلق في بالي، إلى أن أتاني منه اتصال هاتفي عام ٢٠١٥ يمتدح فيه روايتي (أفاعي النار) وكيف أخذ بها. صار

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جمال ناجي صديقي، ليس لأنه قال ما عنده بحق الرواية، بل لأني عرفت من هو جمال ناجي الذي لم يصنع عداوة مع أحد، ولم يخبئ في قلبه ضغينة لأحد، ولم يصنف الناس وفق آرائهم وميولهم، وانتماءاتهم. إنسان محب للجميع. قبل رحيله بأشهر اتصلت به أطمئن على صحته. كان رائقًا وطيبًا وبشوشًا رغم فقده لأخيه جمعة، ولشقيقته. وجدته متفائلاً، متسع القلب، يشير إصبع روحه إلى الحياة وهو يختم المكالمة ضاحكًا: (لا تكون بعدك زعلان من اللي صار في بيت الشعر يا ولد، رغم أني ما بتذكره).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

6

في الصباح غادرت الفندق إلى شوارع في (لندن) التي أجهلها، أجهل حيواتها، وما يحدث فيها. في الشوارع خليط من الوجوه، هكذا صار الغرب في السنوات الأخيرة؛ لاجئون كثر هربوا من مدن الحرب، والجوع، والإحباط، إلى مدن الحرية، والفرص الموعودة بعيش كريم. لكن عددًا منهم وجدوا أنفسهم بلا مأوى، وأمام تهمة بتبديد ثقافات الآخر.

في شارع (إكسفورد)، أنظر إلى المارة، وهم يمشون بخطوات عجولة إلى وجهاتهم. لا مجال للتأخير في مدن مثل هذه لن تتفهم مثلاً إصابتك بمغص مفاجئ أقعدك في الحمام لنصف ساعة. لكن هذا ليس الوجه الوحيد لـ (لندن)، مدينة حيوية، لا مجال فيها للملل. إنها وجهة نظر لزائر؛ فنحن عادة ما نحكم على المدن التي نزورها مما نراه، وغالبًا لا يرى كل شيء في تلك المدن إلا ساكنوها.

ألقيت بي في سيل المارة، أمشي بتمهل، أتأمل متاجر تبيع بضائع إنجليزية كلاسيكية، وبضائع بماركات عالمية شهيرة. لم أعرف إلا مؤخرًا أن بعض ما كنا نشتريه من ملابس (البالة) هي ماركات شهيرة. كنا نحتفي فقط بجودتها رغم رائحتها المميزة. تعبت قدماي جراء المشي؛ فجلست إلى طاولة قرب البوابة الزجاجية في مقهى (yellow submarine) أشرب قهوة، وأراقب الشارع، وأقيم ذلك الصباح. الغيوم الرمادية لم تنتشر في سمائي بعد، وموسيقاي الداخلية تستريح من مهمتها المعتادة. أذهب إلى حيث توقفت عن القراءة في (موسم الهجرة إلى الشمال) وأقرأ عدة أسطر ثم أتوقف، وأفتش بين المارة عن مصطفى سعيد. أميط اللثام عن حزنه، وموسيقاه الداخلية، وشبقه السري؛ فأراه بين الناس، يعقد يديه وراء ظهره ويمشي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متأملاً شيئًا غامضًا في الأفق، ومن ورائه يتبعنه: (جين مورس، شيلا غرين وود، آن هاموند، إيزابيلا سيمور، السيدة روبنسون) وطيف غير واضح لامرأة ليست إنجليزية.

للمكان سلطة ينفذها الحنين ببراعة مخادعة، نقع في غرام أمكنتنا الأولى، ونقع أيضًا في غرام أمكنة أخرى لا شيء فيها يعني ذاكرتنا الأولى. الأمر أشبه بكاتب تتجه بوصلة قلبه نحو النساء لسبب غامض؛ فيجد نفسه أسير شكل موجع من الفوضى الداخلية، ليتساءل: أين أنا؟ أين جهتي التي أركن إليها، وأعثر عليّ، بلا كل ذلك الصخب؟

في الطائرة وقبيل الإقلاع مغادرا بريطانيا، أعود الى حيث توقفت في قراءة (موسم الهجرة إلى الشمال). ينتحر مصطفى سعيد في النيل، أو هكذا يعتقد الراوي الذي خيل له أيضًا أن مصطفى سعيد مجرد وهم لا أساس له. ويستمر الراوي بالبحث في أوراقه ومقتنياته، سعيًا إلى اكتشاف سر ذلك الرجل؛ فيقرأ الرسائل، وقصاصات الصحف، ويشاهد الصور. ثم يمضي إلى النيل، ويهبط فيه محاولاً الانتحار لكنه يتراجع انتصارًا للحياة. أتساءل: هل الراوي هو الجانب الآخر لمصطفى سعيد الرافض للمستعمر، والمعجب بثقافته في الآن نفسه، في حيرة ثقافية، وفكرية، ووجودية قصوى؟ ينتحر مصطفى سعيد الحائر، سواء كان موتًا أو غيابًا، ويتراجع الراوي عن قراره في الانتحار. أعتقد أنهما شقان لصورة واحدة بين يدي الطيب صالح يحدق بهما مليًا.

أودعت الرواية حقيبة اليد، ورحت أنظر إلى (لندن). كلما صعدت الطائرة نحو السماء أكثر، تصغر تلك المدينة. تصير بناياتها مثل علب كرتونية ضئيلة الحجم، وشوارعها مثل خطوط على صفحة عتيقة. تبتعد عن عالم ليس من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السهل فهمه، زاخر بالمصائر المرتقبة، والطرائق المتنوعة في العيش، وعن حكايات لا يمكن لنا أن نقرأها جيدًا إلا إذا كنا هناك، في أوج ذلك الصخب.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الفصل الثالث

في أول مرة حلقت الطائرة بي مسافرًا، شعرت بغصن ينمو في كتفي، وسمعت الماء يخبرني بأسراره الدفينة.

حالة بملامح غير مرئية

وحيدًا تمشي في شوارع المدينة، لا ترى ولا تسمع سوى موسيقاك الداخلية. موسيقى لا يعكر انسيابها شيء رغم ضجيج المدينة وصخب ألوانها في مثل هذه الليلة. تتساءل وأنت مرة تعقد يديك على صدرك وأخرى تودعهما جيوب البنطال: (لست كئيبًا، لست حزينًا، لست ضجرًا. ما الذي يحدث لك إذن؟)

تترك الرصيف عابرًا الشارع إلى مقهى لم يرتده أحد غيرك، تجلس إلى طاولة تطل على الشارع ذاته، تطلب فنجان قهوة. تشعل سيجارة وتعب منها نفسًا عميقًا وترخي بدنك على مسند الكرسي، وموسيقاك ذاتها تحوم في مسامعك. تصاب رغم أنك لست حزينًا برغبة في البكاء، لكنك لا تبكي. التفتَ نحو عامل المقهى وهو يرخي رأسه بين كفيّ يديه ساهمًا في لا شيء. من شرفة لبناية مقابلة تلوح امرأة ساهمة في الزحام. تتمنى لو تومئ لك، وتدعوك لحضنها. كنت ستقول إنك لا تريد إلا أن تلقي برأسك على صدرها، ربما تبكي رغم أنك لست حزينًا. تضع بضعة دنانير على الطاولة وتغادر المقهى. يأخذك الزحام من شارع إلى آخر، من رصيف إلى رصيف، وموسيقاك تلاحقك، تثير فيك إحساسًا غريبًا، ليس حزنًا، ليس ضجرًا، ليس تعبًا. تتساءل مرة أخرى، ثم تقرر مغادرة الزحام.

تنتشلك سيارتك من ضجيج كنت فيه لا تسمع ولا ترى. تجد نفسك، بعد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

مسير خلا حتى من التأمل، في رأس جبل (نيبو). تلقي ببدنك على ترابه، تتسع السماء فتتناسخ النجوم من بعضها، وتستزيد نسمة الريح من تبخترها في صمت ذلك الليل. الكائنات صامتة. وأنت لا تفكر في شيء. لكنك تكابد شعورًا غريبًا يقض مضجع قلبك الذي تنهره موسيقاك كنحلة تطارد وردة تهتزّ. تجلس، تمشي، تقف، تسرع من خطاك، تقرفص، تتمطى في الهواء. تصاب بالحيرة. يلوح البحر الميت أمامك كجبين قبالة ضوء خفيف، تقلك سيارتك عبر الطريق الملتوية إليه.

لا ريح تبتكر موجة. لا جزر، ولا مدّ، محض صفحة ماء مالح. تجلس إلى الشاطئ، تشعل سيجارة وتدخن بما يشبه الأسى. تقبض يدك على حفنة من الرمال ثم تنثرها في الماء، فتُحدث صوتًا خفيفًا. تعاود تلك الحركة مرة أخرى. ثم تستلقي على الرمال والماء يغمر نصف جسدك. ازداد عدد النجوم؛ فبدت السماء مزدحمة بالضوء. يهاجمك الإحساس ذاته. تحتار به. تخلع ملابسك، تتعرى تمامًا وتهبط في الماء. ترخي بدنك فتطفو مثل غصن ناشف. تهاجمك موسيقاك أكثر، وتهاجمك خيالات، ووجوه، وأصوات، ولمسات، وهتافات، وكلمات حميمة، وكلمات قاسية، وصراخ، وكلمات معاتبة. مرة واحدة تحرك يديك وقدميك، تجدف الماء نحو منتصف البحر، تجدف، تجدف، فتصاب بالتعب، فتعود إلى الشاطئ، تتهالك على الرمال؛ فيأخذك بكاء مرير، توغل به وأنت لا تسمع ولا ترى، بينما الموسيقى تحوم عند رأسك كيدٍ من وهم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سر الموسيقى... سر النشيج

أرمينيا

لا حدث مقنع بأن لهذه الأرض

أكثر من أربع جهات إلا السفر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

1

منذ أن أقلعت الطائرة نحو (أرمينيا) سلمتُ نفسي لـ (رسول حمزاتوف) يحكي كيف طلبت منه جريدةٌ أن يكتب تقريرًا عن (داغستان) في بضع صفحات. سخر من الموضوع، وممن يريد من شاعر أن يختصر حبه لبلاده في صفحات قليلة؛ فقادته سخريته إلى كتابة: (داغستان بلدي). بعد أن قطعت الطائرة نصف المسافة أغلقتُ الكتاب وأرخيته على رجليّ، أنظر إلى السماء والشمس تشارف على الغروب، أستعيد منامًا طفوليًا كنت أراني فيه أركض على الغيم، وعبارة (حمزاتوف) التي ابتدأ بها كتابه ترن في مسمعيّ، كخلخال في قدم راقصة جميلة:

(أيها المسافر، إذا لم تعرج على منزلي فليسقط البرد والرعد على رأسك، البرد والرعد...

أيها الضيف: إذا لم يرحب بك منزلي فليسقط البرد والرعد على رأسي، البرد والرعد...).

هذه روح في أعالي درجات نقائها، وسخائها، وانتمائها للحياة. (حمزاتوف) شاعر من طراز يوجعك جمال ما يقوله، يكتب بلاده كما لو أنه عصفور يدرج مبتهجًا على حبل غسيل عامر بالقمصان الملونة. شاعر ألتقي به من جديد على أرض الورق، بعدما رأيت عمي عزيز يرخي ظهره على جذع شجرة الزيتون في بستان جدي، ويقرأ له بتلذذ كبير. قال عنه إنه شيوعي غير جامد، وقومي يفهم أحلام داغستان، وشاعر يعرف جيدًا ما معنى الحب، والشعب، والوجع، والتطلعات، وحقائق لا يصل إليها إلا القلائل. قال لي إنه التقى به في (موسكو) في السبعينات، وتحدث معه لدقائق قليلة، عرف من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خلالها كم هو ثاقب الرؤية، وكم هو شاعر ولد في ليلة تصلح للشعراء.

أشار صوت أنثوي ناعم بإيقاع يشبه البشارة، إلى أن الطائرة تقترب من سماء (أرمينيا)، وبعد ربع ساعة بدت لي وهي تهوي بهدوء نحو (يريفان) مثل ريشة أفلتت من جناح حمامة وراحت تهبط على مهلها نحو الأرض. كانت موسيقاي الداخلية غافية، ومزاجي صافيًا، وبي إحساس يشبه إحساسًا غمرني يوم حظيت بدراجة هوائية بعد سنين من الإلحاح في زمن الطفولة. لم تكن (أرمينيا) في قائمة البلدان التي أتمنى زيارتها، ولا أعرف عنها إلا ما يعرفه أي عربي بعيد تلك المناطق الخارجة من حقبة (السوفييت) وهي تتلمس دربها بهدوء نحو زمن جديد. ذهبت ألبّي دعوة لمهرجان سيجتمع فيه روائيون يتحدثون عن الإرهاب في الأدب.

ها أنت تقبل على بلاد علاقتها بمخيلتك بِكر إلى حدّ سيصير ما تعرفه عنها مجرد إشارات بسيطة تومئ إليك بها الذاكرة. قبيل السفر سلحتُ المخيلة بحكايات، وأحاديث ورسومات عن (أرمينيا)، بلاد تعجن هواءها الجبال بتمهل وروية. حكايات عن العذابات، والمسرات، وشكل الطيور، وإيقاع الأغنيات، وشكل الوجوه، وصعود الطرقات وهبوطها، وقصائدها، ورواياتها، وجبال إن صعدتُ إلى قمتها حتمًا سأكون أقرب إلى الله. إن سكان الجبال هم الأقرب إلى الله، تحالف شعري بين الجغرافيا، والروح التي تعي ما وراء التحليق.

بدت (يريفان) والطائرة تهبط إلى الأرض، مدينة توشحت باخضرار تخالطه أشعة شمس الغروب. الجبال كهول بدلوا بياض الرأس بمسرة الأشجار بعد حفلة مطر آسرة. البيوت بلونها الورديّ حكايات قديمة تناثرت على مسرح نهار دافئ. الطرقات خطوط كف ما توقفت عن التلويح للأمنيات. والسماء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

صافية، تمامًا كالضحكة على فم وليد أصابه النهر بالدهشة.

في المطار وجدت فتاة تنتظرني وبيدها ورقة كتب اسمي عليها بالإنجليزية، ستصحبني إلى فندق في الحي الرئاسي حيث يقيم ضيوف (مهرجان أرمينيا للأدب). فتاة في منتصف العشرين من عمرها تحافظ على ابتسامة بريئة ترتدي وجهها الجميل. ما إن تجاوزتُ بوابة المطار حتى لفحتني نسمة الأماكن الجميلة. طلبت مني الفتاة أن أنتظر قليلاً من أجل اتصال هاتفي ستقوم به. اقترحت عليّ أن أصعد السيارة، لكني أرخيت حقيبتي من يدي، وجلست على مقعد في طرف شارع يركض من مبنى المطار نحو (يريفان)، أملأ رئتي بهواء قادم من شهقة الجبال وهي تقف في عقر الأفق، مثل أنصاب تدل العابر على أسرار اللحظة.

في سيارة أقلتنا من المطار قالت الفتاة إنها متطوعة من أجل أن يعرف العالم عن بلادها. تحب بلادها، والبحر، وقطتها، وشابًا يعمل ليل نهار لأجل أن يختطفها نحو عش الزوجية. كمن يختلس النظرات، استحالت عيناي إلى آلة تصوير تلتقط مشاهد سريعة للأشياء: (امرأة تحني ظهرها قرب نافورة ماء في الشارع، وتشرب، ثم تغادر. عصفور يحط على شجرة، يتلفت قليلاً ثم يفر نحو شجرة أخرى. امرأة تجلس في مقهى على الرصيف، وتقلب دفتر الشارع بعينيها الواسعتين. أطفال يمرون مبتهجين. عربة تمشي على مهل، كما لو أن سائقها يداري على شيء في التراب، ويتلو من أجله صلوات سريعة، شاب في مقتبل العمر يقلب كتابًا وهو ينتظر الإشارة الضوئية، لتمنحه لحظة العبور نحو الطرف الآخر من الشارع).

Telegram:@mbooks90

تهاجمني الصحراء؛ فأسمع صفير الريح. لكني أنفض رأسي خشية انحدار مفاجئ لمزاجي. يبدو أننا لا نرى الأشياء بمعزل عن ذاكرتنا، كأن يرى أحدهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شجرة وفي ذاكرته طيف شجرة أخرى تتقاطع بها، ترسم لها شكلاً جديدًا، وروحًا مغايرة لما يراه الآخرون. تلاحقنا ذاكراتنا بلا فكاك، وتعيد صياغة العالم كما أعد لها. يصيبني الشرود وأنا أتأمل الشاب الذي يقرأ وهو ينتظر اخضرار ضوء الإشارة. ربما هو هارب مثلي نحو الكتابة. ماذا لو قلت له إني ما زلت هاربًا منذ سنين بعيدة وتكاد رئتاي أن تنفجرا. لكن هل أنا هارب حقًا؟ أم أني أركض نحو الوحش لأقتله؟

في الصحراء كتبت الشعر أتوسل الأشجار، والينابيع، والظهيرات الرائقة أن تقف ضد الهجير، وسحب الغبار. وحين غادرتها فوجئت بها تتبعني. كانت ذاكرتي وفية لتلك السنين على نحو غريب يخالف توقي لعوالم جديدة، وسعادتي الكبيرة بأن صار لي أن يطل رأسي من عتمة التواري، وأهمس ناطقًا بكلمات خبأتها سنين؛ فأعلن عني كاتبًا أمضى زمنًا يعكف على ورقة يرسم فيها بابًا يحلم بتجاوزه. تتبعني الصحراء بمزاجها المتقلب، ويتبعني حدس أن هناك أشياء يصعب أن نقصيها من طرقنا، واقع أبدي يبدو القفز عنه حلاً وحيدًا تقدمه لنا الحياة. قبلت بالصحراء رفيقة لي وأنا أتقلب في زحام المدن، أفكر بالكتابة، والفرصة سانحة لي: ما الذي يعنيه أن تخطو نحو القارئ وتمد يدك إليه بورقة فيها كلمتك؟ يبدو الأمر كأنك تمشي إليه عاريًا تتوكأ على عصا حقيقتك البيضاء! أم أنك تشير إلى مساحة فيما كتبت ربما يريح رأسه عليها، ويمضي معك بالحلم؟ إنهم يقرأون ليطمروا الجرح بغبار الكلمات. إنهم يقرأون من أجل نافذة تطل على بحيرة لا تطأها كائنات القلق. يقرأون لعلهم يعثرون على كتف مواس يجيء لهم بإغفاءة لذيذة. يفعلون ذلك سعيًا إلى نور يهد كتف الظلمة. كانت خطوة صعبة، بل قرارًا فيه الكثير من التلكؤ في الذهاب للاعتراف بخطيئة ستتكرر. أتذكر يومًا رافقني فيه الشاعر حاكم عقرباوي إلى مكتب (أفكار) مجلة كان يديرها الشاعر محمد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

سلام جميعان. بتردد ألقيت على طاولته عددًا من الأوراق. قرأ الصفحة الأولى، وحدق بي، ثم راح يقرأ بصوت خفيض: الريح خارج غرفتي تعوي، كطفل أضاع الجهات وأقعى ينتحب. تساءل مستغربًا:

أين كنتَ كل تلك السنين؟

تذكرت ليلة صحراوية هُزم فيها التيار الكهربائي أمام عاصفة شديدة الريح، والغبار، والبرد القارص. كنت في غرفتي أصارع العتمة بشمعة تهز الريحُ المتسللة من ثقوب في أطراف النافذة شعلتَها؛ فترتسم على الجدار كائنات تشبه نساء ينحن وراء جنازة تشيّع فارسًا راح ضحية للمكيدة. حدث ذلك في أحد أيام نهايات الأسبوع، لا أحد في الثكنة غيري، بلا سجائر، ولا قهوة. تحيط بي طيور الوحشة، وتخدش روحي مخالب الكآبة. استلقيت أتوسل أحصنة النوم أن تأتي وتهرب بي إلى مدن مساءاتها عامرة بالسكون. من خارج الغرفة أتى نواح الريح يحز روحي بسكينه الحاد، فرحت أكتب ما بي على الجدار.

ضربات عدة من يده على الطاولة أخرجتني من شرودي؛ فأخذت أنظر إلى مدير التحرير وهو يعيد عليّ سؤاله؛ فقلت: سؤال قصير يستلزم إجابة بحجم صحراء عشت فيها ستة عشر عامًا.

يوم صدرت المجلة وفيها قصيدتي أصبت ببهجة من اجتاز سيلاً جارفًا فنجا. جلست قبالة أبي وأشرعت المجلة على الصفحة التي يعلوها اسمي. قرأ، ثم نظر بي ممتدحًا ما فعلته بابتسامة طفيفة وكلمة خاطفة. رأيته فرحًا رغم عجزه عن التعبير في هكذا مواقف؛ إذ اكتفى بكلمات قليلة صادقة. وجدت أمي يومها تعد طعام الغداء. وقفت قربها، وقرأت لها بتلذذ ما كتبت. بقيت عيناها الدامعتان تتفرسان وجهي كمن يتأكد من ملامح عائد من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البعيد. حينما انتهيت جففت يديها، ولامست المجلة، ثم قبلتني على خديّ. بدت كلماتي مرتبكة، تتعثر بصوتها الباكي وهي تمتدح ما فعلت.

في تلك السنة من صيف ٢٠٠٧ طرقت أبواب معظم الصحف الأردنية؛ فنشرت لي قصائد، ومقالات. وفي العام الذي يليه نُشر ديواني الأول (كأي غصن على شجر). يوم أن صدر الديوان حملت النسخة الأولى منه، وكتبت إهداء إلى عمي عزيز، ثم مشيت نحو بيته، تحديدًا إلى فرندة بنيت لاحقًا قرب أشجار السرو والفلفل، حيث يفضل أن يجلس. خلال المسافة القصيرة بين بيتينا أمدتني الذاكرة بتفاصيل يومٍ قال لي فيه اقرأ (البؤساء). ناولته الكتاب؛ فقرأ الإهداء، ثم قبل الكتاب، وقبلني وقال بحماسة: الآن دخل اسمك التاريخ. لم أكن أفكر ما يعنيه أن يخطو واحد مثلي إلى دفاتر التاريخ. قرأت كتبًا كثيرة، ولم أكترث إلا بما يقال، ولم أتتبع سير من قرأت لهم إلا فيما بعد. كانت القراءة لحظة انفصال كلي عما حولي، وتماهٍ بما تقدمه لحظتها الآسرة، وكأني الكاتب. كنت أقرأ هربًا، وأكتب هربًا.

في صيف تلك السنة مات عمي محمد، والتحق به عمي ضيف الله وهما في عمر الشباب. رأيت جدتي ترخي ذقنها على عكازها الخشبي وهي تراقب نجمة في الأفق. حزينة بقدر أغرقها في صمت جارح. حاولت أن أخفف من وطأة ما تقاسيه. قالت وهي تهز عكازها يمينًا وشمالاً: وضع الموت يده في قِدرنا. لقد أصابتهم العين الحاسدة.

أما أبي فقد كتم حزنه، ولم يتعاطف حتى مع من يبدي مشاعر مثل هذه. اعتقدت أنها قسوة رجل دربته الجندية على ذلك. لكني فوجئت بخطأ اعتقادي بعد أن رأيته يبكي متواريًا عن الأنظار. أما عمي عزيز فقد دارى حزنه، وأشرع ذراعيه ليحافظ على تماسك العائلة، أمام خشيته عليها من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الانهيار. مع الأيام صالحتنا الحياة مع الحزن. أن نتصالح مع حدث صداه في دواخلنا، فإننا نسترضيه، ونتوسله أن يكف يده عن لمس جراحنا لتلتئم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

2

وضعت حقيبتي في غرفتي في الفندق، ورشقت جسدي بقليل من الماء بعجالة جائع لم يذق الطعام منذ يوم ونصف، وغادرت مع الفتاة إلى مطعم في قاع المدينة ضم كل ضيوف المهرجان. جائع لأن الذي حدث لي يشبه ما يحدث لواحد يسافر لأول مرة. ليلة أن كان عليّ المغادرة إلى دبي، ومن ثم إلى (يرفيان)، هاجمني الضجيج الجواني بضراوة؛ فاختلط كل شيء حولي، وبي. كل ما أتذكره أني استفقت صباحًا ونظرت في ساعتي، ووجدت أن هناك وقتًا بيني وبين الساعة الواحدة حيث ستقلع الطائرة. عند الظهيرة وقفت أمام الموظف في المطار ليعطيني تذكرتي. ابتسم وقال بشيء من الإشفاق: طائرتك غادرت الساعة الواحدة صباحًا؛ فاشتريت تذكرة جديدة، بسعر مرتفع، ولا تشمل وجبات الطعام، مع انتظار في مطار دبي ليوم كامل. وما تبقى معي من مال دفعته ثمنًا لمبيت ليلة في فندق في مطار دبي، والباقي اشتريت به سجائر. كان يمكنني أن أعتذر عن السفر إلى تلك البلاد، لكني كنت سأجد عند باب المطار وأنا أتركه عائدًا، شوكة سيغور رأسها في جبين روحي، حينها سيختلط عليّ كل شيء، وتحاصرني الكآبة. يصير الفرار في مواقف مثل هذه، حلاً، لكنه مؤقت لا يفضي إلى شيء.

انضممت إلى ثلاثين مدعوًا للمهرجان، ووجدت أني العربي الوحيد بينهم، وأن الحميمية التي خبرتها في المهرجانات العربية غير متوفرة في هذا الفضاء الجديد. شعرت بوحشة جعلتني أخرج من المطعم، أقف ببابه، وأدخن، وأكتفي بتأمل المكان. يمكن للأمكنة التي نراها للتو أن تبدد ما يتراكم على زجاج الروح من رماد غامض ونحن نحاول فهم تفاصيلها، وأسرارها؛ إنها تتحالف في لحظة مباغتة مع ما أسست له الذاكرة من وعي عاطفي بما يمكن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أن نرى. حميمية لا تتحقق إلا في المواجهات الأولى مع المشاهد البكر بعيدًا عن الرتابة.

وقفت بقربي سيدة أربعينية وصافحتني: قالت إن اسمها (قوهاش)، شاعرة، وكاتبة مقالات. أخبرتني إنها أقلعت عن التدخين منذ سنوات، وإن السيجارة طالما جعلتها تقف وحيدة خارج أمكنة مثل ذلك المطعم، لكنها أحيانًا تدخن واحدة بعجالة. قلت لها إني أكره القطيعة الدائمة. لم يحدث أن بترتُ علاقتي بالناس والأشياء تمامًا؛ ثمة خيط أتركه بيني وبين من عليّ أن أوسع الهوة ضد ما يؤذيني منهم. إنه خيار حياتي مهم، رغم ما يضيفه لروحي من تعب؛ فالقوارب ما تزال تنظر إلى الشجرة وهي في عرض البحر تواجه العاصفة. والناي يتذكر أمه وهو بين يدي العازف ينفخ فيه، معتقدًا أن كل ما جاء به من ألحان، وراءه أصابعه، وفمه المنهمكان بالأغنيات. والخنجر إن سقط؛ فإن رأسه أول ما يلامس الأرض، يتذكر أصله الذي بُتر عنه وأخذ عنوة إلى باحة المعركة.

جلست بقربي، ثم راحت تحدثني عن (يريفان)، وعن الشعر، ووعدتني أن تطلعني على بعض قصائدها المترجمة إلى الإنجليزية. رأتني صامتًا على وجهي شيء من التعب؛ فتطوعت أن ترافقني إلى الفندق؛ إذ لم تكن المسافة بعيدة؛ فأمضيتها منصتًا لما تقوله عن مدينتها. يحب الناس مدنهم، ويحبون وصفها من جهة الشعر، خاصة للغرباء. وحينما يلوذون بأنفسهم فإنهم يرون عيوبها، وأحلامها التي لم تتحقق بعد.

في ذلك المساء حاولت امتثالاً للتعب أن أنام باكرًا، لكنني لم أستطع أن أفعلها بسهولة. استلقيت في السرير قبالة أضواء (يريفان)، ودبيب خفيف لموسيقاي الداخلية يسعى إليّ، ويعدني بمزيد من الوحشة؛ وحشة اليوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأول للأمكنة، أو ربما هي وحشتي التي باتت تغزوني بضراوة في السنوات الأخيرة، كما لو أن الحبل الممدود بين جبلين في روحي، وعصافيري المفترضة تحط عليه قد ارتخى، وصار عرضة لريح غامضة تهزه من دون انقطاع. مثلما تصيبنا الأمكنة الجديدة بنوع طريف من البهجة، تصيبنا أيضًا بارتباك العصافير في الفخاخ؛ فعلة الإنسان الذي بدّل كلمة القتل فيها بكلمة الصيد؛ فأعطى لنفسه شرعية وهمية ليتجاوز ألم خطاياه.

حملت دفتر يومياتي ورحت أدون تفاصيل نهاري؛ شتمت موظف المطار المتعجرف وهو يحدق بجواز سفري، ومن ثم بوجهي مثل من يفتش عن مجرم مطلوب للعدالة. امتدحت نهدي امرأة كانت تجلس بجانبي في الطائرة، وبينهما عقد ذهبي يغور آخره في مخبأ الدفء. حكيت عن مدعوي المهرجان الذين رأيت البلاهة في وجوه نصفهم. وقلت ما عندي عن (قوهاش). قلت كل ما عندي، وتنفست الصعداء، وأعدت الدفتر إلى مكانه، واستلقيت في السرير أقرأ ما يقول (حمزاتوف) في (داغستان بلدي):

(لماذا أعطي الإنسان عينين وأذنين ولسانًا؟ لِمَ كان للإنسان عينان وأذنان، وليس له إلا لسان واحد؟ القضية هي قبل أن يُخرج اللسان الكلمة، أية كلمة، في طرفه ويطلقها في العالم، يجب على العينين أن تريا، وعلى الأذنين أن تسمعا. الكلمة المنطلقة من اللسان كجواد هابط من درب ضيق وعر إلى فضاء فسيح وممتد. وأتساءل هل يمكن أن نطلق في العالم كلمة لم تكن قد عاشت في القلب؟)

لم أقل كلمة لم تعش في القلب، بل إني أكتب يومياتي حتى لا تؤذي كلماتي قلبي، حتى لا تصير مثل شوكة تغور في الجلد وتنكسر، ثم رغم صغرها تخلّف ألمًا كبيرًا. الأشواك صغيرة لكن نجاحها في اختراق سطح

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجلد يحولنا إلى كائنات أصغر منها، رغم ما يفرضه المشهد من ضخامة أجسادنا مقابل الأشياء والكائنات ضئيلة الحجم. مرة توقفت سيارة على طرف طريق تؤدي إلى بيتي، يجلس إلى جانب سائقها رجل طالما ناصبني العداء، بل حتى أنه توغل في إيذائي. كان مريضًا، مهزومًا، يشعر بأن أيامه على وشك النفاد. نظر إليّ بعينين فيهما أكثر من الحزن، على شفتيه كلمات بقيت تراوح مكانها، واعتذر بكلمات قليلة. كل ما فعلته لحظتها أني ابتسمت، ومضيت في طريقي، أفكر بالكلمة، أفكر باللغة، وبالمصائر كيف تؤول إلى أشكال عبثية. ينفق الإنسان معظم خطواته باتجاه الطعام، واللذة، والسلطة، ولا شيء يحرفه عن مساره أو يبقيه فيه أكثر من الكلمة.

صباحًا، نهضت من سريري متكاسلاً، مشيت نحو نافذة الغرفة، وما إن أزحت ستارتها، حتى قفزت (يريفان) قبالتي، خضراء، وهادئة كنوتة عازف (تشيللو) يصف بحرًا رائقًا في صباح مشمس. حملت كوب القهوة، وجلست في الشرفة، أدخن وأراقب الأشياء بتمهل لذيذ: جبال ترتفع على كتف الهواء، كجنود يحرسون الأمكنة. نصب امرأة يناكف السَّحاب تحتفي بمن يعملن من أجل الوطن. نصب كاتب يرفع قلمه قدام الريح. شوارع نظيفة تثير فيك شهوة التجوال. مارة هادئون يراقبون بصمة الصباح في الأمكنة. ورد في الأرصفة، في الحدائق، وفي خدود الصبايا اللائي كن كنوتات هاربات من دفتر عازف أمضى ليلته يؤلف أغنية للعشق. كهول يغذون الخطى في الطريق، وعكازاتهم تنقر صدر الأرض بتأني ضابط إيقاع يهيئ للحن، حتى يبهج السامع.

أليس هناك من حزن في هذه المدينة؟ أم أنني في هذا الصباح لست ذلك الذي يرى العالم من منظار رمادي موحش؟ تذكرت مقولة مؤنس الرزاز، في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

روايته (أحياء في البحر الميت): (الماء من لون الإناء)، وتذكرت ما قاله عمي عزيز، يجنبني ما مر به: (ستدمرك هذه الكتب).

ترى ما هو لون إنائك يا يريفان؟

أغمضت عينيّ أتأملني من الداخل: موسيقاي أعفتني هذا الصباح من تجوالها في أقبية الوحشة، لا حواجز رمادية بيني وبين الأشياء، لا حجارة في قدميّ تدفعني إلى استرخاء إجباري يعلوه الضجر. لا كآبة هذا الصباح. هل أنا في منتصف الطريق إلى المواجهة، أم أنني ذلك الهارب منذ ليلة الضجيج الجواني؟

تناولت إفطاري في شرفة المطعم، حيث (يريفان) تقدم طقوسها حتى في التفاصيل الصغيرة لطعام تتناوله على إيقاع موسيقيّ لين على القلب. الريحان رفيق المائدة، تمامًا مثلما كثير من نبات الأرض حليف لكل عاداتهم الغذائية، يطردون كل احتمالات الكدر من أجسادهم، ويحتفون بأرض مثلما شهدت كرنفالات المسرة، شهدت مواسم الوجع.

رأى الأرمن أن يطلعونا على أوجاعهم، قبل أن تبتلعنا القاعات ونحن نتحدث عن الإرهاب في الأدب. ذهبوا بنا إلى تلة بني عليها (تسيتسيرناكابيرد)، نصب تذكاري لضحايا الإبادة الجماعية للأرمن، التي يقال إن الأتراك ارتكبوها بين عامي (١٩١٥ -١٩١٨) ومثلما دلّتني (يريفان) إلى بعض مسراتها، دلتني إلى جراحها، وإلى حزنها العتيق، أخذت الشاعر بي على خجل إلى حيث ما جرى؛ إذ جمعوا ما تبقى من آثار المكيدة، وأودعوها متحفًا، حتى يدرك العابر أن الخراب آدمي، وأن الجرح جناية ارتكبتها يد الإنسان. جمعوا الصور، والأصوات، وما ظل من الوجوه، والقمصان، وحجارة ملطخة بالدماء، وسيجوها بالزجاج؛ فكان الوجع مِلحًا يتماهى بالجرح.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عند النصب، جاءت موسيقاي الداخلية تدلني إلى صرخات خفية تحوم في الهواء؛ فجثوت على ركبتيّ، وأسلمت روحي لأصوات من ماتوا بالخديعة، ثم خرجت، أقف قبالة هواء طريّ، وأشجار تتشبث بجبال يلوح من ورائها جبل (أرارات)، جبل بركاني تغطيه الثلوج، يعتقد الأرمن أن سفينة نوح رست عليه. كم طوفانًا على الآدمي أن يواجه أو يهرب منه؟

على شمالي عجوز طاعنة في السن تستند على عكازها، تنظر إلى الجبال. أخذتني موسيقاي إلى ما وراء الأفق، أفكر بأولادي، بأمي، وبمصائر محتملة تهاجمني بغتة، ثم تروح بعد أن أنفض رأسي رفضًا لها. إنه الخوف الغريزي على من نحب.

أتذكر تلك السنة التي وجدت نفسي فيها غير قادر على أن أسند عائلتي كما ينبغي؛ فما عادت حصتي الشهرية من التقاعد العسكري تكفي للعيش، نصف ما أتقاضاه أدفعه لبنك منحني قرضًا مكنني من بناء شقة صغيرة. عملت محررًا في صحيفة لا تدفع إلا مبلغًا قليلاً، حين أجمعه بما أجنيه مما أنشره في صحف أخرى يحقق لي شيئًا من التوازن، لكن الحال ساء أكثر من ذي قبل؛ فاستقلت، وعملت في مصنع للمشروبات الغازية؛ عمل شاق يمتد من السابعة صباحًا حتى الخامسة بعد الظهر مقابل مئتي دينار. كان لهذا المبلغ أن يكون مقبولاً إلى جانب ما أتقاضاه لقاء مقالاتي لولا أن الصحف شارفت على الانهيار جراء انتشار الصحافة الإلكترونية.

عدت يومًا من المصنع وكان أبي يعمل سائقًا لسيارة أجرة بعد أن تقاعد من الجيش. رأيته يهبط للتو من السيارة، ويمشي بخطوات كسولة، وحين تحدث إليّ وجدت صوته قد تبدل أكثر من ذي قبل، صار خشنًا بوتيرة غريبة، حالة لازمته لأكثر من أسبوعين. طلب مني أن أرافقه إلى الطبيب. تفحصه الطبيب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جيدًا، ثم أخبره أن ما يعانيه مجرد عارض صحي طفيف، لكنه كتب لي في ورقة صغيرة دسها في جيبي، قال فيها إن أبي يعاني من أمر خطير، ويجب أن يراجع المستشفى.

لم يكن أبي مرتاحًا طوال الأيام التي كنا ننتظر فيها نتائج الفحوصات. قال له الطبيب إنه يعاني من سرطان في الحنجرة. تبدلت ملامحه وصار وجهه أكثر إشراقًا، وابتسم بطريقة لم أعهدها من قبل. صمت الطبيب معتقدًا أن ما يراه مجرد ردة فعل نفسية، لكن أبي ربت على كتفه وقال بصوت خشن: لست خائفًا صدقني.

قبيل غروب ذلك اليوم كانت تجلس أمي في فرندة أمام البيت، في وجهها كثير من ملامح الهزيمة، والخوف، والترقب المؤلم. حين مشيت نحوها حاولت ألا تلتقي عيناي بعينيها. لكنها نهضت فجأة كزنبرك مضغوط، وقفزت نحوي وهي تنظر إلى ما بين يدي من أوراق. ما كنت أقوله لها أشبه بما يقوله طفل يحاول التملص من فعلة مشينة. عندما رأت عينيّ تلوحان باحتمال البكاء؛ هزتني من كتفيّ تسأل بصوت باك عن الحقيقة، فأخبرتها. بكت كطفل تائه في مدينة صاخبة، ثم اقتربت بتمهل من يخشى السقوط من أبي، واحتضنته بحميمية لأول مرة أراها. وعينا أبي تنظران في الفراغ؛ لم يبك، بل أشعل سيجارة، وراح يدخن وهو يطل من وراء كتفيها، وهما تهتزان جرّاء نشيجها العالي.

لم يتنازل أبي عن علاقته بالسيجارة، ولم يتوقف عن العمل، متجاهلاً نصائح الطبيب. صار أكثر عنادًا، أو ربما هو نوع مستتر من الاستسلام. بقيت أرافقه إلى المستشفى من أجل تلقي العلاج لأشهر، ومن ثم إلى الطبيب ليقيّم حالته. كان في تلك الأيام كثير المزاح، وعيناه لم تتوقفا عن تأمل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

النساء الجميلات، وعن تذكر أيامه في عمان التي يحفظ شوارعها، وما أقيم عليها من محال، وما فيها من أناس له بمعيتهم ذكريات جميلة، ليس فقط نتيجة لسنوات عمله كسائق سيارة أجرة فيها، بل أيضًا لما أمضاه من سنين العسكرية. في طريق العودة من المستشفى كان يدندن بمقاطع من أغنيات أسمهان، وفريد الأطرش، ويهزأ بصمتي، أو ربما يلقي إليّ برسائل خفيه تجنبني الاستسلام والهزيمة. رأيته يسخر من الحياة بطريقة نسر أصابه الصياد بجناحه لكنه أصر على الطيران.

بعد انتهاء إحدى المراجعات الطبية، نظر بوجهي ونحن نغادر المستشفى، قال بحزم فيه شيء خفي من الرجاء: (لن أعود إلى هذا المكان مرة أخرى. أنا شفيت). التقط إضبارته الطبية من يدي، ومزقها. وشفي أبي، شفي تمامًا، لكن ما عادت همته تعينه على أن ينفق ساعات خارج البيت؛ إذ كبر فجأة، كأن قبضته لم تعد قادرة على أن تمسك بحبل العمر، فأرخاها، وأسند ظهره إلى جدار الذكريات وراح يتأملها، لكنه بقي محتفظًا بابتسامته الدافئة، وروحه الرشيقة، وقلبه الذي لا يعرف الكراهية.

بعد تواري بعض الأيام كثيرة التعب رحت أبحث عن عمل؛ فما عدت قادرًا على أن ألبي حاجات ولدين وبنت بقيا حتى بعد أن غادروا زمن الطفولة يتسلقون كتفي، ويمتطون ظهري على محمل اللعب لأسير بهم كحصان عفي. كنت أفعل ذلك رغم ما بي من غصة تجيء من عجزي عما يريدون. ذات ليلة طقسها ماطر بغزارة، لم أجد ما أشتري به خبزًا، ولم يكن في البيت سوى قليل من الطعام، وخبز يابس بللته بالماء واستعنت بالموقدة ليصير صالحًا للأكل. كنت أمازح أولادي، وأقرأ لهم قصصًا حالمة قبيل النوم، وأفعل ما بوسعي لئلا تتشوه الصورة التي أخبرتهم عنها للحياة. إن أقسى ما يمر به

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الإنسان أن يرسم على وجهه ابتسامة، بنما يخفي ألما يأكل دواخله كأفعى جائعة.

في الصباح ذهبت إلى متجر أقيم حديثًا في القرية التي لم يتبق من عهدها القديم سوى بيوت قليلة آيلة للسقوط، وذكريات يرويها كبار السن استسلامًا للحنين. في المتجر اخترت شيئًا مما يحتاجه البيت، ثم همست بخجل موجع بأذن مالك المتجر أني سأدفع ثمن ما معي لاحقًا، لكنه رفض بفجاجة كبيرة. في طريق العودة كنت مصابًا بالإحباط والخيبة، وبقليل من الأمل. أيامها طرقت أبواب عدد من شركات الطيران، وشركات أخرى يمكن أن أجد لديها أية وظيفة، ولم يتوفر لي سوى عمل بأجر يومي في التمديدات الكهربائية للبيوت المنشأة حديثًا برفقة صديقي علي شنينات. كنت أعود عند غروب الشمس وقد جنيت خمسة دنانير، وشيئًا من الطمأنينة مردها أني لم أقف مكتوف اليدين أمام ما يحدث. بقيت لأشهر على هذا الحال إلى أن حظيت بعمل في شركة طيران أنشئت حديثًا؛ فتلاشى جزء كبير من قلق أمي جراء تردي ظروفي المعيشية، وبدت متفائلة رغم تراجع حالتها الصحية. خلال سنين حياتها صمدت أمي أمام آلام الغدة الدرقية، والمفاصل، وتحسس الرئتين، والضغط، والسكري.

أتذكر منتصف إحدى ليالي شتاء عام ١٩٩١ حين أصيبت بآلام حادة في الكليتين. سمعتها تصرخ بصوت عرقل خطواتي عن معرفة ما يمكن أن أفعله في لحظة مثل تلك. كنا فقراء لا سيارة لدينا، ولا هاتف، ولا سيارات أجرة تأتي إلى القرية ليلاً. خرجت من البيت أعدو نحو مادبا والسماء جبهة جيش تقصف الأشياء بالمطر والبرق والرعد. كانت أضواء السيارات تلوح ضبابية من بعيد، وصوت صراخ أمي يتردد في مسمعيّ، ويدفع بي إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الأمام كرصاصة تشق صدر الهواء. معظم محال المدينة أغلقت أبوابها في تلك الليلة الباردة، إلا مخبزًا آليًا حين وصلته جثوت منهكًا أمام عامل قبالته هاتف على الطاولة. بالكاد استطعت أن أشرح له حاجتي؛ فرفع سماعة الهاتف وطلب سيارة أجرة أقلتني إلى القرية ثم إلى المستشفى. كان يمكن أن أفعل أي شيء لئلا أخسر أمي؛ إذ إن خسارتها الاحتمال الوحيد الذي لا يمكن لمخيلتي تقبله.

في مايو من عام ٢٠٠٩ كنت على مقربة من موعد التحاقي بعمل جديد. أصيبت أمي بمرض آخر يضاف إلى قائمة ما واجهته بصبر جميل من قبل. اشتكت من آلام مبرحة في معدتها، ليست مثل ما صمدت أمامها سابقًا. في المستشفى قالوا تمكن من معدتها سرطان خبيث. قالها الطبيب بسهولة من أخذت عاطفته جانبًا قصيًا واستراح من مغبة الحزن. في البدء لم أصدق ما تفوه به. طلبت منه، وأنا أطرد دُوارًا مباغتًا ألم بي، أن يكرر ما قاله. مشيت في ممر المستشفى، والناس يتداخلون ببعضهم مثل كائنات هلامية. ارتميت على كرسي في حديقة المستشفى، أنظر إلى عَمان والحمَام يحلق في سمائها الزرقاء الصافية لا له ولا عليه، وأفكر بالحياة وهي تبدو ككاسيت يبث مجموعة من الأغنيات ربما يتوقف في أي لحظة مصابًا بخلل في قدرته على الاستمرار. من دواخلي كانت موسيقاي الداخلية تأتي بسخاء حزين، ومن جعبة الذاكرة أشم رائحة أمي، مبتدأ الطفولة. وأشم حتى رائحة ملابسها التي كانت تخبئ الورد في ثناياها حولاً، انتصارًا لأنوثتها الفريدة. كنت أسمع أغنياتها وهي تهيئني للنوم، وأسمع ضحكاتها عندما ألمس خاصرتها بمزاح يطرد الكدر، وأسمع نهنهات بكائها يوم ودعتها مغادرًا إلى الصحراء. تلبسني حزن ثقيل كأنه هارب من صقيع المكيدة الذي لا تخلو من الأمل؛ فقد وجدته ينظر بوجه الألم كما ينظر ولد بوجه وحش على أهبة أن يلتهم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أمه. ربما هي لحظة كتابة شفوية رحت فيها أغري طائر الأمل أن يحط على كتفيّ ويدفعني إلى الأمام. لم أعد إلى البيت في ذلك اليوم؛ جاءني علي الذي توفي والده من قبل في المستشفى نفسها، مصابًا بالمرض ذاته. يداه ترتعشان وهو يسلم على أمي، ويجاهد في أن يمنحها شيئًا من الطمأنينة، لكن عيناه لم تقويا على مداراة ما فيه من خوف وأسى. أمضينا ليلتنا في سيارته، كان الحزن نحلة تغرس إبرتها في قلبي تارة، وتارة أخرى تهاجم قلبه إلى أن أطلت الشمس تشي بنهار جديد.

في تلك الأيام فتشت عن الأمل في وجوه الأطباء، والممرضين، والممرضات، ولم أجد. لقد جعل عملهم منهم قساة أكثر مما ينبغي، أو هكذا اعتقدت. وجدته في وجوه مرضى ومرافقين يرسمون بعفوية شكلاً مرتقبًا للحياة. عند الظهيرة جاء عمي عزيز. قرأ الأوراق المعلقة بطرف السرير، وتحدث مع أمي بوجه مبتسم، ثم اقتادني من يدي إلى حديقة المستشفى، قرأ قلقي بوعي كبير. كل ما قاله لي مطمئن، يدعو إلى أن أعول على الأيام القادمة. أما أبي فإن الانطفاء غزا وجهه، انطفاء لم أره عندما أخبره الطبيب أنه مصاب بالمرض ذاته. لم يكن لشيء مذاق في البيت، كنت أخاله كورقة تهتز قبالة ريح عاتية؛ فكل شيء فيه ضبابي، غير واضح، وغير يقيني، لكني رحت أتقمص دور الأخ الأكبر القوي، تقمص يتلاشى ما إن أضع رأسي على الوسادة سعيًا إلى للنوم.

في صباح أحد أيام إقامتها في المستشفى وقف أبي قرب رأسها وهي ممددة على السرير تستعد للدخول إلى أول عملية جراحية، وحاجز زجاجي يحول بيننا وبينهما. بدا أبي حنونًا بطريقة غير مألوفة لنا؛ يلامس شعرها، ووجهها، وعينيها. يتحدثان ولا نرى إلا شفاههما تتحرك، كان أعظم مشهد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حب رأيته في حياتي. همس لي وهو يمر بقربي بعد أن أخذوها إلى الداخل: ستعود. وعادت، لكنها خضعت فيما بعد لعدة عمليات جراحية، وخضعنا لما يرشح عن الطبيب من تطمينات، وروحي معلقة بخط بياني مرة يصعد وأخرى يهبط عابثًا بها. أمسكت بيدي وأنا أجلس على طرف سريرها، وتطمئنني، وتدفعني إلى الالتحاق بعملي الجديد.

رافقتها شقيقتي سوسن طوال مدة إقامتها في المستشفى، كانت تخطط لحياتها الجديدة حين تعود إلى البيت. ترسم مخططًا جميلاً لأيامها، ولعلاقتها بالناس، وضعت مخططًا حتى للون جدران غرفتها. تقول لي شقيقتي إنها كانت تنام وهي تروي لها ما ستفعله، وفي الصباح تنسى كل شيء، والألم يهاجمها بضراوة. كانت ممنوعة حتى من تناول كسرة خبز. رفض الطبيب، وأجبرتُ على أن أتبنى رأيه لتعود إلى البيت.

في صباح السادس من سبتمبر سنة ٢٠٠٩ ذهبت إلى العمل. لم أكن بمزاج موظف جديد يفترض أن يبدي اهتمامًا ملحوظًا، بل كنت حزينًا أكثر مما أحتمل، حزن عزلني عن زملائي الجدد، وجعلني أبدو متعجرفًا في نظرهم. كنت أقف عند الباب الخلفي لمقر عملي، أمام الامتداد الصحراوي، وأفكر بأمي، وبالقَدر الذي جاء بي من صحراء في الشرق إلى أخرى في الشمال. رن جرس هاتفي النقال وكان أخي: عليك أن تأتي. ساءت حالة أمي الصحية، وخضعت لعملية جراحية طارئة. يومها تعاطف معي مديري في العمل بشدة حين وجد في عينيَّ دموعًا أبت إلا أن تبقى حبيسة مكانها، وواساني زملائي الجدد عندما وجدوني غير قادر على الكلام. في حافلة عمومية أقلتني إلى المستشفى، كنت أجلس لصق النافذة وسماعة مسجلة الحافلة توزع بسخاء صوت امرأة تغني للمرآة. استباحني صداع شديد لفرط ما تمنعت عن البكاء،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والصور تخرج من حافظة مخيلتي تباعًا منذ دفقة الوعي الأولى.

في المستشفى وجدت أمي مستلقية على السرير كأنها تستسلم لنوم هادئ؛ جديلتها الطويلة مستلقية على الوسادة، يخالطها شيء من الشيب. جثوت على ركبتي وقبلتها على جبينها وهو ما يزال دافئًا، ثم هُزمت أمام سطوة البكاء. ماتت أمي. في تلك اللحظة رأيت نفسي وسط بنايات شاهقة انهارت مرة واحدة من حولي. رأيت الغبار، وسمعت الضجيج. كل تلك الأيام التي تقمصت فيها دور الابن القوي تحولت إلى صراخ مرير يتقافز بشراسة بين جدران المستشفى ككرة مطاطية. هجمت على الأطباء أشتم العِلم الذي عجز عن إنقاذ أمي من يد الوحش. خسرت حيلتي على ضبط نفسي. كنت أصرخ كيف لمرض يداري العلمُ حلولَه الطبية أن يسرق مني وطنًا لا قسوة فيه. السرطان وحش شعرت به أمي منذ اليوم الأول لمرضها؛ فرأت كوابيس غامضة، وجاءها في المنام موتى يدعونها إلى سمائهم البعيدة. ماتت أمي وفي خاطرها كسرة من الخبز.

اتصلت بعلي شنينات. قلت له بصوت ناشج: ماتت أمي. بكى عليٌّ بصوت مرتفع. وجاء عمي عزيز. كان يمشي نحوي بثبات رجولي يحيي العزيمة وأنا أعد الإجراءات الرسمية لنقل جثمانها من المستشفى. أمسك بي من كتفي واحتضنني وقال وعيناه تكابدان البكاء: عليك أن تبقى رجلاً. ثم احتضن أبي بقوة، وسار معه في ممر طويل للمستشفى. لم يبك أبي. ظل صامتًا يتفرس وجوه المارة، والانطفاء يزداد في وجهه وينبت فيه مساحة معتمة. منذ ذلك اليوم، وكلما رأيت رغيفًا من الخبز، أتذكر عيني أمي المتوسلتين، وهي تطلب أن يأذن لها الطبيب أن تأكل ولو كسرة واحدة منه. منذ ذلك اليوم والغصة تقف بوجه أية لقمة خبز أبتلعها.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

3

كانت المحاضرات تختطف نصف أيامي الأولى في (أرمينيا)؛ فأشعر بغبن من المخجل أن يصرح الضيف عنه؛ فقد قلت ما عندي. قلت إن الإنسان كتلة من الرغبات المتناقضة؛ يمكن أن يكون قاتلاً شرسًا في النهار، وكأن جسدُه يعمل بدلاً من قلبه بفعل إسطرلاب صدئ، وفي الليل يصير حَمَلاً وديعًا، معجونًا بالموسيقى، والعاطفة الحارة بين يدي أنثاه. هذا بعض من حالهِ، منذ هابيل وقابيل، وأول أفعالنا الإرهابية. قلت بسري: أريد أن أرى هذه المدينة التي زحفت إليها الجبال وعجنتها، ثم أشفقت عليها؛ فتوقفت لتتركها مثل عشب ينمو بين كومة من الحجارة.

بعد اليومين الأولين للمهرجان اعتادوا باستغراب على خروجي للتدخين. وفي الأيام اللاحقة ولأكثر من مرة، لم أعد؛ انطلقت بلا بوصلة في شوارع (يريفان)، إنه نوع من الهرب الساخر. في كل مرة كنت أفعل ذلك مدفوعًا برغبة سرية بالتيه بحثًا عن متعة تتحقق والجهات تختلط ببعضها، لكن (يريفان) مدينة غير مزدحمة، كل الطرق فيها تؤدي إلى مقاصد قاطنيها، وزائريها، ومع ذلك لا أدري كيف وجدت نفسي في ميدان الجمهورية. ساحة صممها (ألكسندر تامانيان) في عام ١٩٢٤، وتوسطها طوال الحقبة السوفييتية تمثال (لينين)، وبقيت لزمن تسمى باسمه، لكنه أزيل بعد الاستقلال. يؤلف الساحة دُوَّارٌ بيضوي الشكل، وشكل هندسي شبه منحرف، تزينه بركة تعلو منها نوافير موسيقية. وتحيط بها خمسة مبان رئيسية، تنتمي إلى المعمار الكلاسيكي. أتأمل الأشياء من حولي، وطيف من الحنين يغمرني بلطف، ورقَّة، يقرب بين ما أراه، وبين ما قاله لي عمي عزيز، وما قرأته في كتب الحقبة السوفييتية التي تخلى عنها أصحابها حين انهار النظام. إنها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(نوستالجيا) من نوع غريب، قادمة من بقعة في الذاكرة عادة ما تصنعها التجارب المنقوصة.

ما الذي يمكن أن يتغير على أمكنة تنتمي لسنين ضاربة في الماضي؟ وكيف تتصارع الهندسة مع العمران؟ الهندسة مثل رواية غير قادرة على أن تقتاد القارئ إلى عمق الفكرة، نَفَسُها ينتهي عند حدود القشرة، والمعمار معني بلب الفكرة والمعنى. الهندسة سلوك طبقي، والمعمار نزوع جماهيري؛ لهذا فإن المدن التي تتجه بناياتها عموديًا مدن طبقية، أما التي تتجه بيوتها أفقيًا؛ فهي مدن للناس.

اكتسحتني هجمة خفيفة من ذبذبات الضجيج الجواني، والكآبة، وطيف من موسيقاي الداخلية؛ فشعرت برغبة في العودة إلى الفندق. إنه شعور مفاجئ، ماس بالعزلة، وبتفادي الضجيج، والأضواء، والناس، والانطواء وراء حاجز الصمت. لكن دفقًا موسيقًا لـ (شوبان) تهادى من مقهى على مقربة مني، ودحر تلك الهجمة إلى الوراء. الموسيقى طائر يفر من روح العازف، ليأخذنا بعيدًا عن المعركة، بعيدًا عن الأسى، بعيدًا عن قسوتنا، وعن أحلامنا المشروخة. لكن كيف عرفت تلك الفتاة وهي تقف وراء حاسوب مربوط بسماعات مثبتة على الجدران، أني أحب (شوبان)، وأني في تلك اللحظة كنت في مرمى الكآبة، وعلى مقربة من أن ترديني برصاصتها الرمادية. قرأت قبل أعوام مقالة لبروفسير بريطاني يدعى (ديغبي تانتوم) يرى فيها أن أدمغة البشر تتواصل ببعضها بما يشبه الطريقة اللاسلكية؛ إذ تلتقط الأدمغة إشارات (ميكروية) تتيح لأحد أن يحس من دون أن يعي بما يفكر به أحد آخر، انتقال للأحاسيس، والمشاعر، والرغبات، والميول؛ لهذا تتخذ البهجة شكلاً جماعيًا، ويمكن للكراهية أن تتحول إلى سلوك جماعي أيضًا.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلست على مقعد، أقرأ ما يقوله (حمزاتوف) عن بلاده: (لا أريد أن تكون لي الشمس وحدها، ولا أن يكون لي الظل وحده، يمكن أن يكون لمسكني ساحات واسعة مشمسة، ولكن ينبغي أن يكون لي فيه زوايا صغيرة يغمرها الظل).

عرفت (غاستون باشلار)؛ فوجدتُ بُعدًا جديدًا يتعلق بالطريق إلى معنى البيت؛ إذ ليس هناك ما هو أقدر من الفلسفة على استجلاء المعنى. وها هو (حمزاتوف) في كتابه هذا يعي جيدًا ما يرمي إليه (باشلار) وهو يرى الكون من زاوية فلسفية، ونقدية، وشعرية. يبدو، بل من المؤكد أن شاعرًا كبيرًا بحجم (حمزاتوف) قد قرأ بعمق فيلسوفًا كبيرًا بحجم (باشلار). في كتابه (جماليات المكان) يحكي (باشلار) عن البيت كمصدر دفء آمن؛ فالبيت عنده ليس الشكل البصري، بل النفسي الداخلي الذي يقوم على المعمار، لا الهندسة. بيت غير معني بأمكنة الحروب والكراهية، فهو يحكي عن بيوت في الطفولة اختبأنا في زواياها المعتمة، حلمنا، بكينا، تأملنا فيها أول خيوط الرغبة، ومارسنا أحلام اليقظة. إنه يخبرنا عن بيوتنا عندما كانت آمنة. و(حمزاتوف) هنا يحلم ببيت يشبه ذلك البيت بزواياه المعتمة، أو ربما هو يحلم بالبيت نفسه، في عمر لم يذو الطفل في روحه.

في المساء دُعينا على عشاء في مطعم تؤدي فيه فرقةٌ أغنيات من التراث الأرمني. ويجسد راقصون وراقصات لوحات تشرح ثقافتهم؛ أغنيات شعرت بألحانها تنتزعني نحو فسحة طريفة من الفرح، رغم عائق اللغة، وتحكي قصة حب حدثت في الجبال أخبرنا عنها شاعر أرمني. تساءلت بسري: ما الفرق بين أن يحدث الحب في الجبال، وبين أن يحدث في السهول، أو على شاطئ البحر، أو حتى في زحام المدن، وضجيجها؟ الجبال أماكن متسامية،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكن بلا نرجسية، تمنحنا فرصة أن نرى الأشياء على حقيقة غير معتادة. والحب كالكتابة يحتاج شكلاً طريفًا من العزلة، والتأمل، والعلق. في طفولتي سمعت وأنا في فراش النوم، والعتمة تتمدد في القرية بشراهة مفرطة، نساء يتحدثن عن رجل وامرأة قُتلا منذ سنين في مغارة غرب القرية؛ فصار شبحاهما يخرجان كل ليلة خميس. قلن إنهما قتلا وهما عاريان يمارسان الجنس. لم أفهم ما عنته النسوة. كل ما علق بذاكرتي من تلك الحكاية خوفٌ جعلني أتجنب ذلك المكان حتى في عمر عرفت فيه ما معنى الحب، وكيف يمكن أن يقود إلى عزلة ربما تؤدي إلى الموت. إلى أن حدث ومررت في إحدى ليالي الخميس الصيفية المقمرة بقرب تلك المغارة. في البدء تلبستني الرهبة، لكني قاومتها؛ فجلست على صخرة قريبة منها، ورحت بوعي الشاعر وهو يتأمل وحشًا، أراقب بوابتها، أنتظر المرأة والرجل أن يخرجا، ويخبراني بما جرى. مضت ساعتان ولم يحدث شيء. نهضت متجاوزًا ما بي من بقايا الخوف ودخلت المغارة. في البدء كنت أنادي بوتيرة مرتعشة، تبدلت فيما بعد إلى توسلات أقرب ما تكون إلى الشعر. وحين لم أجد إلا صدى صوتي غادرت، وأنا أتلفت ورائي لعلي أراهما. في تلك الليلة كتبت قصة قصيرة، عن عاشق يهرب بمحبوبته، ويلتقي بها في مغارة يهابها سكان القرية، لأن فيها شبحين لعاشقين قُتلا ذات سنة.

ثمة شاب من راقصي الفرقة كان ينط في الهواء كحصان مبتهج، ثم يدور حول فتاة رشيقة المشية، والالتفاتات. رقصا بوعي مزيج من البسالة والرقة، بينما الآخرون يلتفون حولهما، يمجدون ما هما عليه. بين الراقصين خُيّلت لي فجأة امرأة بدوية لا يظهر من وجهها سوى العينين، تلّوح بسيف أمام رجال يصفقون بأكفهم، وتخرج من أفواههم أصوات خشنة، ومن ورائهم تطلق بندقية بيد رجل عدة رصاصات في الهواء. إنهم يمارسون (الدحية)، طقس

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غنائي بدوي راقص، جاء من دغل العتمة، ومن ضرورة عتيقة بطرد الوحشة، وهزيمة غيلان الليل، ووحوشه. مرة واحدة غابت كل الأصوات، وتبقى حداء مشوب بلوعة حادة يأتي من البعيد، حداء لرجل يقف على مرتفع وينتظر غائبًا أن يعود، يغني بصوت تحسبه بكاء؛ فبكيت. انتبهت وأنا على طاولة جلس إليها روائيون من (أمريكا، وفرنسا، وكرواتيا، والهند)؛ فغادرت، متعذرًا بتدخين سيجارة. جاءت (قوهاش)، والتقطت سيجارة من علبتي، أشعلتها، ونفخت دخانها في الهواء بتلذذ، ثم راحت وهي ترافقني في التحديق بالليل، تقرأ قصيدة بالإنجليزية:

الطريق مظلم، الطريق حالك

قاتم هو الليل الطويل

ليل هائل لا نهاية له

نحن صاعدون إلى القمم في الجبال الوعرة

جبال أرمينيا

وتبحث أنظارنا عبثاً في الظلمات عن نور

وفجر لا بد أن يبزغ في الجبال الخضراء

جبال أرمينيا

ألقت سيجارتها في سلة للمهملات وهمست مبتسمة: إنها قصيدة للشاعر الأرمني (هوفهانيس تومانيان).

في طريق العودة إلى الفندق راودتني كلمات والدة (رسول حمزاتوف)

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وهي تهدهده قبل النوم. كانت تتردد في مسمعيّ كرجع لصوت بعيد:

(نم يا بني كبيرًا كالجبل،

نم يا بني واسعًا كالبحر).

لا أدري لماذا كانت أمي تغني لي قبل النوم: (يا ربي يا جايب الغيّاب، تجيب للدار راعيها). هل كان حنينًا لأبي الذي أنفق عمرًا في الجندية؟ أم أنه حزن يرافق البدوي منذ ولادته؟

جلست في شرفة الفندق التي تطل على الحي الرئاسي، أتأمل المارة، والبيوت، وأفق أرمينا المغمور نصفه بالضوء، ونصفه الآخر بالنجوم. وفي البال وجه أمي، وهو يدحر كل تلك المشاهد، ويحوز على كامل القرب.

صارت وفاة أمي حدًا فاصلاً بين ما نفد لي من سنين، وبين ما جاء بعدها. ثمة عرج خفي صار يداهمني، كنت أخال الناس ينظرون إليّ ويتأملونه، فترتبك خطواتي. ليس خجلاً ذلك الشعور الذي دفعني بسرعة إلى العزلة، بل عجزي عن شرح ما أشعر به. أعترف أن العجز واحد من دوافعي إلى الكتابة. في زمن الجيش لم أستطع أن أعبّر سياسيًا عما أحس به وأنا أرى الطائرات الأمريكية تدك بغداد، ووجه بول بريمر يطل من شاشة التلفاز متفاخرًا بما سيفعله في العراق. لهذا كنت أكتب قصائد يلفها الغموض، أتوارى وراء الكلمات، وأصرخ بصوت مبحوح.

في ٢٠٠٩، السنة التي رحلت فيها أمي، غرقت أكثر من ذي قبل في الكتابة، وهربت نحوها بسرعة طريدة يعدو خلفها وحش كاسر. التجأت إلى كتابة قصص ترتدي شخصياتها حزنًا جذوره في تلافيفي السرية، وأودعتها في مخبأ كتاباتي التي لم أكن أقرر بعد نشرها. صرت أمضي ساعات كثيرة بمعية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمي عزيز، يحدثني تارة عن كتب قرأها، وأخرى يقلب دفتر ذاكرته. لم أدرِ أنه يقرأ هربًا ومواجهة في الآن نفسه هو الآخر. كان يحدثني عن تلك الكتب بحماسة، ويفرح كثيرًا إن وجد كتابًا نادرًا. دخل ذات مرة مكتبتي، استعرض عناوين الكتب بتمهل. قال لي بحزم: يجب على خياراتك في القراءة أن تسلك طريقًا غير هذه. دلني على التاريخ لفهم الحاضر، مؤمنًا بأن التاريخ يتكرر بأشكال جديدة؛ فغرقت بإرث حضارة ما بين النهرين، وأخذت بها. كان يحلل الوقائع السياسية انطلاقًا مما لديه من محمولات معرفية، وثقافية، وسياسية. راح اهتمامه بالممارسة السياسية يتراجع من غير أن أفهم سببًا لذلك. صار حذرًا جدًا في الحديث في مثل هذه المواضيع، لكن ما فهمته أن هناك شيئًا كسر في داخله بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، وبعد ما طرأ على اليسار العربي من تبدلات. تراجعت حماسته، وحل محلها إحباط غير معلن، لكنها لم تكن هزيمة. اتصل بي ذات ليلة وكنت أتهيأ للنوم، وطلب أن أذهب إليه في بيته. وجدته يقرأ ديوانًا لسليم بركات، ظل يحدثني عنه، ثم غرق بذكرياته، يخبرني عنها بشجن كبير. يصف الأمكنة، والناس، ويعتني بتفاصيل ما يحكي عنه. مرة تطل شمس من جبينه وهو يتحدث، وأخرى تغرورق عيناه بالدموع. كلما انطفأت سيجارة يشعل أخرى. وكلما انتهى من فنجان قهوة سكب آخر. كان حزينًا، وسعيدًا، وهادئًا، وقلقًا، وعلى نحو استصعبت فهمه. بعد تجاوز الساعة منتصف الليل غادرت، وما إن تماثلت للنوم حتى اتصل بي مرة أخرى وطلب أن أعود إليه؛ فذهبت، وبقيت منصتًا له إلى أن سمح لي بالمغادرة. بعد مرور أيام رأيته في زحام مادبا يتهيأ لركوب سيارته، يده في الهواء تلوّح لي وهو يتحدث مبتسمًا من دون أن أتبين ما يقول، كنت لحظتها متعجلاً في طريقي نحو عمان. عند الثالثة فجرًا رنّ جرس هاتفي. كان ابن عمي: عمي عزيز نقل إلى المستشفى. قطعت المسافة إليه ركضًا، ومخيلتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

تصنع صورًا لاحتمالات ما جرى. أنبأني المشهد في باحة المستشفى بالنتيجة. رأيت ابنته تبكي، وأعمامي يتمسكون بما تبقى لديهم من قوة. لقد داهمته أزمة قلبية وهو يتهيأ للنوم. نهض مسرعًا، وأخبر زوجته، وركب سيارته، وأسرع إلى مستشفى يبعد دقيقتين عن بيته. أخبر زملاءه الأطباء وهو يمشي في الممر نحو غرفة الطوارئ بما يشعر به. استلقى على السرير وامتثل لإجراءات الأطباء. لفظ نفسه الأخير بعد أن ابتسم، ونطق الشهادتين.

غادرنا المستشفى قبيل شروق الشمس بساعة. جلست في بيته حيثما اعتاد الجلوس في الفرندة أسفل شجرة الفلفل. رأيته ينظر إلي بعينين مبتسمتين، يشرع رئتيه لهواء تلك اللحظات الصباحية الصافية. وقتها كدت أجن والخيال بتقاطع بالواقع؛ إذ رأيت جدتي الطاعنة في السن قادمة من بيتها، تحبو كالأطفال، وتصرخ بصوتها الجارح: (يا عزِّيز). تقولها وهي تمط حرف الياء بحزن لم أشهد له مثيلاً. كان الهواء ساكنًا، ولا صوت في حنينا إلا صوتها وهو يملأ الفضاء أسى ولوعة كبيرين. قفزتُ من على الفرندة وهرعت إليها. شقت جيبها، وراحت تلقي التراب على شعرها الذي ربطته فصار جديلتين انسدلتا على كتفيها النحيلتين. احتضنتها وصرخت معها، وكثير من الصور والمشاهد والأصوات تطلع لي من ذاكرتي: يا عزَيِّز، يا عزَيِّز، يا عزَيِّز. بعد انقضاء أيام العزاء حدقت بي بعينين مهزومتين ذابلتين، وهي تجلس في ظل شجرة الفلفل، وقالت بصوت مبحوح: ألم أقل لك إن الموت دس يده في قدرنا؟ وقالت إن ظهور الإخوة الأحد عشر سويًا أمام الناس أصابهم بالعين الحاسدة.

كانت سنة صعبة فيها من الألم ما ليس لقلبي حيلة على تحمله. إنها النقطة القصوى من الوجع حيث يصبح الهرب حلاً للفجيعة. هربت أكثر نحو الكتابة؛

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إذ كلما تقدمتُ بالعمر تلاشت الطرق وما تبقى إلا تلك التي تعبدها الكلمات. ازداد تلاشي البريق من وجه أبي، بعدما فقد عددًا من إخوته، وبعد رحيل أمي، تاركة وسادتها فارغة في فراشهما. شعرت بالعجز رغم تمثلي لقوة وهمية أحاول أن أسند بها ما تبقى من العائلة. لكن يحدث أن تفرغ الحياة في حضنك شرورها مرة واحدة. في سنواتها الأخيرة ما عادت جدتي تطيق العيش بين وحشة الجدران كما كانت تصفها؛ بقيت روحها رهينة بيت الشَّعر، ومشهد الأغنام في المراعي صباحًا، وتلك الليالي التي تعمرها الحكايات والقصائد، والترويدات المشوبة بالحنين. ما عاد للحاضر مكانة عندها. تمضي معظم نهاراتها جالسة قبالة البيت، تردد أغنيات تجيء لها بماض حافظت على ألا تتنازل ذاكرتها عنه، تبدأ الأغنية بوجه هادئ، وعينين مبتسمتين، ثم حين تصل أوج اللحن تغرق بالبكاء. سألتها ذات مرة: لماذا تبكين بكل هذه السهولة؟ ضحكت وكأنها تداري الحقيقة: هذا واحد من أسرار العمر الطويل للنساء. ووراء عمر جدتي الطويل أسرار كثيرة؛ فلم تعرف معدتها طعامًا معلبًا، أو مجمدًا، أو مطهوًّا خارج البيت. كانت سيدة وفية للطبيعة، جل طعامها، ودوائها نبات، تجمع الأعشاب في فصل الربيع، وتعد توليفاتها الخاصة: (العطرفان) لرائحة الملابس. (الشيح) لكل ما يلم بالمعدة. (الرقيطة) لأمراض النساء. (السعوط) مجموعة أعشاب، للرشح والزكام. لم تكن لترضى أن تكتم رأيًا حول أمر يثير غضبها؛ كانت كالبندقية حينما تنطلق رصاصاتها، ما إن تنفد حتى يحتلها الهدوء. إن فرحت تشبع من الغناء، وإن مسها الحزن، تبكي بإفراط. تتعامل مع فصولها بوفاء نادر. لم يسقط لها ضرس، أو سن، حتى التجاعيد ما حفل بها جسدها إلا بعد أن تجاوزت السبعين. لا تعرف من العطور إلا المسك، ولا من مرطبات الجلد إلا زيت الزيتون. تأكل الزبدة، والسمن البلدي يوميًا، وتسخر ممن يخشون على قلوبهم منه. كانت سيدة

Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جميلة، رقيقة، قاسية، ساخرة، قوية، ضعيفة، حنونة، أحبت الحياة رغم أنها مشت سنوات بلا حذاء، وعاشت سنين القحط، وتعدد الزوجات، والخسارات المتتالية. بعد أن رحل عمي عزيز، أخذت صحتها تخفت، صارت مثل ناي مشروخ أنغامه ناقصة. في شتاء عام ٢٠١٢ أدخلت إلى المستشفى، لكنها رغم التعب تمسكت بقوتها، تمازح الأطباء بكلمات ساخرة. زرتها في ثاني أيامها وهي على فراش المرض، وحين سألتها عن حالها، راحت تحدثني عن زمن لم أشهده، ثم أخذت تقص عليّ حكاية عن امرأة قاتلت رجالاً في ليلة معتمة؛ فأحبها قائدهم. غفت وهي تحكي لي نهاية الحكاية. بعد أيام توقف قلبها عن النبض في عمر تجاوز التسعين. كان وجهها هادئًا، مبتسمًا، وهي ممددة في سريرها، وخصلة من شعرها الأبيض تنسدل على عينيها الجميلتين. ماتت جدتي، وفي السنة نفسها توفي عمي عبد الوالي، وتبعه عمي عقاب، ولم أنس مقولتها: لقد وضع الموت يده في قِدر العائلة.

كتبت في تلك الأيام قصصًا صدرت تحت عنوان (الزلزال)، ونالت جائزة تحمل اسم العلاّمة (روكس بن زائد العزيزي)؛ فصارت بطاقة عبوري الثالثة إلى عالم الأدب، فرحت بها، لكنه كان فرحًا مؤقتًا لواحد مثلي يرى الكتابة جسر عبور إلى ضفة آمنة، توفرها المخيلة بسخاء استثنائي. جسر ما زلت أؤمن أنه سيبعدني عن وحوش كاسرة أحس بها تعدو ورائي، وتكاد مخالبها تنهش ظهري. طريق لمواجهة ذرات حزن صارت مع الزمن طبقة سميكة تربض على صدري بعدائية مفرطة، وتحولني إلى كائن مزاجي متقلب لا يطاق. لا أشعر بتلك المتعة التي يتحدث عنها البعض على نحو رومانسي أثناء الكتابة؛ الأمر بالنسبة لي اقتلاع الشوك من جهة قصية في لحم روحي التي ما تزال تفتش عن غصن شجرة لا ريح فيها لتحط عليه.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أكتب لأهرب، وأحيانًا أشعر أني أعدو إلى الكتابة بحثًا عن أسلحة لم توجد بعد لأهزم تلك الوحوش، وأفتت طبقة الحزن، وأدحر عني ضجيجي الجواني. الكتابة فعل يصيبني بحالة من الوقوف في منطقة وسطى بين أقاصي الوجع وبين ذروة تحمُّله، إنها تصيبني بتعرق، وعطش، وحمى، وهذيان. قبل الخطوة الأولى إلى الاستسلام الخالص لها تبدو مثل زلازل تسبقها إشارات عادة ما تحس بها الكلاب، والأغنام، والحشرات، فيتجهز البشر لمكيدة الطبيعة. لكننا نتجهز لزلازل الكتابة بوعي من دفعته الريح من رأس جبل؛ فراح يجرب لذة الطيران. حدث مثل هذا الأمر وأنا أعود من عملي في شتاء ٢٠١٢. يومٌ بدت فيه السماء كوجه امرأة على أهبة البكاء، وروحي مثل طائر ارتخى باب قفصه، وصارت أجنحته تصفق أملاً في تحليق أبدي. كان الصوت الموسيقى ذاته يجيء من دواخلي محمومًا. في البيت جلست إلى طاولتي قبالة رزمة من الورق الأبيض، وكتبت بضع كلمات في عدد من الصفحات ثم مزقتها. كنت بحاجة إلى إصبع ينكش فم النبع لأسيل. غادرت إلى جبل (نيبو) من دون أن أخبر عائلتي بوجهتي. كابدت سيارتي وعورة الطريق إلى أن وصلت قمة الجبل. جلست على صخرة مرتفعة تطل على الغور، وعلى فلسطين. فجأة لمع البرق في الأفق وتبعه الرعد، ثم سقط المطر بشراهة غير مسبوقة. بقيت لدقيقة أمتثل لكل ذلك الماء إلى أن احتميت بسيارتي وعجلاتها تغور في الطين. باتت العودة مستحيلة. سقطت الشمس وراء الجبال، وجاء الليل حالكًا بظلمته؛ فهرعت إلى كهف قريب عثرت فيه على جذوع أشجار، وبقايا حطب. عدت إلى السيارة وحملت معي حقيبة صغيرة فيها ما أستخدمه للبرية: حاسوب صغير، أوراق وأقلام، غلاية قهوة، إبريق شاي، ماء، قليل من البسكويت، والخبز. حينما أشعلت النار تلاشى نصف خوفي، وبت غير مكترث بمن سيقلق من غيابي. رحت أتأمل خيوط

٢٧٠٥٨١٨٦٥٨
الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

المطر وهي تسقط على بوابة الكهف؛ فشعرت أني أراني عاريًا من كل ما يتشبث بي من تفاصيل الزمن الجديد. لحظة اختلط فيها شكل غريب من الحزن، بسكينة بدت لي تحط على الأرض للتو. ما إن أمسكت بالقلم وكتبت، حتى تلاشى نصف خوفي الآخر؛ فتلبسني إحساس من تنبه لجناحين في كتفيه، وصار يفكر بالطيران. في تلك الليلة كتب فصلاً من (مقصلة الحالم)، من غير أن أعي أني أعكف على رواية، جنس أدبي كتبت منه في الصحراء أربع مخطوطات، وجدتها مجرد تمارين سرية على السرد. في الصباح عدت إلى البيت، لكني لم أجد اندفاعًا إلى الكتابة. بدا لي الطقس ناقصًا عنصرًا لم أعرف ما هو إلا عندما عدت إلى جبل نيبو، وهناك سقطت في نهر اللغة. يكمن السر إذن في مكانٍ تشبث بالذاكرة، بل انتبذ له مرتفعًا يطل على أوراقي السرية.

انتهيت من كتابة (مقصلة الحالم) في جبل (نيبو)، أكتب عن رجل غاب في معتقل صحراوي لعشرين سنة، وعاد ليقف عاجزًا عن عالم لا يشبه عالمه السابق؛ فاعتزل، لكنه ألقى بنفسه في بحر امرأة عرفها في عوالم الإنترنت؛ فأصيب بالحب.

بعد أن صدرت الرواية وحققت انتشارًا كبيرًا، ونالت (جائزة رفقة دودين للإبداع السردي)، فكرت وأنا أفترش تراب الجبل، وأنظر إلى طائر يعتلي الهواء: ها أنت في عالم الكتابة. بتَّ معروفًا، تستمتع بما يقوله القراء عن كتبك. هل هذا مرادك الحقيقي من وراء ما فعله القلم بالورق؟ فجأة قررتُ أن أتوقف عن الكتابة، إلا يومياتي التي لن يقرأها أحد. صار وقتي للعمل، وللعائلة، وبعض منه للأصدقاء. يبدو أنني كنت أجرب العيش بعيدًا عن أوراقي، وأختبر نفسي بعد تلك الرحلة في المجابهة. لم يختفِ ضجيجي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجواني، ولم تخلص الريح ذاكرتي من تلك الدفاتر المشوبة بالحزن. لم أستطع أن أتجاوز ذلك الشعور الجارف بالوحدة، والميل العتيق إلى العزلة. كنت أشعر أن كل شيء تغير بوتيرة عجائبية. حتى أنا لم أعد كما كنت من قبل؛ فعدت من منتصف الطريق إلى الكتابة.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

4

في الصباح اتصلت بي (قوهاش) مرات عدة. كنت غارقا في النوم؛ فتأخرت عن نزهة سيأخذوننا فيها إلى الجبال؛ إذ إنني أمضيت الليلة السابقة جالسًا في الشرفة أقلب دفتر الذاكرة، وأفتش عن خطأ ربما يكون وراء مزاجي الحزين. ألقيت ببدني في السرير، وبيني وبين أحصنة النوم مسافة طويلة، فاستسلمت لـ (حمزاتوف) وهو يحدثني عن (داغستان). الكتاب الجيد هو ذلك الذي يحس القارئ أن كاتبه ارتكب كل ذلك البوح من أجله وحده.

كان بعض مدعوي المهرجان ينظرون إليّ بامتعاض خفي. اعتذرت لهم، وجلست في مقعدي في حافلة عند باب الفندق، أتخلص من مشاعر سلبية تخلفها العجلة على واحد متمهل مثلي. همست لـ(قوهاش) : إني بحاجة لكوب من القهوة وسيجارة لأصحو. بعد نصف ساعة من مسيرنا في طرق متعرجة تتجه نحو الجبال توقفنا قرب سلسلة محال تبيع بضائع تراثية. شربت قهوة، ودخنت سيجارتين وصعدت إلى الحافلة. كنت لحظتها ما أزال تحت أثر الغمامة الرمادية الصباحية، مزاج تجتمع فيه كثير من ذكريات أحداث سيئة؛ فتصيبني خشية من تكرار بعضها. تيار يهاجمني منذ أعوام عدة، يحول بيني وبين رغبتي في الكلام، أو القراءة والكتابة. لكن هجومه هذا لا يأتي كاملاً في السفر، وهذه المرة بدا لي أخف وطأة من قبل. سألت (قوهاش) وشاعرًا من كرواتيا، وروائيًا أمريكيًا، وقاصة فرنسية: كيف تشعرون في اللحظات الأولى لصحوكم من النوم؟ قال معظمهم إن صباحاتهم هادئة. في إحدى المرات وجهت السؤال ذاته لعدد من زملائي في العمل، قالت الغالبية إنهم يجدون أنفسهم في مزاج رديء، ومتعكر.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عدتُ إلى (حمزاتوف)، عند الصفحة التي كنت استسلمت فيها للنوم ليلة البارحة:

(«الخنجر يلقي الإنسان على سرير الموت، والطنبور يبعثه حيّاً» أنخل الكلمات، الحديث، تحصل على أغنية. وأنخل الحقد والغضب والحب، تحصل على أغنية. وأنخل الأحداث وشؤون الناس والحياة كلها، تحصل على أغنية).

نعم، الأغنيات فينا يا (حمزاتوف)، وراءنا، وأمامنا. فينا حين نشعر بأننا نقلد الطيور في تحليقها، وفينا حتى ونحن نتهاوى إلى بقعة لا ندري كيف ستستقبل أجسادنا الهشة. الأغنيات في غَدي، ويومي، وفي ماضيّ.

في صغري رأيت أبي في حوش الدار يجلس ساهمًا بالأفق، والشمس تتفجر حمرة وهي تأوي إلى المغيب. بقربه مسجلة من نوع (هيتاشي) يتهادى منها صوت فريد الأطرش يغني بعذوبة مردها الجرح: (أضنيتني بالهجر). جلست قريبًا منه وقد أخذتني الأغنية إلى سماء جديدة، داهمتني فيها أحاسيس غامضة، ربما أنها البدايات الأولى للحب. منذ ذلك اليوم رحت أغني، وكلما امتدحت أمي صوتي، رأيت عصافير تفر من فمي، عصافير وقفت وراء تهمتي في الغناء.

أمسكت (قوهاش) الكتاب من يدي، ووضعته جانبًا، ثم أشارت بيدها إلى الجبال، والأشجار تقف على تشكيلاتها الطبيعية مثل حجاج يسعون إلى القمة، ثم قالت مبتسمة: (هذه كتب ربما لا تقرأها مرة أخرى؛ ربما تباغتك فكرة روائية وأنت تتأمل ما فعلته الطبيعة). قلت لها: إني أفتش في القراءة عن منفذ نجاة كالذي أعد في الطرق المنحدرة؟ وقلت: إن روحي مثل زجاج نافذة في بيت مهجور تراكمت عليه ذرات الغبار. ومع السنين تحولت تلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الذرات إلى مادة صلبة بحاجة ربما إلى عاصفة رعدية لتذيبها؛ فتتضح الرؤية، أو يقذفها شاب طائش بحجر؛ فتتهشم. سألتني عما قادني إلى كتابة رواياتي. ربما أنها فعلت ذلك لأتحدث فأستريح.

مثلما صرت عازف عود من دون نية مسبقة، صرت كاتبًا. ثمة محطات في الحياة تصبح أجمل حين نصلها من غير تخطيط مسبق. في بادئ الأمر نتعجب مما يجري، كمن وجد نفسه في مكان غريب عنه، ثم حين يتذكر أنه كان يمارس المشي، وجاءت به قدماه إليه؛ فشعر أن هذا مكانه، استوطنه. نعم، لقد صارت لي الكتابة وطنًا موازيًا، إن توقفت عن بنائه سيموت؛ فأموت. الكتابة وطن لن يكتمل رغم كل البيوت التي بنيناها على أرض الورق. إن كتبتُ عن شجرة، فإني أشير إلى يدي، وإن كتبت عن السماء فإني أقصد روحي، وإن كتبت عن البيت، والطريق، والناس، والبحار، والأنهار، وحتى عن الذي لم يأت بعد؛ فإني أكتب عني.

في أحد صباحات عام ٢٠١٣ كنت أنتظر صديقًا في حديقة (متحف الفنون) في جبل اللويبدة، أحد جبال عمان السبعة التي تتشبث بها بيوتها كأطفال يتمسكون بظهور أمهاتهم وهم يلتفتون برعب إلى الوراء خوفًا من وحش يرون طيفه في البعيد. أتأمل البيوت، وأسوارها، وحمامًا يحلق في سمائها الصافية. تنبهت إلى أن بعض الشرفات خالية، وبعضها أغلق بالطوب، والإسمنت، وبعضها الآخر قد ظلل بزجاج أسود يرى مَن وراءه ولا يُرى. سنة رأينا فيها رؤوسًا تُجز، ونساء ترجم، وأوطانًا تحترق باسم الدين. لم أرَ في الشرفات نساء يسقين الورد، ويصنعن صباحاتنا الطرية. لحظة موجعة، اختصرت زمنًا كان جميلاً، يشوب حاضره الخوف، وتنبئ أيامه القادمة بالزلازل. لحظة قادتني إلى كتابة (سيدات الحواس الخمس).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعد مضي سبعين صفحة من الكتابة على الحاسوب ألغيت بجسارة موجعة ما كتبت، لأني لم أفهم جيدًا ما معنى أن تكون فنانًا تشكيليًا لديه حواس استثنائية. علمتني تلك الرواية أن أتقمص دور الشخصيات سعيًا إلى الصدق. أمضيت أشهرًا أحاول فهم حكمة الألوان ومزاجها؛ فرسمت لوحات لوجوه غير مكتملة، ولفضاءات فيها ضربات للريشة كنت أعتقد أنها عشوائية. يبدو أن في دواخل كل منا فنانًا، وكاتبًا، ومجرمًا، وحكيمًا، ومجنونًا، وأن حدثًا ما سيظهره يومًا للعلن.

بعد ما يزيد على العامين اكتملت الرواية، وما تبقى إلا القراءة الأخيرة؛ ضاعت جراء خلل في الحاسوب. إنها لعنة التكنولوجيا وهي تريك عالمًا شاسعًا، لكنك لا تستطيع أن تلمسه، عالم يمكن أن يتلاشى برمشة عين. فشلت محاولاتي في استعادة الرواية، وفشلت في أن أثق مجددًا بالتكنولوجيا، وبأن أهرب من ضيق جديد، من غير أن أعي أن هذا الحدث سيقودني إلى رواية أخرى بعد أشهر من الوجع المضاعف. حدث هذا وأنا أوقفُ سيارتي عند الإشارة الضوئية، ممتثلاً لاحمرارها الساطع، أنتظر كعادتي أيّ اخضرار يؤشر للخطوات بأن تمضي نحو ضفة أخرى، والشارع زحام الذين لا مفر لهم من مكيدة اللظى، قبالة شمس تموزية تتمطى بمنتصف السماء، كامرأة حرون. وهو، كان هناك، وجه لم تترك النار فيه مكانًا إلا وعاثت به انكماشًا وتشكيلات غرائبية، لا تفعلها سوى النار. ثمة فاصل نفسي قصير بين قدرتنا على استيعاب شكل مرعب، وبين الامتثال للفزع. ما هي إلا ثوان قليلة ورأيتني بعدها أمام وجه رجل يهاب حتى الثمل ملامحه المرعبة. عينان تنظران من وراء انثناء الجلد، وانكماشه بلهفة خرساء. فم ضاءلت النار حجمه؛ فبدى ناشفًا، تتراقص عليه كلمات بُترت حنجرتها. صدر نحيل تمزق على بروز عظامه قماشُ قميصه المهترئ. خصلات شعر قليلة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نسيها فم النار تنسدل على وجهه الحزين.

داهمتني أبواق السيارات بزعيقها عند اخضرار الإشارة؛ فمضيت، وأوقفت سيارتي على طرف الشارع، أراقب ذلك الرجل، وهو يخطو إلى الرصيف الآخر، يحمل بيدٍ كيس (آغو)، مادة كيميائية لتثبيت الخشب، يشهق منه، ويزفر ببطء، كمن يتجلى في عوالم تُرى للمرة الأولى، وباليد الأخرى بضع قطع نقدية دسها بجيب بنطاله المهترئ. جلس المتسول المشوه يحدّق في المارة، كإمبراطور حزين، يتفقد رعية لا تسمع طبول الهلاك وهي قادمة من وراء الجبال. جلستُ بقربه، وأشعلت سيجارتين وأعطيته واحدة، ورحنا ننظر إلى الشارع وهو يئن تحت ثقل الزحام الحارق. سألته عن حاله، ثم صمتُّ قليلاً أنتظر منه ولو كلمة واحدة، لكنه اكتفى بنظرة غير مفهومة في وجهي، وعاد يحدق بعين وحيدة في الأفق. قلت أهز مسامعه بوتيرة صوتية أخرى: (ما اسمك؟ هل تدري أني لأول مرة أراك؟!). التفتُّ إليه أتفرس وجهه، والفاصل النفسي بين الامتثال للفزع يتوارى قبالة استيعاب ما أرى من ضحيةٍ لم تُهزم تمامًا أمام النار. (هل تعيش هنا؟!)، تأملني قليلاً، ثم انطلق بمشية مترنحة إلى حيث توقفت السيارات عند الإشارة الضوئية، يمد يده من جديد لسائقي السيارات الذين كانوا يتوسلون المكيفات لهواء بارد.

لم تطأ منامي أحصنةُ النعاس ليلتها؛ استلقيت في سريري، والنافذة عينٌ تطل على قمر يتفجر فضة، في سماء صارت باحة واسعة لنجوم ونيازك استطردت بالمرح والمزاح، ومن طرف الحي يجيء صوت نائح، كأن روح قريتي التي طمرتها يد المدينة تستفيق للتو، وتُقدم ما وعدث به من اللعنات. وطيف المتسول المشوه يطل برأسه أينما يممت وجهي، حائرًا بقول شيء عجز عن التلفظ به، وفي البال هواجس تَدفع بباب مخيلتي لتخرج للعلن،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتعلن نفسها في شرفة الورقة البيضاء. هواجس عمر اعتلت جبينه آلةُ تصوير تنظر لما يحدث بحساسية مؤلمة، بينما سرير النوم حقل شوك حولي، أتقلب فيه ولا أستقر. تركت البيت، وركبت سيارتي أتجول في المدينة، حيث الليل صمت لا يبدد ثقله غير قطط في الطرقات، وعلب فارغة يدحرجها الهواء في الزقاق، أبحث عن رجل منحني فرصة أن أرى في وجهه ما لم يره الآخرون، واختفى.

بعد أسابيع رأيت في المنام أفاعي من النار تتلوى قبالة وجه لرجل وسيم، وامرأة تهتف بكلمات متمردة، وحراب العيب والحرام تحزّ رقبتها بلا رحمة. رأيتني على نهر، لكنني غير قادر على الارتواء. صحوت مبتلاً بعرق فاضح. ورحت أستعيد تفاصيل ذلك الكابوس. قلت لنفسي: ما دمت خسرت روايتك اكتب رواية تبتكر فيها طرقًا للبحث عن روايتك الضائعة. كان وجه ذلك المتسول المشوه يحدق بي طالعًا من ظلمة الغرفة، وأنا جالس في السرير. ليلتها دلفت إلى مكتبي المنزلي، وبقيت أكتب حتى الصباح؛ ممسكًا بالخيوط الأولى نحو رواية (أفاعي النار).

تحكم بعض الروايات قبضتها على كاتبها، تستحوذ عليه، ولا تسمح له بأن يمارس شيئًا آخر غيرها، لهذا لم أكن قادرًا على التركيز في عملي، تلاحقني شخصيات الرواية؛ فأهرب من غرفة إلى أخرى، لأكتب. وفي طريق الذهاب إلى العمل والعودة منه تخليت عن عادة القراءة، مستسلمًا لنداء الكتابة الذي منحني شعورًا استثنائيًا من اللذة والتوازن. وحينما ما عاد لدي شيء أضيفه لها كنت على أهبة أن أدفع بها للناشر، لولا أن ابني محمد نبهني إلى جائزة يمكن إرسال المخطوطة لها إلكترونيًا؛ ففعلت ذلك ونسيتها؛ نسيتها لأني وجدت بي رغبة ملحة لكتابة (سيدات الحواس الخمس). استقطبتني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عوالمها لثلاث سنوات في أولها أتاني خبر فوز أفاعي النار بـ (جائزة كتارا للرواية العربية). كان يومًا لا أمتلك فيه إلا دينارًا واحدًا؛ فضحكت بعد أن انتهت المكالمة أفكر بهذا الطراز القدري الجميل.

في اللحظة التي صعدت فيها إلى خشبة المسرح لاستلام الجائزة، تلاشت كل الأصوات، وما كنت أسمع إلا صوت خطواتي بصدى غرائبي، ولم أرَ إلا (علي بن محمود القصاد) يجلس بين الناس ويبتسم. عندما عدت إلى حنينا، دلفت إلى المدينة؛ فوجدته يجلس على الرصيف يتأمل المارة، كما تركته من قبل. قلت له: (لقد بحثُ يا علي ما حلمتَ بأن يفشى). كنت أناديه باسمه الجديد. أخذ يحاول قول شيء، لكنه عجز، وعاد إلى شروده العميق.

قضمت الجائزة المسافة بيني وبين قراء كثر؛ فبت معروفًا أكثر من ذي قبل، لكنها كادت تقضم بلذتها فسحتي القصية المُعدة في روحي للكتابة؛ فتبهت، خاصة حين وجدت أني كلما مضيت في طريقي والناس يشيرون إلى ما كتبت يتناقص عدد أصدقائي، وتزداد الضغينة؛ حينها عدت إلى مساحتي أحميها من الانكماش.

حدث لي ذات ليلة أن فقدت القدرة على التمييز بين الواقع والخيال؛ إذ رحت أصارع تلك اللحظات اللعينة أدفع بي بعيدًا عن جهة الرواية التي اعتقدت حينها أنها أصابتني بجنونها. كنت عائدًا عند منتصف الليل من عمان، أقود سيارتي على مهل، وأصخي السمع إلى مقطوعة موسيقية تبثها المسجلة، والضباب يغمر الأفق في غياب الريح. ما حدث لي، يشبه ما جرى لطيار حربي يحلّق في ليلة تفجرت فيها السماء نجومًا ونيازك؛ فاختلط عليه الأمر وهو يلقي بطائرته لرعونة الفضاء؛ حينها هوى إلى الأرض مخلّفًا فيها ركام طائرته، وروحه المحلّقة. في تلك الليلة رأيت الرجل المشوه يعبر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الشارع، ويعود إليه، مترنحًا بثمالة ملؤها الأسى. بيده عصا مرة يضرب بها الهواء، ومرة يجلد بدنه كأنه يعاقب نفسه على فعلة قديمة. ركنت سيارتي وهرعت إليه، وهو يركض نحو أرض بُور لا تؤثثها سوى الظلمة. تبعته لمسافة ثم فقدته. بقي صوتي يعدو في الظلام بلا صدى وأنا أثنيه عن تيهه، إلى أن خسرت الأمل. بعد مرور أسابيع قيل لي إنهم وجدوه في ليلة شديدة البرودة ميتًا في العراء. يومها بكيت بحرقة مردها الفقد، والرواية بين يديّ، يتهادى منها أنينُ (علي بن محمود القصّاد)، وصورة الرجل المشوّه تهبط من جدار ذاكرتي وتغير فكرتي عن الندم.

في غضون اثنتي عشرة سنة، وتحديدًا مع صدور (سيدات الحواس الخمس) ووصولها القائمة الطويلة لجائزة (البوكر)، تضاعف عدد قرائي؛ تضاعفت المحبة، وتضاعفت تهمتي بصيد الجوائز كأنها طيور، وكأن بندقيتي عالية الدقة في الإصابة. هناك من قال إني رسمتُ لي طريقًا، ومضيت من غير أن يدلني أحد حتى إلى ما فيها من أشواك، وحفر قابلة لفكرة السقوط. في المحصلة لم يشغلني هذان الرأيان، بل سعيت أكثر إلى رواية تخرج من إحدى صفحاتها شخصيةٌ وتقول كل ما أريد قوله، فأعتزل.

حين أفرغ من كتابة الرواية، وألقيها إلى الناشر، كما يلقي ولد جمرة من يديه إلى أحد آخر وهما في حقل عشبه يابس، أسارع إلى الطبخ. أعد طعامًا خارجًا عن المألوف. خطرت ببالي تفسيرات غير مقنعة لهذا الأمر، قلت مثلاً لزوجتي: إن هذا تكفير عن خطيئتي في العزلة، وأخبرت قرائي أني أحاول الخلاص من خسارات شخصياتي التي من الطبيعي أن تعلق بي كما يعلق الشوك في ملابس الحصادين، وقلت لنفسي إني أهرب مستعينًا بطريق جديدة؛ لكن دومًا هناك تفسير غائب لما يحدث، هذا الغائب هو الحقيقة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بعينها.

يحب قرائي ما أكتب، لكن عددًا منهم طلب مني أن أصحبهم في الروايات القادمة إلى بهجات وأمل تروض قامة الحياة. في كل مرة أعدهم بأن أرسم لهم عالمًا تمشي فيه الأيائل على الماء لكني أفشل. وما إن تصدر رواية لي، حتى أصاب بخلل عاطفي، أبكي سرًا، وبسهولة مفرطة. أنزوي كما يفعل قط يأسره النوم في الزوايا المعتمة. أضع كتبي أمامي وأتساءل: ما جدوى صنيعتي؟

في كل مرة أقرر التوقف عن نشر ما أكتب، لكن ما يجري لي أشبه بما يحدث لمدمن على تعاطي مادة مخدرة تصالحه مع واقعه؛ فيرى العالم ساحرًا لا ألم فيه. يبدو أني أتخلص مما في بطن ذاكرتي، وأهرب، ثم حين يلقى القبض عليّ أبذل جهدًا في التنصل مما فعلت.

هبطت ذات يوم شتائي إلى وسط البلد في عَمان؛ إحدى مفضلاتي المكانية في المشي بمفردي. أتأمل وجوه الناس، أنصت للضجيج، وأنصاع لروائح لا يعرفها الشقُّ المترف من عَمان. أفعل ذلك بحثًا عن صورة الولد القروي الذي كان يجلس على الربوة يحتضن رأسه بين كفيه ويحدق بالمدينة؛ فزارها بعد زمن، وأصيب بالحنين. إنها قراءة لا يمكن أن نمارسها على نحو جيد بمعية الأصدقاء، حيث تتعدد زوايا الرؤية؛ فتصير زاويتنا الخاصة مثل بالون تدفعه يدٌ في الهواء، بينما أيادٍ أخرى تنتظر دورها لتقوم بالأمر نفسه.

كان وسط البلد في ساعات الظهيرة تلك، مثل أم ما إن أطل رأس الشمس على الكائنات بعد برد ومطر قاسيين، حتى راحت تستدرج الدفء مشرعة النوافذ والأبواب، ومخرجة كثيرًا من مقتنيات البيت قبالة أشعة الشمس الدافئة. تذكرت كيف كنا أنا وإخوتي نتدحرج على الفرشات الصوفية، وأكوام

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الوسائد، وأغطية النوم ملقاة في حوش البيت والشمس تطرد منها رطوبة فصل الشتاء. أرخيت بدني على مقعد على الرصيف، أدخن، وأتقلب بين ما تمده إليّ يدُ الذاكرة، وبين ما أراه. بيوت صار بعضها مقاهيَ يهرب من نوافذها دخان (النراجيل)، وبعضها الآخر هجرها أهلها لأسباب منها العيش في الطرف الغربي من عَمان. استعدت ما قرأته لـ (باشلار) عن الأمكنة؛ فأخذت أنصت للأصوات العالقة في جدران البيوت، والساكنة في جنباتها. تخيلت نساء يجلسن في الشرفات، ورجالاً يقرأون الصحف، وفتيات ينظرن من بيْن الملابس وهي على حبال الغسيل إلى جهة تنهر القلب بيد البهجة.

مر بائع الصحف غريبًا أمام نهم العصر الرقمي بابتلاع كل شيء ملموس؛ فاشتريت جريدة، ورحت أتأمل عناوين تنبئ بتبدلات عالمية مرعبة. هاجمني الخوف، فتساءلت: ما الذي يخيفك في هذا العالم؟ في تلك اللحظات كنت أنظر إلى بيت فارقه ساكنوه، وأفكر بالبلاد بيتي الكبير، وبجسدي بيت روحي. قلت في سري: إلى متى ستصمد تلك البيوت ووحوش الزمن الجديد على حدودها؟

غادرت المقعد أمشي في زحام ازداد أكثر مع اتساع رقعة الشمس الدافئة. كانت أكشاك الكتب تعرض بضاعتها؛ فتأملت كتبي، ومضيت، ألتفتُ إلى الوراء بأمل، ثم تخيلت رجالاً يزيلون الأكشاك ويلقون الكتبَ في حاويات القمامة. عرجت على (مطعم أبو أحمد)، جلست إلى طاولة قرب النافذة، وفتحت دفترًا صغيرًا يرافقني دومًا، وكتبت بضعة سطور تشرح الفكرة، ثم أخذت أضع مخططًا أولياً، ومسارات للشخوص. حين انتهيت نظرت إلى الدفتر، وهو ملقى على الطاولة، ثم إلى أكشاك الكتب، والبيوت، والزحام، وإلى نفسي؛ فكتبت بين هلالين عنوان الرواية: (دفاتر الوراق).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بقيت لأشهر أتأمل الفكرة بلا انقطاع، وأجري تعديلات على المخطط، وإبراهيم الوراق يرافقني. كان عليّ أن أتجاوز بابه، وأمضي إلى داخله؛ لأفهم من هذا الرجل الذي سيحكي رواية يكتبها في مصح نفسي، وأن أعرف وبشكل عميق رجلاً وحيدًا في مدينة صاخبة، يهرب متقمصًا شخصيات روايات أحبّها، ووجد تقاطعًا بين عوالمها وبين عالمه الغريب؛ لهذا قررت أن أتقمص شخصيته، وأتخلى عن سيارتي، وأمشي بملابس رثة، وبإحساس كائن وحيد لا يعرف أحدًا في مدينة جاء إليها في بواكير طفولته. لم أكترث بنظرات كل من استغربوا سلوكي الجديد. تجولت في أماكن تنتمي إليها شخصيات الرواية. واجهت أبوابًا موصدة جرّت عليّ مشاكل لم تكن بالبال، وأبوابًا مشرعة عرّفتني بالشارع، وأهله. كنت أجد متعة كبيرة في عيشي داخل الورّاق؛ إذ بقيت لأشهر على هذه الحالة من التقمص، إلى أن حدث ما حدث، وأنا أعود من عملي عند غروب ماطر. طوال الطريق من (المفرق) إلى عَمان كنّا شخصًا واحدًا، تماهى بي، وتماهيت به أمام شمس داخلية حارقة بزغت لبرهة ثم تلاشت، يشكو لي وحشة الغروب، وكيف يهطل الليل ليسقي أشجار الوحشة. كان يقرفص في زاوية غرفة معتمة وراء بؤبؤيّ، وينظر إلى الأشياء كيف تخبو ألوانها شيئًا فشيئًا أمام سطوة دهَان يجيء كل يوم في اللحظة ذاتها، ويمعن بالعتمة. وكنت من وراء بؤبؤيه أنظر إلى الشارع والعربة تلتهمه كأنه أفعى كونية تهدد سكينة الكائنات. يشكو لي عطشه للبهجة، وجوعه للسكينة. وكنت أشكو له حاجتي لحياة نبتةٍ على ضفة نهر تجري مياهه بهدوء رقيق. غنيت طوال الطريق بسري للوراق وهو يرخي رأسه على كتف روحي وينشج بصمت الذين ما تبقى أمام عتمتهم سوى شكل بعيد للأمل. قرأ لي قصائد لم أسمع بها من قبل؛ قصائد تشبه غناء رجال غامضين يهبطون جبلاً وفي أيديهم مشاعل في ليلة معتمة حد الخوف. لم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يلاحظ أحد من ركاب حافلة العمل شيئًا عليّ، ولم يسمعوا عما يحدث بيني وبين الوراق.

عند الإشارة الضوئية هبطت من الحافلة ورفعت ياقة معطفي اتقاء لنسمة الهواء الباردة وصعدت الشارع. لا أدري من فعل ذلك؛ أنا أم هو! كنت على الجهة اليسار، كنّا على الجهة اليسار، وأنا أعبر الشارع نحو اليمين وهو يغني لي بصوت تشوبه بدايات البكاء. ورمزي -المستريح من رحلة طويلة مع السرطان-يقود سيارته على الجهة اليمين. غامضة تلك اللحظة التي لا تتجاوز ثانيتين. كانت السيارة تسرع نحوي وشريط حياتي يمر أمام عينيّ بسرعة خاطفة، يعرض صورًا، وينقل لي أصواتًا متداخلة. لا أدري من قفز إلى الوراء؛ أنا أم إبراهيم الوراق، لكنني أتذكر كيف طار الورّاق معي في الهواء، إثر ضربة السيارة لجسدي، وأتذكر كيف أخذ بلهفة يتفقد يدي، ورأسي الذي ارتطم بالإسفلت، وكأنه يخشى على فرصة خروجه من تلافيفي السرية إلى بياض الورق.

أتت الصدفة بابني؛ فرأيته يقف عند رأسي وأنا ملطخ بالوحل، أنظر في وجهه مبتسمًا، وهو يمنعني من أية حركة في انتظار سيارة الإسعاف. كان إبراهيم الوراق ما يزال معي ويشير إلى مفازات جديدة في الرواية. في المستشفى طلبت ورقة وقلمًا، ودونت أمام استغراب الطبيب ما قاله لي الوراق، وحشرت الورقة في جيبي، واستسلمت للألم.

بعد أسبوع من الاستلقاء في السرير، وتلقي العلاج، بدأت بكتابة الرواية. وجدتُ أن نصف ما خططت له غير صالح للكتابة، وأن هناك مسارات جديدة خلقت لم أفكر بها من قبل. كنت أكتب يوميًا؛ أجلس إلى طاولتي من الساعة الثامنة مساء حتى الثانية عشرة منتصف الليل، أربع ساعات لي من يوم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عمل أخرج إليه عند شروق الشمس، وأصل بيتي عائدًا منه عند غروبها. ثلاث سنوات أمضيتها برفقة الورّاق، كانت كفيلة بأن تتشبث هذه الشخصية بي، وتقف حائلاً بيني وبين كتابة جديدة. شخصية لا حل للتخلص منها سوى اغتيالها من دواخلي؛ طريقتي في الذهاب إلى رواية جديدة. بعد صدور دفاتر الرواية تلاحقت طبعاتها بسرعة، ومضت في طريقها إلى العالم العربي. كنت أخشى أن مزاجها السوداوي سيقف عائقًا بينها وبين القراء، لكن معظمهم وجدوا أن الوراق وقف على خشبة مسرح الرواية وقال ما لم يقولوه.

سألني الصحافيون: هل كنت تتوقع وصولها إلى القائمة الطويلة لجائزة البوكر العربية، ووجهوا لي السؤال ذاته حين وصلت القائمة القصيرة، ومن ثم فوزها. كان سؤالاً إعلاميًا بامتياز، لا يجيب عنه بنعم إلا من يضرب بالرمل. الجائزة -أي جائزة- هي طريق إلى مزيد من القراء، وبالتالي مزيد من قراءة ما كتبت. في تلك الأيام كنت مسرورًا بما جرى لي من احتفاء، لكنني فيما بعد خشيت على مساحتي الخاصة من جديد؛ إذ بات مقص الشهرة يبدد كثيرًا من وقتي، وأخذ الأعداء الجدد يقتربون منها، لذا باتت العزلة خياري لأنسى الوراق، والجائزة، وأغرق في القراءة التي كانت تلمع لي أثناءها ملامح رواية جديدة. إن خطرت فكرة روائية فإني أتناساها، وإن بقيت تلح عليّ فهي جديرة بالكتابة، تمامًا مثل الحب علينا أن نمنحه وقتًا لنتبين هل هو حقيقي أم زائف.

إن أكثر ما خشيت منه بعد الجائزة هو إما أن أسعى إلى إطالة أمد لذتها؛ فأتعجل برواية جديدة، أو أن تصل أيادي الشهرة إلى مساحتي الخاصة، أو المنطقة الفطرية الأولى التي أنطلق منها إلى الكتابة، حينها سأكتب ما يريده

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القارئ، وما أريد أن ينال رضاه، أو أنصاع إلى أولئك الذين يرغبون بقراءة أدب للرفاهية. لهذا قطعت الطريق على كل ما يمكن أن يبدد غرضي الأول من وراء الكتابة. إنها مساحتي التي تضبط خطوتي في هذا العالم.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

5

انتهى ذلك اليوم عند كنيسة (إتشميادزينه)، بعد أن تنقلنا بين أديرة بنيت في جبال (أرمينيا). هبطنا من الحافلة عند بداية طريق تحفها الأشجار نحو الكنيسة. كانت (قوهاش) صامتة على غير عادتها وهي تمشي بقربي. وموسيقاي الداخلية تشغلني بقوة؛ تفر من دواخلي بوتيرة لم أعهدها من قبل، تحوم بين الأشجار، وتنهر المكان، وتصيبني بحالة تضعني بين رغبتي بالبكاء، ورغبتي بالجلوس على صخرة، وأغرق في التأمل. بعد بضع خطوات أسندت جسدي إلى شجرة، أشعر باستسلام لم يحدث من قبل. انتبهت (قوهاش) بعد أن سبقتني بخطوات؛ فعادت متسائلة. قلت لها وصوت موسيقاي الداخلية يتعالى: هل تسمعين صوتًا موسيقيًا ما؟ أشارت بيدها إلى الشجرة التي أتكئ عليها، ثم إلى أشجار أخرى: ألا ترى مكبرات الصوت؟ جلست أرضًا، تصيبني حالة قصوى من الارتباك: هل هذه المكبرات هي من تبث هذه الموسيقى؟ اقتربت مني مستغربة مما يحدث لي: نعم. وما اسم هذه الآلة؟ قالت وهي تحرك أصابعها قرب فمها: (دودوك).

هل كانت ستصدقني قوهاش لو قلت لها إنني أسمع صوت هذه الآلة يأتي من دواخلي، منذ الطفولة؟ إذن تلك الموسيقى التي كنت أسمعها، أو أتخيلها طوال ما سبق من سنين عمري، هي للدودوك؛ موسيقى غير مؤذية كما يمكن أن يعتقد البعض، فكيف للموسيقى أن تكون مؤذية، لقد كانت أشبه بخلفية لبعض ما أرى في حالات معينة، غالبًا ما تكون لحظات إما تأمل، أو لحظات يتلبسني فيها الحزن بشدة.

الدودوك طريق لتفر العصافير المحبوسة في صدر العازف، نشيج الآدمي جراء خساراته المتتالية، نحيب روحه التواقة لفضاء لا نهاية له، نافذته على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الماضي، على حاضره الملتبس، وعلى أيامه القادمة، كيف لها أن تُعد مثل طبق لذيذ يأكل منه الضيف، والمضيف، والعابرون. الدودوك سيد الذاكرة، وعزّاب حنينها إلى الخطوة الأولى لآدم على هذه الأرض، حزنه الجارح، وسيرة رحلته للبحث عن حواء، مركز الكون، وأذنها الوسطى.

افترشت (قوهاش) الأرض، وأخذت تكرر سؤالها، تستفسر عما بي، لكنني ابتسمت في وجهها، ومضيت معها إلى وجهتنا، من دون أن أخبرها بشيء. لا يمكن لنا أن نبوح بكل ما فينا، لأن الآدمي حين ولد وجد نفسه في منطقة بين الحقيقة ونقيضها؛ لهذا يغادر هذه الدنيا ويقينه الوحيد أن ليس هناك أجوبة لكل الأسئلة.

في المساء جلست في الفندق أنظر إلى (يريفان)، بعد أن أمضيت ساعات أقرأ عن هذه الآلة. كنت أحدق بالأشياء، ونشيج الـ (دودوك) ورائي يثير بي شعورًا جديدًا صالح بيني وبين ضجيجي الجواني. وعند الفجر وحينما حلقت الطائرة فوق (يريفان) والشمس للتو تطل من وراء جبالها المنتشية بطبقة من الضباب، كان نشيج الـ (دودوك) هذه المرة يأتي إليّ من زاوية أخرى، مثل كهل يثنينا عن الندم. كان يأتي رقيقًا، حانيًا، يتهادى من تلك البقعة السرية في دواخلي، يشرح لي جانبًا خفيًا من الحياة لا يتحدث به إلا أولئك الذين داهمهم ضجيجهم الجواني بضراوة. يهمس لي بأن وراء الكون أغنية، ووراء الأغنية كون لا يمكن لنا أن نفهمه إلا إذا تأملنا الحكمة من وراء مرور الريح في النايات.

أفتح كتاب (حمزاتوف)، وأقرأ:

(حين لا يغني الرعاة تكف النعاج عن قضم العشب. لكن حين تعلو الأغنية فوق السفح الأخضر، ترعى العشب حتى الحملان الجاهلة التي ولدت توّاً).

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

***

أقف الآن أمام ما مضى لي من سنيني الاثنتين وخمسين، تمامًا كطفل قبالة طائر يمسح عين صياد مُنيت بِذرة غبار، وهو يصوب بندقيته نحوه، غير مكترث بما ستجلبه المكيدة. صوت (بورخيس) يتهادى من ورائي يقرأ قصيدته: (لو عشت حياتي من جديد)؛ فألتفت، لأراني في عمر المراهقة، حين انتقلت من القرية إلى (مادبا) لأكمل المرحلة الثانوية، حيث حوصرت بجملة من المحاذير: لا تدخن، لا ترسل شعرك على غرار رغبات الجيل الجديد، لا تغب عن مدرستك، لا تقترب من الفتيات اللواتي يعدن مشيًا من مدرستهن إلى بيوتهن. كان تحذيرًا صارخًا، ترددت فيه مفردة الأخلاق عشرات المرات؛ فانتبذت لي طريقًا لا فتيات فيها. لا أدري، هل كانت طاعة أم خوفًا؟ لكني في الحالتين ربحت شعورًا طاغيًا بالحرمان. أخذت حكايات الطلبة ومغامراتهم تثير حفيظتي العاطفية يومًا إثر يوم، إلى أن قررت الخروج على هذا البند الذي رأيته مجحفًا من جهة، وفي تجاوزه خروجًا على الأخلاق من جهة أخرى.

صارت طريقي تمر بي من أمام مدرسة البنات؛ فأرى أشكالاً جديدة للتقرب، والغزل، وإطلاق طيور الآهات الحبيسة، ومع كل يوم يمضي تكبر رغبتي بأن أقوم بخطوة عاطفية تسجل لي في فضاء الذاكرة التي أدلقها يوميًا في دفتري، رغم الخوف، والصراع الذي أقف فيه حيال فهمي للأخلاق.

ثمة فتاة لا يقترب منها أحد، تقف مع زميلاتها، ينحدر شعرها الفاحم إلى أسفل ركبتيها. فتاة جميلة، يحيطها جمالها بأسلاك شائكة تثير الرهبة بمن يفكر بخطوة نحوها. تنتظر سيارة فارهة يقودها سائق خاص يقلها في الصباح، وعند انتهاء وقت المدرسة؛ فهي ابنة عائلة أفرادها متنفذون. كنت

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أراها يوميًا، ومع انتهاء كل يوم أكتب عنها في دفتر يومياتي ما يسقي شجرة نمت في دواخلي بغتة، إلى أن مررت بقربها. كانت المسافة بيننا قريبة من الدرجة صفر، وهي تقف على طرف الرصيف تضحك بدلال كبير، بعد أن منحت الهواء تصريحًا حصريًا لمداعبة شعرها، فاقتربتُ متجاوزًا صراخ التحذيرات، ورفعتُ شعرها إلى الأعلى، وشممته، ثم احتضنته، ومضيت متمهلاً بعد أن رأيت ابتسامة تفتحت في وجهها، بينما رفاقي يسرعون من خطواتهم هربًا مما قد يجر عليهم الاقتراب من وردة محرمة.

قبيل النوم في مساء ذلك اليوم كتبت في دفتر يومياتي، بلغة لم أعهدها من قبل عن فتاة كانت تهبط جبلاً في ليلة مقمرة، تتبعها أيائل في قرونها مصابيح لا تنطفئ، ونمتُ، نمت بعد خدر لذيذ أخبرني عن جانب آخر من الحياة.

أقف الآن أمام سنيني، وصوت (بورخيس) يسائل ذاكرته بالشعر؛ فأنظر إلى سنين قادمة، ستمضي رغم الضجيج الجواني، والغمامة الرمادية، والهروب إلى الكتابة، ورغم نشيج (الدودوك) الذي يريني زاوية تخصني للعالم، زاوية أحبها، لأن الحياة بلا حب، مثل بيت من ورق، ستطيح به الريح كلما جن جنونها.

تم الرفع بواسطة:
Telegram:@mbooks90

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner